مِن أيّامِ المحْتَشَد

سيرة روائية

مُحَمّد السّاسِي المَنصُوري

طبعة ثانية

دار المنتدى للنشر

محمّد السّاسي المنصُوري

منْ أيامِ المحتشَد

(مِحنةُ طُلاَّبٍ مجنَّدِين بمُعتقَل "رجيم معتوق" فِي سِنين الجَمْر)

إهداء:

.إلى روحِ أمّي النّقيّة وقد جدّلتْ من حُبِّها معاريجَ كيَاني، وسبَكتْ بكبريائِها آلاءَ وِجداني، وعتّقتْني شيْخًا من المهدِ، وتأمّلتُ فِي مرآة ذَاتِها وَجهِي و تفاصيلَ ألْواني ...

.إلى أبي الذِي متَّن بجِدِّه عُودي وأشْجَى ألْحَانِي..

.إلى رفيقةِ العُمْر أرْفدَتْ صبْري وضمّخَتْ أفراحِي ووَاستْ ليلَ أحْزاني..

.إلى أبنائي: (فِراس وأُسَامة و زَيْنب) براعِم عُمري أزهرُوا عبَقا، وشَدَوْا عذْب النّشيد على أهْداب شُطْآني...

.إلى إخوةٍ كزُغْب الطَّير غنّيْنا صِباناَ على أوتارِ حِرمان...

.إلى جِيلٍ منسيّ من معتقَلي "رجيم معتُوق" وكلّ حُرّ ما دانَ لِصُلبان...

شُكر:

أتقدّم:

.بجزيل الشكر إلى الدّكتورين: عليّ الغيلوفي وعبد القادر عليميّ لتفضّلهما بتقديم بِكر الذّاكرة وأنّةِ الوجدان..

.برائق الودِّ لقرّاءٍ وَاكبُوا مخاضَ النصِّ وتشكُّلَهُ من عدَم، وأترَعوه بفيْضِ ملاحظاتِهم فأَغنَوْهُ حتّى كان...

تصدير

1ـــ كلُّ طليعةٍ تُضحّي،أيُّها الإخْوة، وهلْ نحن إلاّ طليعَة منذرَة، تنزِفُ جراحُنا دَمًا في هيْكل الأسرارِ و نُقدَّمُ مَحْرقةً يذوبُ لحمُها تمجيدًا للأصنامِ القديمةِ..

فريديريك نيتشة

(هكذا تكلّم زرادشت)

2 ـــــ أنَا المشغُول بالأيّامِ أمْضي إلى زمنٍ و بي زمنٌ عقِيمْ

سَتخْلعُنِي عواصمُهمْ.. سلامًا.. كفانِي أنّ صحرَائي رؤُومْ

ويكْفي أنّهُمْ غابُوا وقُمْنا.. إلى قَفْرٍ عمارتُه رُسومْ

هُمُو دَخلُوا مَساكنَهم وإنّي بِملْئِكَ أيُّها الوادِي مُقيمْ

أرُدُّ ذِئابَهُمُ عنّي بلحْمِي فَياَ مُزَقِي أفِضْن بمَا يدُومْ.....

جمَال الصّليعي (وادي النّمل)

3 ـ يعبُرون الجسرَ في الصُّبح خِفافًا ، أضلُعي امتدّتْ لهم جسرًا وطيدْ ..

من كُهوفِ الشّرقِ ، من مستنْقَعِ الشّرقِ ، إلى الشّرقِ الجديدْ ..

أضلُعي امتدّت لهم جسرًا وطيدْ..

اِخْرسِي يا بومةً تقْرعُ صدْري ، بُومةَ التّاريخِ منّي ما تريدْ ؟

في صناديقِي كنوزٌ لا تبيدْ...

خَليل حاوي (نهر الرماد)

مُقدّمة الكَاتِب:

هذا النّصُّ نزيفُ أوجاعٍ وجراحُ أيّامٍ منْ تَجْربةٍ مُعتَّقَةٍ في دِنانِ العُمرِ رَبَتْ عنِ العُقودِ الثّلاثة. و قدْ ظلَّ حَبيسَ الغياهِب يتهدّجُ تحت الأكْمامِ ولا يُفصِح أو يبُوح، وكَالأخْرسِ يُتمْتِم ويَغْلي ولا ينْبِس، وكالظِّلّ يلازمُني ويُخاتِلُني ولا يتلاشَى حتّى في العَتَمة. كنتُ أُداوِر شَقْوتَهُ وشَقاءَه وأُناوِر شَهْوتَه واشتهاءَه، مع تأْجيلِ الصِّدام بين أضْلُعي والكِيان، وأنا أتربّصُ به حِينًا وأتخاذلُ آنًا خوْفَ الغَرق في خِضمّه وفيْضِه قبل رياحِ الغوْصِ، أو الاحتِراقِ في ضِرَامه وقَيظِه دون أوانِ القِطاف. وخفْتُ تشْويهَ وِلادتِه من عَالَمِه الأثِيل فيأتيَ خديجًا يعافُه -حينَها- حاضِنُه البِنَائيّ العارِضُ ويتهافتُ جوهرُه النّاكِزُ. ولمَّا تبرّج بُرعُما وألحّ في التَّفتُّح والتَّجلّي خَشيتُ أُفولَ الجَهدِ وتناثُرَ أيّامِ العُمرِ فَغامرْتُ فِيه متردّدا مُرتبكًا وبِي ارتعاشَةُ المُرتَحِل الملْهوفِ تُعْوِزُهُ الرّاحِلَة ويشْتدُّ به الوَجْد ويُحرقُه لفْحُ الصَّبابة،ولكنْ ترْبدُّ طريقُه ولا تُطاوِعُه المُدْيَة لبَطْرِ الذَّاكِرة، حتَّى كان لقاؤُها بِوَحْي اللَّحظةِ في مخَاضِ المُعْسر تَستعْجِلُ الوضْع اسْتنْفارًا وتَسْتقطِر الجَهد اسْتقطارًا. فاختصرَ العقودَ الكالِحاتِ في وَابِلٍ جارفٍ من سيلِ أشْهُرٍ ثلاثةٍ نُحِتَ فيها النصُّ وسكَن المعْنَى مبْناه وهجَع ،و أنا في لُجّ هواهُ ،أرَاني كَمنْ بهِ شوْقُ الانتِهاء وقدْ شقَّ عليهِ الابتداء. وحينَ نفخْتُ في رمادِه إذا هوَ مُلتهِبٌ ما خمَد و لظاهُ حيٌّ يتَّقد ، ونابِضٌ هامِسٌ مُذّاكَ، لم يطْوِهِ النِّسْيان ولا خانَه البيان. وبدَا تشكُّلُه في لسْعَةِ الأَلَمِ ولذْعَة الوَجعِ بتَكْرارِ المَعِيشِ في الذِّكْرى وتَصدُّعها، وفي نَشْوة التَّهجُّدِ ولذّةِ التَّطهُّر بالتذكُّر ووضْع الأحمالِ الثّقال.. وليس لقارئه أنْ يَظْفَر فيه بجديدِ الوقائع في أيَّامٍ منْ محتشَد طُلابٍ مقهُورين ذاتَ سنِين، ولكنَّه بُؤرةٌ من زَوايا النَّظر ومِدادُ عيْنٍ رامتْ مُشاهدَةَ ما حدثَ كما تهيّأَ لهَا، فصاغَتْهُ المُهْجةُ بدرجَةٍ مَا من صِدْقِ الوَقْع و مِصداقيّة الوُقوعِ.. وآمُلُ أنْ يَتْرُكَ في القارئِ بعْضَ أثَر...

م .س . م.

تونس: أفريل 2019

مقدمة رواية "من أيّام المُحتشد "لمحمّد السّاسي المنْصوري

د .علي الغيلوفي

المُحتشَد بين اتّساع الصّحراء و بأْس المِحنة

بين الرّاوي و الفضَاء في رواية" من أيّام المُحتَشد "قِصّة .إنّها قِصّة الحياةِ تتلوّنُ بلون المأساة .لم يكن الفضاء الرّحب رحْبا إلاّ على مستوى الجغرافيا والصّحراء بكُثبانها ورمالها رحبة . نعم . لكنّ الرّاوي في مَسيرته النّضاليّة" العقابيّة "يخلُق على مستوى السّرد والحدث ضِيقا حرجا .تضيق النّفس بالمكانِ الرّحب حتّى لا مزيد على ضيقه ضيقا .تتسلّطُ النّفس أثناء سرد الحدث فتجعل الفسحةَ عقابا والمرحَ تعبيرًا عن محنة الذّات و"الرّكشةَ "وقفة تأمّل .وأحيانا ،تتحوّل الوقفة مع الذّات موقفاً من" الأشغال شبه الشّاقة ."واجب عسكريٌّ وطنيّ يستحيل عقوبةً سالبة للحريّة بمنطق القانون .إنّ آلةَ القمْع التي طالت الرّاوي ، طالبا في مدارج الجامعة جعلت الأحْداث تسيرُ على غير هُدى .فالرّاوي يعرفُ متى وطئت رجلاه الصّحراء ذات ربيع سنة 1986 ، ولا يعرف نهايةً لمأساته.

يغادرُالرّاوي" البطل "ـــ وإن كان سلبيّا في أحايين كثيرة ـــ مسقطَ رأسه في هضاب "الكرشون "كارهًا للمكان وهو الشّاهد على فقْره الماديّ إلى العاصمة أملا في الحصُول على الشهادة العلميّة التي ستمكّنُه من الخلاصِ من واقع التّهميش ناظرا إلى غد مشرق . وتسير الأحداث على غير ما يهوى. يدسّ أنفه مُريدا في مسيرة نضاليّة احتجاجا على قصف ليبيا بالطّائرات .ثمّ تنالُ يد البطش طالبا تُرديه " شهيدا "فتثور ثائرة الطّلاّب دفاعاعن الحُريّة التي لم يكن الرّاوي ليتنازل عنها كلّفه ذلك ما كلّفه. تتلقّفه المعتقلات فالمحتشدات ليصبحَ رقما في مسيرة نضاليّة يعرف بدايتها وتبقى نهايتها في علم الغيب .لكمْ كرِه سلطة دولة ما يُسمّى "الاستقلال" القمعيّة تلوّث مشهدا سياسيّا طلاّبيّا يشقّ طريقه نحو جوٍّ من الحرّيات دفع الطّلاّب دماءهم فداءً له .

إنّ حركة الرّاوي في النّصّ السّرديّ دائريّة يتحكّم فيها المَكان . من" الكرشون "إلى العاصمة حيث الأمل .يقَرّ قرارُه ،ثمّ يُحاصَر فيُرمى مُغرّبا نحو" رجيم معتوق"، اسم على غير مسمّاه لا عتق ولا هم يحزنون . يقضي ماكتب الله له أن يقضي في الرّمال مدّة يحصيها في" أيام المحتشد".يُطلَق سراحُه فيعودُ إلى مسقط رأسه فالجامعة ثانية .لم ييأس ولم يفت في عضده، يستدير ولكنّه لاينعزل .ويخلو إلى نفسه دون أن يتضاءل أو ينفر من مسيرة النّضال التي اختارها مُريداً. يسيرُ الرّاوي "البطل " في حلقة دائريّة مكانيّا،ما إن يستقرّ في فضاء حتّى تقضّ مضجعه السّلطة تغيّر المكان تنغيصا للذّات البشريّة التّوّاقة إلى الحريّة، فداخل الفضاء الصّحراويّ تتعدّد المحطّات :المطروحة فرجيم معتوق فالمطروحة

ثانية . والمأساة هي المأساة والمحنة صنوف، صراع مع الرّمال لا ينقطع، ومشهد يتحرّك داخله دون أن يفهم مناراته : يرى الجِمال والرُّعاة بقطعانهم من معز وضأن فيحسدهم على ماينعمون به من الحريّة ، يتنقّلون في فيافيها دون قيد و لا رقيب .امتداد في المكان لاتحويه الأزمنة. يرتحل داخل الفضاء الرّحب المنغلق المنفتح بحثا عن راحة بال لا يظفر بها لأنّ استتباعات العقوبة تلاحقُه ، فتُنغّص عليه لحظة الصّفاء المؤقّتة. يتتبّع الكاتب، والرّاوي صورته، المكان بمختلف تشكّلاته ولا يعثر على راحة بال ولات حين راحة .تتشابه الأماكن المتعدّدة في الرّواية :الخيمة والبئر وفضاء " الرّكشة "والحفير والزّريبة و بطحاء المعسكر يقاوم بها زحف الرّمال ولا يحقّق مرادا ولا هدفا .لم يكن شخصيّة فاشلة، ولكنّ السّلطة في البلدان المتخلّفة تُخلخل أسباب النّجاح فتتدحرجُ في قاع لا قرار له .لم يخطر بباله ، وهو يتعلّم الحروف الأولى في المرحلة الابتدائيّة بالفيلاج ، أن يكون فاشلا ولكنّه بالإكراه تحوّل إلى صانع" تفاهة " أثّثَ بها أيّامه في المحتشد .فمرّةً يُراقص أفعى، وأخرى يعابث أصدقاءه بألعاب الصّغار لصنع الفكاهة و ثالثة يمازح المارة و الأغراب للتندر والإضحاك في براءة الصبيان. ولحلاقة الذّقن مشقّة في حياة الرّاوي كما لِكُسكسي " الرّكشة "مكانة في نفسه يستعيض به عن "الرّاقو "حيث لا يظفر أمهر السّبّاحين بحبّة حمّص.

إنّ البطولة في الرّواية موزّعة بين شخصيات كثيرة كانوا شركاء الرّاوي المبدع في المحنة . ولعلّ رؤية محمد الساسي المنصوريّ وزاوية نظره حرصت على توزيع البطولة بأحداثها على من ذكرهم بالاسم، علي وحكيم وحمّادي وعماد ومنصور وفرحات ولطفي وغيرهم كثير: طلبة مجنّدون أُطلِق عليهم مخاتلة " جنود حصّة خاصّة ."شخصيات واقعيّة شاركت الرّاوي المكان والأحداث .وكلّهم في المأساة والمحنة سواء حيث حرصت السّلطة على العدالة في العقوبة دون الثّروة .لقد تبخّرت طموحات الطّلاّب ولم يبق منها سوى ذماء روح يصارع " لفح الهجير "بلا لثام ،وقد تدرّبوا جميعا على مراقصة الأفاعي بل استخراج سمومها وتتعالى أصواتهم وهم يُحرِّشون الورل للفتك بها .ألعاب صنعها القلق يزيّن بها "المحتشدون "أيامهم لتوفير لحظات مرح يَجتزِئونها من الزّمن .يضحكون من الرّياح تقتلع الخيام من أوتادها، و يمزحون عندما تحترق الخيمة ليلا وينجون من موت محقّق بقدرة قادر.

تشتدّ وطأة المحتشد على الرّاوي .غصّة المكان وأمل مفقود، سراب خلّب وعقوبة قاتلة في محتشد أشبه ما يكون بمعتقلات التّعذيب المنتشرة على امتداد جغرافية البلاد العربيّة حيث يموت المرء مرّتين مرّة بالشّهيق وأخرى بالزّفير .وللكاتب،وهوالرّابض خلف الرّاوي الشّخصيّة العليم بتفاصيل الشّخصيات والمكان والزّمان ، قصّة مع الإنسان والمكان والزّمان..يقسو عليه الزّمن فيضيّق عليه الخناق ويلتجئ إلى الإنسان فيلدغه كالأفعى إلاّ من رحم ربّك .قسا الزّمن وعربد ، وقسا المكان واحتدّ ،وشمت الإنسان حقدا على الطّالب الذي

"وفّرته الدّولة ما وفّرت "، فأنكر "فضائلها" وأعلن معارضتها لم تنظر إليه بعين الرّضا . فكان ما كان ،اعتقالٌ فسجنٌ فعقوبة في المحتشد و تعذيب ممنهج.

ومن المضحكات المبكيات أنّ" العيون التي لا تنام "من وُشاة ومبلّغين ولجان يقظة و بصّاصين وعَسس في " الفيلاج " تستغرب عودة " البطل "سالما يمشي على رجليه في ظلمة اللّيل يستحثّ الخطى نحو الدّيار،ترمقه العيون فتشي به لتحاصره سيّارة الشّرطة فتعتقله ليقضيَ الهزيع الأخير من اللّيل في " المخفر "بين "سؤال " و"جواب ."لماذا سُرّحتَ؟ ومتى؟ وأين تشخص في هذا اللّيل البهيم؟أسئلة شتى كانت ترتعد لها رُكَب من زار مخافر الأمن خشية أن يزلّ اللّسان فيُؤخذ إلى حيث" لايرى الشّمس "أو "وراء السّحاب ". وهي عبارات تشي بشدّة القمعِ وحرّ العقوبة وألم الاعتقال .

لقد خبِر الرّاوي الأماكن ومُعجمَها .أحرقت الشّمس اللاّفحة الجسد فاستحال كُتلة صمّاء تتحدّى المحتشد والمشرفين عليه وإنْ بالغوا في أذاه وبَغوْا. والزّمن في الرّواية يعدّه الرّاوي بالأيام وقد أحصاه عدّا ، ترك أثرا في الجسم والخُلق والسّحنة .أجبرته رمال الصّحراء برياحها وعجاجها على أن يكون مُلثّما رغم أنفه ملتزما باللّباس العسكريّ على كرهه الشّديد للخضرة لونا شوّهته "صَبْغة "السلطة.

إنّ الصّلف الذي واجهه الرّاوي في الأحداث لم يُثنه عن" الإيجابيّة "يواجه بها بطش السّلطات، وما المحتشد إلاّ أداة من أدواتها .يرفض القمع ويواجهه ولو بالحجارة،تهجم عليه الكلاب المدرّبة والمدرّعات فيواجهها .تناله سطوة النّظام وسياطه فلا ينصاع وإن وطّن على الكره نفسَه ، يشاكس دوما ويرفض العمل فيلوذ " بالرّكشة "هربا من المِعول والرّفش والجريد الذي يسيّج المكان و يُدمي الأكُفَّ . يُطلَب منه مقاومة التّصحّر الذي لم يسئ إلى والديه فَيجدُ العمل تحت طائلة العقوبة في غير محلّه بؤسا وهو أشبه ما يكون بما قام به "سيزيف "يصّعّد في الجبل والصّخرة ثقيلة والجهد عبث .

تبدو شخصيّة الرّاوي متوتّرة دوما تبحث عن استقرار ولو مؤقت فلا تظفر به فضلا عن السّكينة . إنّ توتّرها تبرّره الأحداثُ تعصف بالحلم والأمل في" الحريّة والشّغل والكرامة ." إنّه خطّ السّير الذي رسمه لنفسه وهو ابن الفلاّحين والمهمّشين يتمسّك بحقّه في الوجود والحياة مثلما يتمسّك بالأمّ " مرتميا في أحضانها "و الأرض وما تشيان به من معاني الانتماء التي ينظر إليها الوشاة بعين الرّيبة. والطاّلب معارض للسّلطة في كلّ الأحوال وخطر على السّلم الأهليّ .و ربّما اتّسعت دائرة خطره ليكون سببا في انفجار مفاعل "تشرنوبيل" وتفكّك الاتّحاد السّوفياتي. وهو من فجّر لاحقا جدار برلين .و كلّ الآفات التي تحصل في الوطن من تدبير الطّلبة و إن كان منهم من انصرف إلى همّ يومه .وما الحرارة

المفرطة و الرّمضاء واحتباس الأمطار ونقص العلف وانقطاع الكهرباء والومد في الخريف إلاّ أعمال من رجس الطّلاّب، مدانون بها لتتلقّفَهم المحتشدات على امتداد الصّحراء .

إنّ الرّاوي شخصيّة سياسيّة " رغم أنفها" توصَدُ أمامه الأبواب فتشتدّ تناقضاته مع الواقع . لذلك ، يهرب إلى الأمام مُقبلا على قدره بسخرية يتضاءل أمامها أعتى الصّعاب: يتجاوز أيّام الجوع في المحتشد ، ويخلق لنفسه بابا للأمل فيتجاوز ضِيق الصّحراء بحلقات النّقاش الثّقافيّ التي يحرص عليها .إنّه رجل المِحن لا تنقطع عنه الحيلة التي تُخرجه من رتابة الموقف إلى فسحةٍ سرعان ما تنغلق عليه لتُشعره بالعجز .ثمّ يعاود الكرّة عَوْدا على بدء .لم يكن اليأس يعرف إلى نفسه سبيلا .فهو بطل،وأيّ بطل يختزل جيلا بأكمله ، يؤمن بالحريّة ويدافع عنها ولو كلّفته حياته .إنّه الجيل الذي أوهمته دولة الاستقلال بأنّها وحدها المسؤولة عن حريّة مواطنيها وكرامتهم.لذلك اتّسعت الشّقّة بينه وبين النّظام، فوجد نفسه يقاوم الرّمال في الصّحراء في خطّة لا"وطنيّة " لإعمار البلاد وتوفير لقمة العيش للعباد.

لم تكن مسيرة الرّاوي سوى حلقة من حلقات الكفاح الوطنيّ ضدّ من نصّبوا أنفسهم حكّاما بالقوّة ، يفكّرون عوض المجتمع وينفّذون مخطّطات "تنمويّة "بأجهزة الدّولة القمعيّة .لذلك ، اعتبَر السّاسةُ الطّلبةَ معارضين قبل الأوان يتآمرون على أمن البلاد يريدون الاستيلاء على السّلطة. لقد غدا الطّالب في الجامعة خطرا محتملا .كان عليه أن يقبّل يده وجها وقفا ويحمد السلطة قبل الله على النّعيم المقيم: فالدّولة هي من قضى على جحافل القمّل وبنَت المدارس والمستشفيات ،وحتّى لقاح الرّضّع الذي تقدّمه الهيئات الدّوليّة يبقى من بركات النّظام والدّولة الرّشيدة.والرّاوي " المعارض المحتمل " لم يحمد الله ولم يبارك إنجازات النّظام . لذلك سلّطوا عليه عقوبة تحت لافتة " الخدمة الوطنيّة." فلا غرابة أن يُزَجّ بالرّاوي البطل في المحتشد الصّحراوي فيواجهه بِعَدّ أيّامه وسرد لياليه بأحداثه و إن بدت بسيطة ساذجة أحيانا .وقد اختار سرد الأحداث خطيّا بُني على ومضة ورائية أطّرتها وهذا ما يجعل من الرّواية أشبه " بفلم تسجيليّ "يوثّق يوميات الطّلبة في محتشد" رجيم معتوق "في منتصف الثمانينات من القرن العشرين. إنّ التّفكير في نقد السّلطة يودي بالإنسان في وطنه إلى السّجون والمحتشدات حيث يتعلّم " الأدب "نحو الزعيم المؤسّس وهو من أخلى الرؤوس من القمّل وعلّم النّاس وأطعمهم خبز" الكنتينة ."وعن المدارس ومراكز الصّحّة والجامعات فلا تسل .فتلك فضائل تجعل جاحدَها خلف القضبان أو في الفيافي والمحتشدات .و هي محتشدات،الدّاخلُ إليها مفقود والخارجُ منها مولود .و قد ضيّقت السّلطة على الرّاوي الخناق حتّى اختنق .فضاق الفضاء عليه وهو يعاني بضنكٍ تجربةً مريرةً ، النّجاةُ منها ضربةُ حظّ.

يغادر الرّاوي المحتشد في رحلة إلى العاصمة حيث ينزل ضيفا في مخافر الشّرطة . يغادرها ليبدأ مسيرة جديدة من النّضال وإن خلخلت التّجربة المرّة كيانه وشوّشت أفكاره . يعود إلى النّضال الطّلاّبيّ غير تائب ولا منصرف عن التّحصيل العلميّ.

إن للكاتب، والرّاوي واجهته السّرديّة ،مواقف من الفنّ والآداب .ينحاز إلى العربيّة ثقافة وموطنا . وهو المبرّز فيها. يقبل على كتابة الرّواية وكانت فاتحة إنتاجه " من أيام المحتشد " بعدما تجاوز الخمسين ليتنفّس فنّا هو فيه بارع .شهادة على العصر يوثّقها في زمن يكثُر فيه الحديث عن البطولات الزّائفة .يخرج الكاتب من ضيق المكان إلى اتّساع الثّقافة الحرّة انتماءً وانتصارا للحريّة في السّياسة و الإبداع .و ما روايته إلاّ بداية مسيرة فنيّة وقد جرّب السّياسة ففاض عنها وعزف ، وجرب الإدارة فاكتوى بنفاق المخلوقات وحقارتهم ،وجرّب الأدب فوجده أرحب من المكان الذي قهره وضيّق أنفاسه .

في رواية محمد الساسي المنصوري إبداع في بناء الشّخصيات وقدرة على توزيع أدوار البطولة على أفراد شركاء في المحنة .و فيها عُمق تحليل للنّفس البشريّة في لحظة زمنيّة محدّدة حيث تُطبِق المأساة على الإنسان في التأملات ولحظات التجلّي وفي اللّقاء و الوداع . يُطوّع الكاتب الحدث البسيط اليوميّ لمجال فسيح يعرضُ فيه المشاعر ويعبث بها ويصوِّر ما تظهر الشّخصيات وما تبطن.. م .س.المنصوري روائي لا كالروائيين ، بالبسيط من اللفظ يبني صرحا روائيا . رواية حاورت النفس و غاصت في عمق الشخصية المقهورة وكاتبها لم يحتكر البطولة بل وزّعها على شركاء المحرقة. رواية استشار فيها القراء وهي سابقة تُحسب له . إنها ممارسة لنظرية التلقي حيث يُصبح القارئ شريكا في الإبداع .. ومحمد السّاسي المنصوري في النهاية واحد من أبناء جيله شاركوا في الاحتجاج على سياسة الحكّام ،رفضوا قصف الأمريكان ليبيا وقتْل الطّلبة بتعلّة النّشاط السّياسيّ في الجامعة.و ما رواية " من أيّام المحتشد "إلاّ باب ينفذ منه الكاتب إلى النّضال الذي يفضح السّلطة الحاكمة التي تعتبرحتَّى سلامةَ الجسْم منّة نُسبّح من أجلها " لجمهوريّة مدى الحياة ."

هذه قراءة متواضعة لرواية تلوّنت بالمأساة، وقد اكتويْنا بلظى المحتشد سوِيّا ذات سنة منتصف الثّمانينات في القرن العشرين، فتركتْ آثارها في الأجسامِ والنّفوس جراحا قد يداخلها الإبلال بمتعة الكتابة .

مجاز الباب في 20 أفريل.2019

د .علي الغيلوفي

الفصل الأول

- 1 -

الآن وأنْتَ تحمِلُ ثقلَ السّنين تراكمتْ على كاهِلِك عقودًا خمسةً من الأحلامِ تَفتَّحت بعضُ براعمِها وفاحَ شذَاها، ومازلتَ تسْقي جذُور البَاقي... أمامَ الطَّريق اللَّيّنة في الصّحراء تتراءَى لك الواحاتُ بـ"رجيم معتوق" ميّاسةً مع لطيفِ النّسيم وقُرْمزيّة سَراب المسَاء الشهيّ تتوسّد ذِراع الكثيبِ الطريّ... رَكنْتَ السّيارة الفَارهةَ بجانب المُعبَّدِ وترجّلْتَ تبتغي مداعبةَ سحر الرمال بقدمين حافيتين كما كنتَ تفعل قبل ثلاثٍ وثلاثين سنة.. لكنْ شتّانَ بين الأمسِ واليوم شتّانَ... ها أنَّك تسير الهُوينى بين أسْطر النّخل المُوشّاة بعراجين التّمر المُذهّبة الدّانيةِ القطاف، وقديمًا قفز الشّاب المجنَّدُ بينها قفزًا وما أعجزهُ ذلك. مع كل خطوة تنبجسُ لك من الرّمل ذكرى متسربِلة بالحنين وتُتْرِعُك لذَّةً وانتشاء.. وتَذْكُر مع كلّ الْتفاتةٍ إلى الجِنَان حولَك إيماءةً من الماضي مُخضَّبةً بقطرةٍ من عَرقٍ روّيْتَ بها وزملاءَك هذه المساحاتِ المُعرّشةَ بصنُوف الطّيبات ولذيذ الثّمار: نسيجٌ كالهرمِ متدرّجٌ من النّبَات والأشْجار يعلوه النّخل يتزيّنُ بعِقْدٍ من عقيقِ "الدّقلة" يَنْظمُها سِلكٌ ذهبيٌّ شفّاف، وتتوسّطه فواكِه المشمشِ والخَوْخ والتُّفاح والرّمان تعرِضُ خدودها المُغرية إلى الأشعّة تلثُمها فتتورّد خجْلى وتتبرّج كالحور العين زاهيةً ريّانة. وفي البساطِ سجّاد مُخضلٌّ من الخُضَر والزّرع والنّبات الزّمردي الدّاكن: تناسقٌ وتدرّجٌ في الألوان والأشكالِ والعطورِ. إنَّها فعلا جنّةٌ ساحرة تُغري وتُغوي آدم بالشجرة الحرام.. تفتَّحتْ كلُّ جوارحِكَ تَعُبُّ منها حتى تسكرَ.. في نفسِ هذا الفضَاء كمْ تَباطأ بالأمسِ الزّمانُ وأوحشكَ المكان؟ يا للمفارقةِ والعجبِ؟ الآن جئتَ سائحا حُرّا يسحبُك إغراءٌ خفيٌّ وشهوةٌ جَموحٌ ما وجدْتَ لها تبريرًا سِوى فصْلِ الآنَ عن الأمسِ، والتفاتةٍ فاتنةٍ لنهْرِ الزَّمنِ الجاري (...). لقد كنتَ هنا من زمان مجنَّدًا مغتصَب الإرادةِ تُحسَبُ عليك حتَّى الأنْفاسُ وأنتَ "رهينُ المحابِسِ" لِما يُقارب الأربعةَ عشرَ شهرًا... ها قدْ مرّتْ ولم تبقَ سوَى الذّكرياتِ. ما كنتَ تحسبُ أنَّها سَتنْسكِبُ، وبهذه السُّرعة ترْميك في العقدِ الخامس من العمر؟ أردْتَ أن تقولَ: "أنتِ وطني، أيّتُها العُزْلةُ، لقد طالَ اغترَابي في بلادِ المتوحّشين، وها أنا أعودُ إليكَ أيُّها الوطَنُ المنسيُّ وعيناي

تذرفانِ الدّموع". بفضُول المستحيِي أردتَ ممارسةَ طقسِ النَّار في الصحراءِ وكِسرةَ "المَلَّة" والشّاي الثقيل المدبَّس. كان طقْسًا من الماضِي طالما احتفيْتَ بهِ مع رفاقٍ من هنا مرُّوا ذات سنِين.. جمعْتَ بعضَ الحَطبِ وأوقدْتَ نارًا حَذْو سياج الجَريد. وحدكَ كُنتَ ينادمُكَ ظِلُّكَ وقد فاقَك طوُلاً لغروبِ الشَّمس. تُريد أن تختليَ بنفسك خُلوة حميميّة لا يلوّث صفوَها شيء. في عُزلتك هذه ستنفتِحُ لك مغاليق الحُجبِ أو هكذا توهّمْتَ. تريد استعادة مشاهد غطّاها غبارُ النسيان. كنتَ لا تتوانَى في استحضار الثّواني تَسْتقطرُها من خزّان الزَّمن الرّكُود.. كانت الشَّمسُ على مشارفِ الكثيب الغربي تلوّح لك بأسِنَّة خمريَّةٍ لذيذةٍ خالطتها سُمرة زُغبٍ من السّحب المتناثرة وهي تكلّل الكثيب، وتتمايلُ على إيقاع النّسيم، فتتشكّل لوحاتٍ سرعان ما تتلاشى على صفحة القُبَّة الزّرقاء الناصعة. انتبَهْتَ إلى وقعِ خُطى متثاقِلة تعزف على ما تحثُوه من رمال وتقترب من الموقد، قد بدأت ألسنة النّار تفتُرُ، وتَخيط لون النّور يطرّز الديجور. رفعتَ عينيك برفْقٍ، فإذا هو شيخٌ كنَبْتِ الأسَاطير: لباسٌ أبْيضُ شفّاف ولِحيةٌ مسدَلة لفائفَ من قُطن أو حُبُكاً من حليب، ووجهٌ ينضحُ من لألاء الأنوارِ رخوٌ و باسمٌ على استحياء. سلَّم الملاكُ وجلس كَذِي موْعد وآن اللقاء. تناولَ من يدي عودَ جريد كنتُ ألقُم به النّار، وراح ينقُر على الرّمل كقائد التّخت، ويخُطُّ دوائرَ وخطوطاً مائِلةً وأخرى مستقيمةً كدُموع الخرافات، ويرسُم أشكالا غريبة متداخِلة ومتقاطعة، فأكَل صمتُه فُضُولي وحرَّك خشوعُه وِحشتي، فهممْت بالسّؤال، فشعُر بذلك منّي فغمزَ رُكبتي بيده أنِ اُصمُتْ، ورفعَ حاجبين كثيفين أشْيبيْن عن شِهابين عسليَّين كالجمر اتّقادا وكالسِّهام نفاذا. ثم تهدَّج صوتُه كالمستأذِن: "هل يُمكنني مرافقتُك السَّمرَ اللَّيلةَ؟ إنَّها قطْرةُ زمنٍ أسرِقُها معكَ من نهْر العمر، فهلْ تأذن؟ قلتُ: تفضَّل ولكنْ أيُمكِنني معرفةُ من تكونُ؟ وهل أنت من سكّان القرية؟ هل يضايقُ وجودي بُستانَك هذا؟ قال: "لا هذا ولا ذاك. أنا هُنا من عُقودٍ أنتظرُ قدومك. كنتُ أعلم أنّك لا محالةَ قادمٌ ذات يومٍ... لا تعْجب ولا تُقاطعْ.. لقد انتظرتُك طويلا لكنّك تأخرتَ.أعلم جيّدا أسباب ذلك.."فتسرّب من كلامه ما نمَّل جلدي وشاك له شعري فنهض كالإبر، فقد ألغزَ بدَل الإفْصِاح وأرهق عقلي وما أراح. ولفّني فضولٌ لذيذ لأعرف المزيد. فاسترسل في هدوء وخطاب كالشِّعر موْزوناً: "أنا وجهُك القادمُ من مستقبل الأيّام وأحلامِكْ، أنا هوَ أنت بعد ملاذي للآتي

في مرآة ذاتك وآلامكْ.. لا تعجبْ من خوارق الزمن؟ جئتُ لاجئا من مستقبل الدّهر إلى حاضرنا الآسِر كلجوئِك أنتَ اليومَ من حاضرك إلى الآن والـ"هنا".. وأنا نديمُك اللَّيلة في سفر على بساط ذكرانا وأشجانكْ... عليك أن تكونَ ـ كما كانَ زرادشت ـ "فمَ الشّعبِ، وعلى كلماتِك القاسِية أن تخْدِشَ حياءَ المُتأنِّقين،لأنّها أشدُّ وطأةً على أسْماعِ زعانفِ الكُتّاب المسبِّحين بالأقلام". ها أنك الآن أيُّها الكائن المُعتَّق في دنان الماضي قد نحتَك اغترابُك طيفًا تَهيم ساهما في الفضاء وترتحل بأحزانكَ. أترى تلك الدوائرَ والخطوط على الرمل؟ إنها وعاء طاهر لسكب سلسال الذكرى وقد جئتَ حاجًّا إلى معبدِ الماضي، وأنت "قيثارةُ اللّيل وجرسٌ لا يفهم أحدٌ بيانَه، فعليك أن تعزِفَ أمام الصَّمَمِ آلاءَ ألحانكَ". ثم أضاف: "احمِلْنا أيّها الكهْل إلى الشابّ الذي كُنّاه يتشوّف وقتئذٍ للآتي بلهْفة ورجاء وخجل. لقد كنتُ منك وفيك ومازلت، غير أنّي استبقْتُ خُطاكَ إلى الآتي وسأنتظرك هناك. فهات ما في الجراب وحدِّثْني حديثَ المُحْتشَدِ فهو عَليَّ عزيزٌ ومِنّي قريب (....) ولمّا أكمل قُدّاسه الشجيَّ الرَّصين، كدَّس حفناتٍ من الرّمل اتّخذها لمرفقه مُتَّكأً وأهدى جسمَه لناعمِ الرّمل وعليل النسيم، وراح يُنْصِتُ بانتباهِ المعلِّم إلى تلميذ الصَّفِّ (العَقْدِ) الخامسِ يعْرضُ محفوظَه من نشيدِ السّنين.. فقلت:

"ترى هذه الجنان الوارفة وهذا الفضاء الساحر، لقد امتصّا مني ومن غيري رحيقَ الشّاب الذي به ملك إكسير الحياة. ونزفْنا هُنا عرقا وجهدًا. ولهذا قصَّة طويلة إليك ما علق بالذَّاكرة من صورها المحفورة كوشم أمّي، أمّا أكثرُها فقد محاه الدهر محو لوْح في الكُتّاب.. لقد بدأ كل شيء ذات مساء من يوم الثلاثاء 26 أفريل سنة 1986 حين أنهى أطباء التجنيد الكشف عن الجميع وخلُصت تقاريرهم إلى اعتبارنا جميعا مؤهّلين للجندية باستثناء ثلاثة أو أربعة لأسباب صحية.. غمرتنا فرحة لا حدود لها وتبادلنا التهاني كأنه العيد، حدثت جلبة وهمسات بيننا رغم هيبة المكان وهو ثكنة التجنيد ببوشوشة. لم يقسُ علينا الحُرّاس من الجيش على اختلاف رتبهم، فرأينا ذلك تفضّلا منهم بعد الذي تجرَّعناه في أماكن أخرى استضافتنا وأكرمت "نُزُلَنا" حيث مُخِضنا مخْضًا.. ولكننا تنفّسنا بملء القصبات رغم لوثة التبغ الحديث العهد بصدورنا. اصطفّ الجميع يتسلّمون الملابس العسكرية، هي خضراء حشيش. خلعنا "السيفيل" ولبسنا "الميليتار". لا أحد منّا تمكّن من تمييز الآخر. تعثّرتْ قدمي في علي الغيلوفي وكان توأم الروح -

ومازال-: "يا زميل ألمْ تر عليّا؟ فقال هو: وأنت يا زميل ألمْ تر (م. س.)؟ ضحكنا بشراهةِ مَنْ طحنَتْه المسغبةُ. كانت ضحكةً رقراقة شفّافة لم تنغِّصها الجمرة المُتّقدة من أعين الجلاّدين وقد قهرتْنا على امتداد عشرة أيام في الاعتقال. تمادينا في الجرأة وتحلّقنا بالبهو نرتّب زيَّنا العسكري الجديد والأحذية "البرودكانات" اللاّمعة كما الأطفال يوم العيد. حشرْنا ملابس الطّالب "السيفيل" في "الصّاك مارّان" الذي زوّدونا به وكأننا ندفن سنوات الدّراسة ومستقبلَنا الموعودَ ونودّع الطالب الذي كُنَّاه إلى موعد مجهول. كانت تلك الملابس صدئة لم تشُمَّ رائحةَ الماء من أسبوعين تقريبا... وقف أحد الضُّباط وقال بحزم واحترام: "استـ.. عد، استـ.. رح.. أيها الجنود أنتم الآن لستم طلابا، انسوا تلك الصفة إلى حين عودتكم بعد سنة، أنتم الآن عسكريون تحت ذِمّة الجيش الوطني التونسي وفي عهدته، وجنود لمصلحة الوطن وتحت رايتهِ. أنتم ضمنَ مؤسّسة هي درعنا جميعا، وكلُّ ما دون ذلك لا يعنينا.. ستُنقلون إلى ثكنتنا بمدينة قبلي في شاحنة عسكرية، أنتم رجال ومثقَّفون نعوّل على تفهُّمِكم، ستخدمون وطنكم دون أن أدخل في أسباب وجودكم هنا، فذلك لا يعنيني.. استعدّوا للركوب، وإيَّاكم أن تفكِّروا للحظةٍ في ارتكاب حماقة بمحاولة الهروب، سيُرافقكم أربعةٌ من الجيش وهم مسلَّحون، ولديهم الأمْر بإطلاق النّار على كُلّ مخالف، أنا متأكِّد أنّكم واعون وتفهمون ما أقول.. رافقتكم السلامة. استـ... عد... تفضل يا ملازم".. كان مخاطبُنا الأول عقيدًا وقد ميّزنا رتبته حين درسنا الرتب العسكرية. لم نتمالك أنفسنا ولم نحسم مشاعرنا: أنفرح لأنّنا نجونا من المحاكمات المتوقعة والتعذيب الذي سمعنا عنه، أم نحزن لأنّنا طُلّاب مجنّدون قهْرا وخسرنا دراستنا. وسنُعذَّبُ سنة كاملة في مكان وردتنا أخبارُه وصورُ من سبقونا المرعبة، ونحن مازلنا ندرس متبخترين بين ساحات كلية الآداب بمنوبة وأقسامها وأروقتها الحالمة. الآن نُودّع عالما لندخلَ عالما جديدا: من وزارة التعليم العالي والحياة المدنيّة إلى وزارة الدفاع والحياة العسكرية، ونحن نقتُل الطّالب فِينا لنبعثَ من محفظته سلاح الجندي وقبعتهُ ومن أجواء الاجتماعات وحلقات النقاش والمظاهرات إلى أجواء "طبق الأوامر دون تردد أو ترمرم!، واجب! وضع الجرمانة خذ! وضع البرميل،خذ..."؟ لم أكن شخصيّا على الأقل أخشى الجنديّة أو أنبذها أو أحمل عليها أحقادا، بالعكس كنت أحترمُها جدّا، وقد عشنا أحداث الخبز سنة 84 ولاحظنا عمل الجيش

الوطني. ولكنْ بداخلي يتحشرج لوم مكتوم: لماذا لم يمهلونا نكمل الدراسة ونضمن الخبزة؟ ونتشرف بالعمل العسكري حتى لسنتين. لا بأس بذلك المهمّ في أوانه. ثم لماذا يزرعون فينا الإحْساس المُرَّ بأنَّ التجنيد عقوبةٌ لردع المُتَّهم بالتظاهر أو الانتماء الحزبي والايديولوجي؟ وكيف سيكون موقفنا من الجيش الوطني؟ ولماذا تسمح المؤسسة العسكرية بإهانتها وارتهانها بألاعيب السياسيين ونزواتهم السّادية؟ و... و..؟ أسئلة كثيفة وخطِرة ازدحمت برأسي وأنا ممزَّق المشاعر بين الحُزن على فوات الدراسة والفرحِ بالنجاة من المجهول الأشنع؟ على هذه الأحاسيس اصّعَّدْنا بخُطى ثقيلة في "كميون الماجيروس"، وكانت حركتنا بسبب تكلُّس الهموم المحدقة بنا ومن جوع ونصب الاعتقال، فقد فتَر الجسم وخارت القُوى. إننا بين أربعة مسلحين يأمرون بمجرد النظرة الحاسمة والإشارة بماسورة البندقية "الشتاير".. ثم تحركت دواليب الشاحنة على الأرضية الإسفلتية فكانَ لصوتها صريرٌ وخشخشة تدُكّ الحصى وتلوكه، ومعه تُفتِّت سنوات دراستنا الخمس عشرة. ترافق ذلك مع هدير المحرك فزلزل ما بكياني من هدوء، وظلَّ كلام العقيد يرنُّ في مسمعي دويا.. تراءت لي السّنة أمامي جبلا شاهقا من الأيام، فكيف سنقضمه قضم مِبرد لقطار!؟ بل ر أيتُني طفلا عنيدا يغترف من البحر مقدار سطله الصغير ليُفْرغه في غربال! تشعَّبت الصورة في ذهني وتعقّدت: لن تُنْهَى هذه السنة إلا كما تُفْنِي الحرباء التراب، حسبما تروي الأسطورة.. كان جميعُ الطلاب الجنود محشورين فوق الكراسي الخشبيّة للشاحنة في أربعة صفوف مُحكَمة النظام وينتهي كُل صفٍّ بمُسلّح متصلِّب كالتمثال، عابس كالشتاء. لا أحد ينبس.. تنوعت أوضاع جلساتنا: بين مُتَّكئٍ على ظهر من خلفه أو بجانبه، ومِن مُطأطئٍ يُسند ذقنه إلى جِذْع كفّه أو خدّه إلى قبضة يده، إلى آخر لوَى النُّعاس عنقه فهو بين إغفاءة واستفاقة على إيقاع هزّات "الكميون." كنتُ أنظر إلى الصفوف فتهيّأ لي أنّنا حبّاتٌ من "السّردين" في علبة الشاحنة والقلب يُسافر في كل الأرجاء. "انحطمْ أيُّها القلب فأنتَ الألم المُصفَّى وأنت الهمّ المتخفّي تحت قناعٍ من أمل". هاهي ذي المدينة تُقتَلَع من قلوبنا لأنّنا اقتُلِعنا منها اقتلاعًا، و ها هي الأضواء أُنيرت في الطرقات مع آذان المغرب ونحن نُغادِرها إلى العتمةِ، وهاهي أحلامنا البسيطة في الدراسة والتعبير الحرّ والخبزة الكريمة تتبخر ويلفُّها المجهول.. أيُّ معنى للوجودِ حين تُصادرُ منك أبسط الحقوق!؟ أيُّ قيمة للحياة دون أمل في

الآتي؟ كيف سنقضي هذه السنة؟ ما الضّامن لنا أنّها لن تكون نهاية "الحُلم بالمدينة الفاضلة" حُلمِ الشباب الطّالبي يتوهّم قيادة التغيير ! ما مصيرُنا ومصيرُ عائلاتنا لا تعلم شيئا عنا؟ أيّ خبر صاعق سينزل عليها حين تعلم بأمرنا؟ ما ذنبُها في ما ندفعه من ثمن باهظ؟ ألِأنّنا رفعنا شعارات ضد النّظام؟ ما رفعناها ضدّ الدّولة! لكنْ لا أحد في بلادي يَمِيزُ بين الدّولة والنّظام بل حتى بين الدولة والحاكم؟ "أنا الدولة والدولة أنا"! ألأننا ردّدنا وقتها "خبز وماء وفلان لا.../ خبز، حرية، كرامة وطنية.../ يا فلان يا جزّار ارفع ايدك ع الأحرار..." / (ها أنا الآن وهُنا بينكم أتنفّس بلذّةٍ طعمَ الحرّية كما لا يُتاح طعمها لغير من صمد في سبيلها). بعد ساعةٍ من المسير واعتصار ال"كميون" لأمعائنا الخاوية وأمخاخنا الدائخة كبحَ شرودي صوتُ الوكيل المرافق وهو يتهدّج برصانة: "أيها الجنود، إننا في رحلة إلى قبلي، وأول استراحة ستكون بصفاقس، لا توقّف في الطريق"، والتفت إلى أحد العرفاء وقال: "وزّع عليهم العشاء، يا عريف !." .. تشنّفت الآذان وتلمّظت الشفاه لسماع عبارة "العشاء" و لكز كل مُستيقظٍ من كان نائما بجنبه فذُعر، واستعدَّت الحلوق لاستقبال ما بطبق العشاء الموعود وفَركت الأكُفُّ بعضها فرحة وحبورا... ثم قام العريف يُزاحم الصفوف بكيس بلاستيكي يخرج منه الخبز، لكلٍّ نصفُ رغيف، فانتظرنا الإدام ونحن نمنّي النفس بما يسُدُّ الرّمق ويُذهب عن حلوقنا وأمعائنا "سامور الهريسه" والسردينة في "كسكروتات" الاعتقال. تهيّأنا واشرأبّت الأعناق واتّسعت الأحداق تتطلع إلى ما بالكيس الثاني من لذيذ الأطباق. ذُهل الجميع حين أَخرج العريف عُلَبَ "السردينة" وبدأ يرمي عن بُعد ذات اليمين وذات الشمال وفي كلّ الاتّجاهات والكلُّ يتلقَّف عُلبة: فهذه باليد وتلك تصفع جدار الشاحنة وتسقط وأخرى تلثم خدّا أو رأسا لم ينهض صاحبه بعد. كان كلّ ذلك وسط صدمة الجميع ودهشتنا: علبةُ سردين مقفلة مع كسرة خبز يابسة! أين أنت يا أبا حيان! انهض من القرن الرابع والتحق بأحفادك في القرن العشرين! هاهي ذي "الكسيرة اليابسة، والسُّرِيْدينة المغْلقة" وليس التأدّم بالخبز والزيتون! تعال وانظر! وأين أنت يا بيْرم التّونسي حتى ترى الفرق بين سردينتنا المقفلة وبصلتِك الشهيّة تتوسط كتاب الأغاني وديوان المتنبّي لتنضج على نار هادئة"؟ بحْلقَت "العيون المائة بالعريف مندهشةً متسائلة حائرة، وارتخت الأيادي عن الإمساك بالعلبة تتساءل في صمت: كيف سنفتحها؟ ليس

بها مفتاح! وليس بالشاحنة ما يساعد على معالجة الأمر. تجرّأت الأفواه على الهمهمة ثم قال أحدنا للوكيل: يا سيادة الملازم! كيف نفتحها؟ فأجاب بهدوء وبرود كالثلج: تصرفوا! أنتم جنود وحماة الوطن، من العار أن تعجزوا أمام جرد "حكة سردينة".. تناول كُلّ واحد منّا علبة "سردينته" وعالجها ببصره من كلّ الأشراء، كأنما يتفرس في زُمرّدة أهداه إياها صاحب المصباح! وقلّبها بين يديه كمن يبحث عن فك ضامن قنبلة هيدروجينية فتّاكة بحذر وتأمل وتركيز،" ("توم كروز" في أيامه في "مهمة مستحيلة".).: "أين الباب إليكن يا "سرديناتي" المستلقية بالدّاخل تستحم "ببانو" من الزّيت النباتي العفن! من أين أنفذ إلى حبيبة الحلق والبطن وأبوابُها موصدة! أعزز علي بابن القباني وأعاتِبه أسعفنا يا "عبد الحليم"! ما كان لك أن تتنبأ لنا بهذا المصير وتقرأ لنا الفنجان الملعون.. (فحبيبة بطنك يا ولدي نائمة في كهف موْصود / من يدخل غرفتها؟ من يقضِم لحمتها / من يدنو من فتحة عُلبتها؟ / من حاول فك أقفال حديدتها يا ولدي! مفقود، مفقود، مفقود...) رجوْتُ ألَّا تكون سرديناتي الشهيّة بلا وطن أو أرض أو عنوان! فأنا في حاجة إليها، حاجة "النافول" إلى حفنة دقيق تملأ تجاويفه.. التفتُّ إلى عليّ وكان يُكاتِفني: ما العمل؟ يا ابن الصحراء الطافحة بالتجربة، أغثني بحلّ هذه المسألة الأرشيميدية المعقدة: (نحن سردينة في علبة الكميون نُسلّمُ علبَ سردينة بلا مفاتيح سردينة ويطلب منا أكل العشاء الفاخر بالسردينة! ونحن جوعى لا ننتظر، ماذا نفعل)؟ فقال "بصّرت ونجّمت طويلا لكنّي لم ألحظْ أبدا سردیناً يشبه سردينك!" ههه... يا للعبثيّة! "قلت لك يا علي الموقف جدّ، بل مأساة! أي تبصير وأي تنجيم؟ هات الحل ودعك من الهزل.. ودعِ "الشكل وهاتِ الأكل" كما قال صاحب المقامة الشهيرة.. كان الوَكيل ينظر إلى الجمع الحائر أمامه، ولا ندري أهي نظر ة اختبار أم ازدراء أم شفقة أم شماتة أم... أم... ثم حين رثى لحالنا قال: "الحل بسيط يا جنود: فأطل خمسون عُنُقا من الفضاء المغبرّ بالدُّخان، وتزاحمت الأبصار نحو الصوت الأجشّ مستفسرة: "أنجدنا أيها العسكري المحنك، حُلَّ لنا اللغز المستعصي، نتوسّل إليك! فاعتدل الوكيل المكرّش وقال قول الواثق ذي الرأي الثاقب "تحكّون العُلَب علي حافّة الكراسي الحديدية! "فانهارت الأعصاب والمعنويات أكثر، وتدلّت الرؤوس على الأعناق في إحباط.. يا الله! كنا نَنتظر مفتاحا للعُلبِ لا ميدانا للتَّعب! أغِثنا أيُّها المتعالي بحلّ سحري غير

الذي سمعنا! وما إن ختم الوكيل كلامه حتى خطفت كل يد علبتها وانهالت عليها حَكاً تحت صاحِبها وعلَت أصواتُ الحكِّ أزيزًا كجمهور الدّبابير هجمت على خلية نحل: ز ز..ز..ز..ززززز فانفلقَت الآذانُ من هذه الألحان ونحن مازلنَا في مفترقِ قرنبالية..! تواصل الحكُّ والضّجيج والصخب والنكات وكان الجنود يتنافسون في العمل ك("تويزة" صبايا اجتمعن عند إحدى حائرات الدوار "يقردشن" الصوف: هاي.. هاي... لما اقتربنا من صفاقس أُعلِن الفرج بعد ثلاث ساعات من الحكِّ إذ قطَع الجلبة صوت مُدَوٍّ: "أبشروا.. أبشروا لقد فتحتُ حُكَّتي.. لقد نزّ منها الزيت فقد قرُب الحلُّ"، فتراءى لي أرخميدس ينادي (وجدتها. .وجدتها").. فتساءل الجميع: "وماذا فعلت؟ - لقد استعملت القضيب العلوي للكرسيّ." فأشرقت العيونُ بالأمل لأن المعضلة فيها حلّ.. وتزاحمت الأجسام الخضراء حول القضبان المعنية الأربعة بعدد صفوف الكراسي تزاحم دود الزيتون حول الغصن.. وتداولت الأيادي على حك بواطن العلب وكلما ارتفعت حرارة يدٍ جرّاء فرك الحديد على الحديد استسلمت وتراخت وهي تنتفض لتحلّ مكانها أخرى، وعلت الضوضاء وكثرت النكات المُرّة السوداء والسمجة الخضراء رغم قرصات الجوع والغِبّ، وكان صاحبنا ذا كيف ومحنة.. (في التاي المُعكَّر طبعا.. لا في أشياء أخرى!) ولم ننجح في شيء باستثناء دموع زيتية نزفت من العلب فلطَّخت أكمام "الكمبة" والأيادي والأذرع وربما وصلت إلى الآباط وما بعدها. ولكنْ لا أحدَ يستسلم للعدوّ، فنحن "حماة الحمى" و"لابد أن يستجيب الحديد، عفوا القدر! وظللنا على تلك الحال من الجهد العبثي لا يثمر. وبين الحكة والحكة نقضم من الرغيف قضمة حتى أدركنا قرن "الباقات" الأخير ولم تُفتح أيُّ علبة عدا رائحة السردينة تملأ المكان وتعطر الثياب والأبدان. فكنا كتجّار السمك بسوق "سيدي البحري" الكل يشمئز من الكل.. والكل يتأفف من الكل.. وأنهينا الخبز أكلا وما فتحنا علبة واحدة.. خمسون رجلا من أعتى الجند قاومنا من الـ" ماتراك" ما قاومنا، ومن الإهانة ما يرضي الشامت، ونعجز أمام حكة سردينة، كما قال الوكيل... ونحن نضج غضبا صاح الوكيل: "سايايا، يزّو من الحكان،، يلاّ،" سنستعدّ للنزول نحن على أعتاب صفاقس الغالية حيث ينتظرنا عشاء ساخن بثكنتها. وأودع كل منا علبة سردينته السليمة في جرابه الأخضر. أما من

بُطرت فمآلها سلة المهملات بجانب الباب.. نزلنا بخطى متثاقلة "معكوشين" نمشي مقرفصين ولم نعتدل إلا حين ابتلعنا البهو الكبير للمطعم...

.2.

... دخلنا مطعم الثكنة مشتاقين إلى الوليمة التي تنتظرنا، فوجدنا خزانا كبيرا يتراقص بخاره متماوجا على أضواء القاعة الباهتة، وتصدم رائحته خياشيم المتطفلين. اصطففنا فتسلمنا "قاميلات" من الألمنيوم ثم تقدمنا بانضباط العسكري "البوجادي". مُلئت كلّ "قميلة" ببركة من "الراقو" الشّهِيّ الأنفاس لا أثر فيه لحبة حمّص يتيمة، فرميت عظامي المخدّرة على كرسي أمامي وتناولت قطعة خبز غمستها في البركة الملونة وبعثتها في فمي دون شعور لأطعم ما يزقزقُ في الكهف الضامر بين ضلوعي.. أنهينا ما لم يلذَّ لنا ولم يَطِب، ثم صدرت الأوامر بالبقاء في البهو للاستراحة ساعة. تحلقْنا مجموعات حسب المعرفة المسبقة والكلية، وبدأنا نستعرض طرائف أيام الاعتقال وآلامه ممّا قدر الله لنا من إهانات واستفزازات وممارسات ساديّة لا يصدقها عاقل. فاندفع علي قائلا: "يا م. س. هل حضرت مشهد ليلة القبض علينا وتنظيف المدرعات و"الكياس"؟ فتبسمت بمرارة تنضح من قلبي وغصة في حنجرتي: وقلت: وهل تُنسى تلك الليلة؟ ولكن ليس أمرّ ولا أشدّ ألما من حكاية زميلنا عمر.. هو طالب فلسفة بالمرحلة الثانية وكان طيبا إلى حدّ السذاجة، صادقا لا يعرف زيغ الزائغين ولا زور المزورين، لا يرتدي من اللباس إلاّ الأبيض: من السروال إلى القميص إلى الجاكيت، وكانت له نظارات في سماكة قعر القارورة، لا يرى في النهار إلا لِماما فما بالك في الليل وحين كان اقتحام المبيت الجامعي على المتظاهرين منا، في الثانية صباحا شرع كل منا في البحث عن منفذ ولكنْ كان المكانُ كلّه محاصَرا بطوقٍ محكم من أصناف قوات السلطة مزودة بالكلاب والمدرعات. قُبِض علينا واحدا تلو الآخر. وكان عمر لا يهتدي إلى اتجاه يحتمي به بحكم الظّلام ودخان القنابل وهدير الشرطة ونباح الكلاب، فقادته قدماه دون إرادته نحو بقايا عجلة أُشعلت سابقا، وبقي هناك يطوف بها يتقدم أمتارا ويتأخر أخرى، أو يبتعد ثم يقترب من المكان حسب تطورات الوضع في

الكرّ والفرّ حتى وقع في الفخ، خاصة أن نظارتيه قد سقطتا وداسهما المسكين فكسر أحد فصّيْهما. حمله مُعتقِله من حزام سرواله وهو يتدلى كشبكة السنابل، وكنّا قد اعتُقلنا جميعا، فألقى به كالمنديل أمامنا وأراد أن يمعن في استفزازنا وإهانتنا جميعا. -وكان عمر لا يتكلم إلّا الفصحى- فسأله أين كنت أنت يا... ويا ولد... ويا... (كذا). فأجاب بتلقائية ووجل: "كنت قرب العجلة المشتعلة"! فانفجر أفراد الشرطة قهقهة ،وجعلوه يردّدها وهو يهرول ويطوف بالمدرعة المنتصبة أمامنا، ونحن في ذهول وحزن وإشفاق نرثي لحال زميلنا المحبوب الطيب.. وكان يرتدي نظارتيه بفصّ مشروخ، وحين أنهوا "اللعبة"حمله اثنان إلى بقايا رماد العجلة وأمسكاه من يديه ورجليه ونظّفا به القاعة الإسفلتية، استعملاه "خيشة" من الأمام والخلف لتنظيف القاعة وأعاداه إلينا. وصرخ أحدهما بتهكم سادي: يا أبناء الـ... والـ... هل أعجبكم لون زميلكم؟ كان أبيض فما رأيكم فيه الآن؟ أليس هذا أفضل!؟ أليس السّواد ألْيَقَ به وبكم!؟ يا... . ويا أبناء... (كانت الشتائم كاللّازمة في الأناشيد)... زميلكم نظّف "الكيّاس" وأنتم تنظفون المدرعة بألسنتكم ثم بملابسكم! المهمّ قُمنا بالواجب الوطني المقدس! وساهمنا في تنمية البلاد بهذا الصنيع الثوري، وأصبحنا نَلمع! وخاصّة عُمر فإنّ ملابسه البيضاء اسودّت وغدت زفتا، وهو متمسّك بالعجلة المشتعلة... كان بكاء حتى الضحكِ وقهقهةِ هستيريةِ مُتمنِّعةِ عن كلّ منطق أو قانون فيزيائي أو ديني! آه... إنه العدل الذي يسُوسنا به ولاة أمورنا! استدار كُلّ منّا خلفه وانتحب بغُصّة مكتومة يداري ضعفه عن غيره.. "فلان كفّ عن الحزن، فالرجال لا يبكون". أليس دمعك في الحوادث غاليا؟ "تذكرتُ لحظة دخول البوليس إلى غُرفتي بعد المواجهة غير المتكافئة، كانت لحظة فجائعية بكلّ المقاييس: لقد سمعتُ تصفيق أبواب الممرّ بالطابق السّفلي للجناح "ج" وهي تتهشَّم تباعا وأقفالها تتطاير تحت هستيرية الرّكْل الذي تتلقَّاه من المدجّجين بالأسلحة والكلاب... طار باب غرفتي كغيره ودخل عمْلاق مقنَّع فلا تُرى إلا عيناه ولثَمني مباشرة بلكمة اصطكّت لها أضراسي وأسناني وانهال بكل جهده يكيل اللكم والرّكل دون تمييز لمواضع الضّرب وصرخ: يا كذا (....) ويا ابن..... أنت زعيمهم... الآن أقتلك ولا أحد يردّ خبرك يا.... ويا ابن....." نلت نصيبي من "التهريس"... ثم سحبني خرقةً من بدن مسحولا على الأرض حتى رماني مع بقية الزملاء في ساحة المدرعات (...). لم أناقشه ونحن بالغرفة

واستعجلتُ الخروج لأسباب كثيرة أهمّها أنني خشيتُ التّفطن إلى وجود الزميل نور الدين الغيلوفي (متفقّد اللغة العربية اليوم) بسقف غُرفتي، فقد هيأنَا له مكانا بين طبقتي السّقف يختبئُ فيه خوف القبض عليه لأنه قد أُخْليَ سراحه من يومين فقط من وزارة الداخلية ومازال لحمه متورّما ولا طاقة له بالوقوع في قبضتهم من جديد.. كنتُ بالسّاحة على رُكبتيَّ مع المنتظرين وأنا أتساءل: ماذا لو تفطّنوا إلى نور الدين بالغرفة؟ ولماذا يتعاملون بكل هذه الوحشيّة والسادية؟ وما دخل الأبواب والغُرف؟ و لماذا تُفسد الدولة مقدَّرات الشعب بأيدي أجْهِزتها ثمّ تتذمّر وتكيل التُّهم لمن يتظاهر ويرفع مجرد شعارات؟ من سيدفع ثمن الأبواب والأقفال وكل الحُطام بالمبيت؟ المهم، لقد ظلّت آثارُ اللّكماتِ في دم تخثّر في عينيّ ولازمني مدة شهرين... أمّا عُمر فمن حُسن حظّه أنّهُ أُعفيَ من التّجنيد ولا ندري ما مصيره.. تألمنا كثيرا لمثل هذا وغيره لكن ما بأيدينا حيلة... تنهّدنا من القهر والظلم ودارت بيننا السّجائر وأُشعلت من أعقابها مع أكبادنا... وحين انتهت الرّاحة عُدنا إلى "الكميون" واتخذنا مجالسنا وعاتبْنا الشّيء واللاّشيء خوف عتاب أصحاب الضيافة في ثكنة صفاقس. وبدأ الطريق يتلوّى بنا مغرِبا كأحلام المحتضِر في اتجاه قابس ثم قبلي، أحسّ الجميع بسُلطان النوم فتقذّت العيون بما يشبه عود الرّمد، واستسلم الأغلبيّة لسهاد متقطع تنغّصه اهتزازات العجلات من تحتنا، فسرقنا بعض لحظات الراحة. ولم ننهض إلا على خيوط الفجر تزيّن الأفق في أقفيتنا.. فتذكرتُ صوت الرّاحلة أم كلثوم تترنم ("وإذا النّور نذير طالع، وإذا الفجر مطل كالحريق... وإذا الدنيا كما نعرفُها، وإذا الأحْباب كلّ في طريق../ أيها الساهر تغفو، تذكر العهد وتصحو، وإذا ما التأم جرحُ، جَدَّ بالتذكار جرحُ.. فتعلّمْ كيف تنسى، وتعلّم كيف تمحُو..") أيّ نسيان يا كوكب الشرق وأيّ التئام؟ صحيح أنّ الأحباب كلٌّ في طريق لكنّنا في أول هذه الطّريق والعقبة كأداء ولا طاقة لنا على النسيان.. لماذا أتذكر مثل هذا والآن بالذات؟ ظللت أترنّم بالمقطع همسًا وكلّ لفظ يتحول في أحشائي خنجرا يقطّع ويجزّ جزّا، (فيا أيّها الضوء المتسلل من آفاق قصيّة، أيّها النور الإلاهي الوضّاء إنّي أتوسل إليك توسل عاجز مقيَّد بقوانين الزّيف والفجور،أن "تُنْقذ مطلقك الكامن في الإنسان"! كما قال مظفّر. أما أنا فجسد، وأنا إلى "التعفّن والفساد".. يا ربّي أنقذ كينونة الكائن حتى يبقى الكون جديرا بأن يكون! يا مشكاة

الأنوار الأزلية وسنا الأبدية إنّ جُرحَنا لا يلتئم وما الذي يمكن أن ننسى؟ هاهي آمالنا خلْفنا! وهاهو المجهول أمامنا. كجيش طارق الأندلس! أُحرقتْ عنا المراكب والأشرعة، وما بأيدينا سوى جراب هو الكفن!). تجاوزنا قابس وازدادت الطريق انعراجا نحو الغرب، إنّنا في اتجاه مغرب الشمس وكأنها تطاردنا من جهة الشرق. ولم تفتأ واحات قبلي أن أطلت من خلف الكثبان الذهبية بسامق قدّها وطلعتها البهية تستقبلنا بالترحاب. ودخلنا العمران ثم الثكنة وقفزنا صحبة أمتعتِنا في "الصاك مارّان" واصطفَفنا أمام المطعم من جديد سنتناول الطعام: فطور الصباح هذه المرّة، تحلبت أفواهُنا واستعدت، وأُشعِلت السجائر بنهمٍ "كافر" قبل الأكل وما الفطور سوى قطعة خبز بائتة وقدح من النيلون به سائل أسمر بين الشاي والقهوة غيّر لون الماء فقط، الحقّ أنّه كان دافئا على الأقلّ.. قضمتُ من هذا قضمة ومن ذاك مُزّة (لا مزّة نُواسية) بل مزّة جوعية هي الوحيدة القادرة على عطف قلب الخبز تحت الأضراس. تناولنا ما كُتُبَ وقيل لنا "ستحلِقون شعوركم". لم أدْر هل المقصود بالشعور أي الإحساس، فذلك قد أُحلق وأُحرِق وانتهى أمره وما نحن هنا إلا هياكل عظميّة يُغطّيها بعض اللحم خاصة بعد أيّام الحبس والمشاعر تبخّرت مع شتائم الأيّام السابقة.. أمْ الشَّعْر الذي في الرأس فهذا صوفٌ وليس شَعرا. وكان من يدخُل منا مَعرفةً بالعَلَميَّةِ للحلاّقِ يخرُج نكرةً غير موصوفةٍ لا بالنّعت المفرد ولا بالتركيب! لقد هاجت في الرُّؤُوس القشْرةُ وبقيت كخامد النار تحت الرماد. ولما جَزّتْ ماكينة الحلاق ما كان يسترها ويغلّفها أعلنت عن نفسها: كساءً أبيض يتناثر مع حركة الرأس. وكان عليٌّ أمامي، فدخل وحين خرج من غرفة الحلاقة ما عرفته، وقلت له ما قال الجاحظ في النادرة الشهيرة "لو خرجت من جلدك ما عرفتك". وجاء دوري فبركت على ركبتي بروك البعير في أرضية صلبة، وانكمشتْ على كتفيَّ كُلاّبتان ثقيلتان من عظام جمل وأحكمتا الإطباق، إنهما ركبتا الحلاق. ثم أخرج ماكينة "التقريع" اليدوية حافية الأسنان وانطلق موسم الحصاد، ذهابا وإيّابا ("خرجة بجانب خرجة") وفي كل جولة لا تسل عمّا يُنْتَف من شعر فأسمعُ صوتَه كصرير مزلاج الباب، فأتـ"وَحْوح" لكن لا مُغيثَ، فأصبر وأنا أدوس على الألم بإحكام قبض أسناني حتى انتهى منّي ونهرني: "اذهب إلى المرآة وانظر"! فلمّا نظرت ما عرفت وجهي ولا رأسي،"يا ناس

أين رأسي ! من رأى رأسي! لقد والله دخلت به الثكنة منذ حين"، "تذكرت المقامة الحلوانية والخصومة على الرأس، فضحكت والتحقت ببقية" البراكيس" المجزوزة ننتظر المآل اللاحق...

3

قرّر أصحاب الأمر أن نترك الشاحنة الأولى لأنّها خضراء لجزء الخارطة الأخضر، وهي أرقى من أن تُقطّع أوصال الطريق الترابي إلى رجيم معتوق! فاستبدلوها بأخرى صفراء تتناغم مع القلم الأصفر الفاقع الذي كُنّا به نُلوّن هذا الجزء من الخارطة.. نحن إذن نترحلق على ما زيّنته الأقلام الصفراء! كانت شبيهةً بقطار "الوستارن" في تكساس: هيكل من الحديد دون "باش" يقي الخرفان الخمسين حرّ الهاجرة في منتصف النهار والكراسي مخلوعة إلا من صفّ واحد لا يحتمل أكثر من عشرةِ أنفار، الدّخان المنبعث من عادم الشاحنة تُهديه إلينا خناجر ريح الشهيلي الحارقة ورماح الأشعة اللافحة، كانت بوابة الجحيم قد فُتحتْ تتلظّى والنّار تتنهّد زفرتها اليومية! جلسَ البعض ووقف أكثرُنا، لا أعمدة ولا سواري تكفي لتُعلَّق السواعد النحيفة السّمراء بها. الكلّ يعتمد على الكلّ، فثُلث يتكئ على الهياكل الجداريّة الثلاثة لهذا القطار والبقية يستندون عليهم. وانطلقت الرحلة... سلكنْا الطريق المعبَّدة لمسافة قصيرة لا تتجاوز السبعة كيلومترات. ومازالت أمامنا حوالي تسعين كيلومترا... إنها بداية المكابدة والعذاب.. طلّقت الشّاحنة الإسفلت بالتراضي، وعشقت الصحراء فوهبتها نفسها ومن فيها، إنَّ بينهُما عشرةً وعشقَ سنين، والوفاء بينهما عقد مقدّس. ما الذي خلخل أركان هذه فغدت خَرِبة كمساكن"الزولو بإفريقيا بعد حريق.. ونحت من استواء تلك نتوءات وتجاعيد تحكي حكايات الخوالي"!؟ إنها طريق "البيست" في البيداء، لا أحد يتصور المطبّات والمنخفضات والمرتفعات والتعرجات ذات الزوايا الحادة والكثبان وبقايا عظام حيوانات نافقة والحجارة المتناثرة. لا تشكُّ أبداً في أنك في رحلة عبر التاريخ والجغرافيا من الـ"هنا والآن إلى"اللاّ آن" والـ"هناك": إلى صحراء الشنفرى وذي القروح "ولي دونكم أهلون سيد عملّس/ وأرقط زهلول وعرفاء جيْأل.. هم الأهل لا موضع السرّ ذائع/ لديهم ولا الجاني بما جرّ أخْذل". أليس هذا

وادي امرئ القيس "كجوف العير، قفر، به الذئب يَعوي كالخليع المعيل" تلك رحلة وهذه رحلة، لكن شتّان... لما عانقَتِ الطريقُ دواليبَ الشاحنة وزاد دبيبها قليلا بدأ الغربال في الاشتغال: نميل جميعا حيث يميل مركز الثقل، فإذا نحن بين رفع وخفض وربع وإرقال و"برطعة"وركض، قد تمتعنا بركوب كل الدواب. فإذا الرؤوس تعلُو لتنطح أعواد السقف الفولاذية والأرجل تصْعق الأرضية الحديدية. ولا تسلْ عمَّا أصاب النخب من دوار وتقبيل بالجماجم على الحيطان وإدبار، وتجمهرٍ في قلب المركز وإعادة انتشار.. وتدافعت المناكب وتناطحت الرؤوس فاصطدمت البِنْية التحتيّة بالبِنية الفوقية وديكتاتورية البروليتاريا بـ"رأس المال" وذابت مقولات الاستضعاف والاستكبار والوحدة العربية والأمة والرسالة الخالدة، وتداخل هذا في ذاك وذاك في الآخر، فالتأم الجمع المُفَرّق في الكليات واجتمع في ال"كميون".. يا لها من مفارقات عجيبة والحمد لله على تَحقُّق المعجزات! لقد رأيت "انجلز "يروي عن أبي هريرة ويقرأ قراءة حفص وقالون، وهاهو أبو ذرّ الغفاريّ يكتُب البيان الشُّيوعي وعصمت سيف الدولة يشرح في ظلال القرآن! وما هذه إلا الجنّة الموعودة يا رجال!؟ امّحت أحقاد الرفاق والإخوان.. هنا صياح وتوجّع مكتوم وعويل مفضوح وانحناء لا إرادي واستواء وصفعة على الرأس من هذا الجانب أو ذاك. واستمرّ الغربال يُغربل والقمح يدور ويدور وإلى الله عاقبة الأمور.. حتى أفرغ كلٌّ منا ما بقي في بطنه وجفّت مصارينه واستوى الحال! لا حذَر بعد الآن من الابتلال! (أسألك بالله يا من تتصفّح الذي بيديك: هل جرّبت ركوب شاحنة في طريق ترابية في عزّ الحرّ دون واقٍ من الشمس ومن الشهيلي؟ إذا لم تتمثّل الصورة المرعبة فلا تواصل القراءة..). ولا تنسَ مع هذا قيام "المُرسلات عُرفا" و"العاصفات عصفا" ثم "النّاشرات نشرا" وإذا العاصفات عصفا حاملة تبر الملح مُزكًّى بالرمال الناعمة الصفراء وطفقت تصبغ الوجوه وتتكدس على المحاجر والرموش، ولا تستأذن في احتلال الخياشيم وكل ما وَالاها من فتَحات ظاهرة وأماكن باطنة! فلا ينفعك لا إغماض ولا إبصار، ولا "تشنيف" أو زمّ شفاه، أو حماية بيدك فهي مشغولة بضمان التوازن المختلّ أصلاً حتى لا يقع ما هو أعظمُ ضرّا وأشنع شرّا، فتكلست على الشفاه طبقات من التربة الصفراء الناعمة، وتيبّس الريق فاستحال صوفا، واحترّت الحلوق وتحشرجت القصَبات فانطلقت سمفونية من السُّعال والعُطاس موقَّعةً على

لحن الرّياح الرملية بالخارج ورقصات العجلات وكل من بالدّاخل... تواصلت الملحمة على طول المسافة ولا أحد يستغيث أو يُغاث، فالرقيبان المرافِقان لنا بالخلف مُنشغلان بتثبيت البنادق في اتجاه صدور الحفنة الإجرامية خشية الهروب، وهما قد تعوَّدا مغامرة الطريق فلم يباليا بالأنين أو التوجع أو (...). لا ماءَ في الخلف فعطشَ من عطشَ وداخ من داخ وبكى من بكى فهذا كلُّه داخل في قانون اللعبة..". من سمح لكم بالتظاهر والتعبير، والتدخل في ما لا يعنيكم من الأمور!؟ "هو لا يقول ذلك لفظا إنّما يمارسه فعلا ومعنى وما تحت المعنى وحتى إيقاعا موزونا ولحنا! هل نشتكي؟ ولمن؟ وكيف؟ فالسّائق يجلس على كرسي مخملي وبين يديه الماء وربّما الطّعام والشّاي والتّبغ "الطّرُبْ" اللّذيذ. فهو لا يلتفت إلى البضاعة خلفه، وهو معذور في كلِّ الأحوال، لأنه تعود على نفس الطريق ونفس الضُّيوف وهو العبد المأمور! فلا ضيْر في خُسران بعض الرِّقاب هم ضريبة وخسائر الحرب الهامشية! ولما طال بنا الطريق ولفحتنا الحرارة لفحا، تجرّأ أحدُنا على سؤال الرقيب عمَّا تبقّى من المسافة، فقهقهَ ساخرا: "ما قطعنا سِوى نصف الطريق فذُهِل من سمِع وانهار الرّجال وسقطت الأجسام الخضراء دون وعي أو حراك. وتواصلت الرحلة بنفس الزّخم، فكان "الكميون "يصعد بنا كُثبانا وينزل وهادا، ومن بداخله يتدحرجُ ذات اليمين وذات الشمال، وإلى الخلف والأمام ولا أحد يقوَى على التّماسك فكُنّا نرتطم بالأعمدة حينا وبِبعضنا أحيانا، حتى طاف بنا الدُّوار واستسلمنا لأمر كان مفعولا فلا تسمع إلا أنينا وتوجُّعا وآهات آتية من صدور طافحة بالغيظِ والنقمة وازدراء الحال. ولا تعبيرَ صريحا عن المآل.. وبعد ساعة ونصف الساعة تراءت لنا من بين الكثبان المتجعّدة قباب مستطيلة صفراء مموَّهة لا تفرّق بينها وبيْن الفضاء الموحش المتفحِّم حولها، فبانت شبيهة بال"فُقّاع" النّابت غريبًا في غير موطنه، فاستغربنا في صمت: هل في هذه البيدِ دبيبُ حياة؟ هل يوجد بشر بهذا البلقع القاسي أو حتى حيوان؟ هل يمكن استمرار النّبض لو قُدِّر لنا النزول هنا!؟ وهل.. وهل...؟ وازدحمت الأسئلة وتوتّرت المشاعر، وكُنّا نُمنّي النفسَ بقطرة من صمود وماء... "لا باس يْصيرْ عَ الرجال"! .. وعمَّقَ تساؤلاتِنا الصامتة تباطُؤُ الشاحنة وطوافُها بكثيب لم نرَ خلفَه المعسكرَ وصاحَ الرَّقيب: ها قد وصلنا، استعدّوا يا جنود للنّزول، واصطرع في مُهجِنا شعوران متناقضان حيث غمرنا الفرحُ لأننا سننزل من هذه الطّاحونة التي كانت تدكّنا

دكا، وسكننا الرُّعب من الفضاء المحيطِ بالخيام حيث سنقيم! ليس في البدن من طاقة للنّزول، فساعد كلٌّ منا الآخر على التّدحرُج من أعلى الشاحنة، وكان الرقيب يصرخ: أسرع يا جندي! تحرك! ("شنهو هذا"! وين تحسب روحك؟ في البلفيدار ! تحرك.. تحرك"!). نزلنا على أصوات التقريع والتهديد والشَّتم والوعيد، وأُمِرْنا بالاصطفاف، كلُّ جنديٍّ بجانب حقيبته الخضراء المزيانة، مُنخرم السروال وملوّث الكمبة متثاقل الخطى وغائب الملامح تحت مساحيق الغبرة وطبقات الملح. فكنّا قناعًا لوجه واحدٍ موزَّعٍ في خمسين جسما: لا تفرق بين علي وم.س. وحمادي وعماد وحكيم ومنير و..و... كنا شاردين في الفضاء الموحش العقيم، وكانت الساعة الثالثة ظهرا وأشعة الشمس تخترق الرؤوس القرعاء كمثقاب ناري يدور دورانا لولبيا مؤلما، وبدأ العرق ينزّ ثم يسيل ثم يتدفق "فخفنا من الغرق فيه" كما قال صاحب الغفران. لا التفات ولا حركة، كُنا كالتماثيل الخشبية جامدين، نحن جند منضبطون، لا مجال للتذمّر يا رجال الصحراء! هذه الفلاة أنتم لها. موطن الأفاعي ذات القرون والورل المتعنْجِه والعقارب الصفراء والسوداء وال"بوكشاش" والغربان والنسور وكل ما خلق الله من الزواحف والكواسر النهارية منها والليلية.. لا تنزعجْ أيهّا الجندي فهاهم رفاق سابقون في الانتظار، وربما لاحقون في برنامج سلطتنا العتيدة! لا تحتجَّ يا طالب العلم لست الأول ولن تكون الأخير... امتدت الأعناق تتأمل وتحملق وبقايا العيون المختفية تحت التراب: أين نحن من الحياة لعلّنا اخترقنا حُجب المكان والزمان وسافرنا في رحلة اينشتاين العجيبة إلى حيث العدم يلتهم المشاعر قبل الأجسام أو صرنا أشباحا في مَجهلة الثقب الأسود السحيقة! صبراً يا طلابُ بل يا جنود الصحراء، جئتم للإحياء وأنتم الموتى، وهل يهبُ الحياة فاقدُها! فَوْجُكمْ هو فوجُ إحياء الصحراء ! يا للعبثية السارترية، ويا للكوميديا السّوداء! لم ينقطع شرودُنَا حتّى جاء العريفُ بعد ساعة من الانتظار، لقد انهارت الأجسام وسقط الكثير من شدّة الإعياء، وكلّ من يسقط في الصّف تتكفل أيادي الرقباء بجرّه خارج الطابور تحت ألسنة اللهب ويستمر الباقي في الانتظار، ثم صرخ العريف "اس... ت..عد، اس... ت... رح...، است... عد! تفضل حضرة الملازم! تقهقر الرقيب إلى الخلف بعد أن قدمنا للملازم.. وقف بثبات وصاح: "است... رح، أنتم من اليوم جنود السّريّة الأولى لفوج إحياء الصحراء، هنا نطبق القوانين العسكرية بكل حزم،

أقرب مدينة من هنا هي "قبلي" على مسافة أكثر من تسعين كيلومترا شرقا ومن الشمال الغربي مدينة "حزوة" تبعد أكثر من ثمانين، أنصحكم بالقبول بالأمر الواقع وعدم التفكير في الهرب، وكونوا مسؤولين فأنتم مثقفون لا تدفعونا لما لا نريد! است... عد، تفضل يا عريف، قم معهم بجولة تدريب عسكري على الفور..!" استلَمَنا العريف ونحن في ذهول تامّ: "أي تدريب ونحن ما ذُقنا طعم الراحة لا في الشاحنة ولا قبلها! أي معنى لهذا!؟". لا يسع العريف إلا تطبيق الأوامر العسكرية، ولا أحد يمكنه أن يسأل: (بشر على سفَر من السّابعة مساء الأمس إلى الساعة الثالثة من ظهر اليوم! لم يكتحل لهم جفن ولم ترم أجسامهم الأرض للحظة، يهرولون ويهرولون طوافا بالمخيم وهم يتساقطون بالتتابع من شدّة الإعياء ويُنهَرون بالصُّراخ والتهديد! أي تدريب هذا؟!) استمر ذلك قرابة الساعة سقط فيها الجميع صرعى "كأعجاز نخل خاوية"... و عندها نادى العريف: "كلكم إلى الدوش". استبشرنا خيرا وبحثنا بأعيننا عن (الدوش) المقصود فقال: "إلى العين يا جنود! "وكان على بعد مائتي متر من المخيم عينُ ماء رُكّب بفوّهتِها عامود بلاستيكي طويل يتجه إلى الأسفل يتدفق منه الماء شلاّلا يثقب الأرض، سرنا متثاقلين مكرَهين وفرِحين بالفرج القريب، لكنَّ أحدنا وهو(فلان) قفَل راجعا من الطابور، فقال له العريف: "إلى أين يا جندي"؟ فأجابه: كي آتي بالـ"شومبوان والبروس"... فقهقه العريف في ازدراء وسخرية: "الشمبوان يا ولد أمك... إيجه تو نوريك الدوش كيفاش... يا..." والتحق الزميل بنا مهرولا. ولما تحلقنا حول بركة الماء الدّافق من أعلاها أمسك العريف بالجندي من حزامه وكتفه وألقى به في البركة فـ"بقْبقَ" ولم نرَ له من أثر حتى عاد وطفا من جديد على سطح. الماء، والتفت العريف للمتحلِّقين وقال" اقفزوا! هذا هو الدوش"! وتركنا وانصرف. فأخذنا -والحقّ يقال- بعض الراحة في الماء ونحن نرتدي كل الملابس بما فيها الأحذية العسكرية.. وعاد العريف وأمرنا بالخروج والاصطفاف.. فبرزت ملامحنا التي خسرناها طول الطريق ونادى الرقيبُ الجنديَّ فلانا فاستجاب، فطرحه أرضا وقال "وضع البرميل، خذ."! لم يفهم المسكين ولا نحن أدركنا ما عنى! فبدأ يدحرجه ونحن خلفه على نفس الوضع حتى وصلنا المخيّم منحدرين في وضع البرميل. ولما وقفْنا ما تعرّفنا على بعضنا من جديد، فقد علِقت الرّمال الناعمة بالملابس

والرؤوس القرعاء والوجوه.. فقال العريف: الآن "عرفتم مكان "الدوش"! يلا كلّ حدّ يمشي وحدو". فهرعنا نحو الماء ولا أحد يلوي على شيء.

عدنا من الحمام الأرستقراطي العجيب يقطر منا الماء من كل الجوانب وأرجلنا غارقة في " البرودكانات" وكلّما خطوْنا تنهَّد الحذاءُ وأطلق سهْما من الماء يتناثر في كل اتجاه، وحين وصلنا المخيّم وجدنا في انتظارنا أربعةً وأربعين طالبًا كانوا قد شرّفوا المكان في الليلة السابقة. فأصبح العدد أربعة وتسعين مجندا لـ"إحياء الصحراء".. دُعينا إلى الاصطفاف لتناول الطعام في الخامسة عصرا لا ندري أَ هو غداءٌ مؤخر أم عشاءٌ مُسبق!؟ كانت البطون والجسوم قد جفّت وذهب رواؤُها. كنتُ مع عليٍّ لا نرغب في الزّحام لأسباب كثيرة فسرنا في آخر الطابور.. وبدأ توزيع الأكل: كلّما مرّ طالب -عفوا- جنديّ تُسلّم له" قميلة" وتُملأُ طعاما لا ندري أهو كسكسي طُبِخَ مناصفة مع الرمال أم العكس؟ كلّ من تناول لقمة بيديه صُعقت أضراسه فرمى بها. والملاعق غير متاحة! فنحن ضيوف نزلنا من القرن العشرين إلى عصور غابرة واستعمال الملعقة محظور ولم يقع الإفتاء في حلّيتِه بعدُ! ورغم الرمال نُعيدُ بعث اللّقمة إلى الكهوف الخاوية، فالجوع لا يُحتمل، ويلوك كلٌّ منا ما كُتب له ويزدرده ازدرادا. اقتربتُ من الدّور "وعلي"خلفي فسلم لي المسؤول "قميلة" وصبّ فيها من الطعام ما أُتيح لي. ومررت، وبقيت أنتظر "عليًّا "وقد تأخر، فإذا به لم يجد "قميلة" للطعام، لأنّ عدد الأواني لا يطابق عدد الجنود. فعدت إلى عليّ واشتركنا في تناول ما تسلمته نلوُكه ولا نحس طعمه. وحين انتهينا من الأكل قيل لنا: "ليحتفظْ كلٌّ بإنائه، فذلك هو صحن الأكل وكأس الماء وفنجان القهوة وبراد الشاي وطسْت الحلاقة وربما فيه مآرب أخرى! وصديقي عليّ أضاع كل المآرب بغياب قميلة شخصية جميلة! هي اسم على مسمّى في كل الأحوال! فظلّ يشاركني ليومين ثم فرّج عنه الله بأن اتخذ له علبة معجون طماطم "قميلة" أجمل ممّا لدينا يحرص عليها كل الحرص ويتفانى في العناية بها حتى أنّه اتخذ لها اسما. وقد وعدته بأن يبقى سرّا! ولا تستغربوا إن أخبرتكم أنّه لما أزِفت ساعة النوم، وقع تقسيمنا على ثلاث خيام بكُلّ واحدة أكثرُ من ثلاثين طالبًا، فلمّا استلم كل جندي سريره بقي عليّ من جديد بلا فراش! فكان الحلُّ أن اشتركنا من جديد في فراشي مدة! هل هي الصدفة أم أمر دُبّر بِليْل!؟ ولا تستغربوا أكثر إن خبّرتكم أن عليًّا هذا توأم الروح والفكر والوجدان. رجل على نحافته فهو حسام رديني بتّار، وسيف ذهبي لا يعرف التراجع أو الانهيار، من حامّة النضال والفحول والفرسان. لا تعرفه حتى تجرّبه في أشدّ المواقف ! عرفته منذ دخولنا الكلّيةَ، أصبحنا أشقّاء الحلو والمرّ، ومن عجيب الأمُور أنّنا كُنّا

تحايلنا على إدارَة المبيت الجامعي حتى نضمن سنة سكن إضافية، فاكتريتُ أنا الغرفة مع زميل آخر هو الناصر أولاد أحمد، واصطحبنا عليّا ثالثا في غرفة مزدوجة ليقاسِمني سريري من أكتوبر إلى أفريل يوم قُبض علينا! فكنّا ننام أحيانا بالتناوب وأحيانا معا.. وأحيانا في فراش الناصر أولاد أحمد.. ومرّت الأيّام.. فحين شاركني في فراش المعسكر، قلت له ممازحا: "يا ولدي ! وأنت كالتّابعة ابعد عليّ لعلنا نستسعد! منذ عرفتك ما عرفت سوى المشاكل!" وقد كانت لنا مواقف يطول سردها وسيحين وقتها (...). كنتُ مع عليّ نشترك في كتابة المعلّقات الحائطية رفقة الزملاء، ونلصقها في مكانها بهوْ المشربة منذ منتصف الليل ونسهر على حراستها حتى الصباح.. المهمّ هاهي الصحراء الآن تلتهمنا معا ولا يسعنا سوى الصّمود كي لا تتزعزع قناعات آمنّا بها وتعاملنا بصدق مع المبادئ بعيدا عن الأضواء وحبّ الظهور و الاستعراض ومرض النرجسية كحال مرضى السياسة والقنوات التلفزية المتاجرين بصدقنا ووفائنا للمبدإ! بعيدا عن مسرحيات السياسيين الهزلية البائسة ! فرسالة الحرّية نبيلة نتعامل معها بنقاوة وشرف يناسبان قدسيتها...

-4-

الليل في الصحراء تجربة تُعاش ولا توصف.. إنه شبيه بالحلول الصُّوفي في المطلق. والليل في الصحراء ذوبان في اللاّمتناهي والسرمديّ.. حين أنهيْنا وجبةَ العشاء وتعارفنا كُلّ حسْب ميله وهواه، أُشعِلت مواقدُ مبعثرة في الساحة قبالة الخيام. نيران تطاول ألسنتُها عنان السماء وحولها تدافعت الأيادي الطّالبية الناعمة تسترق من اللهب بعضَ دفء. الأجسام ذهبَ نشاطها فكان بعضُها يمرّ وئيدًا عبر المجموعات لمزيد التعرف والبحث عن ابن بلد أو زميل في كلية. وانتهى السَّمر بانصراف الجند إلى مخادعهم، فآوينا إلى خيمتنا نجرجر أرجلنا كأنها ليست منا، ونحرث بها الرمال الناعمة. ولمّا أشعلنا المصابيح البدائية "البترولية" وتهيأتُ للتمدّد على الفراش صحبة الصديق عليّ، قدِم العريف متفرّسا في الوجوه كأنّما يبحث عن مُتّهم ثم اقترب منا وأخرجنا من الخيمة وقال: "أنتما من حراس المخيم هذه الليلة! استغربنا الأمر، واندفع عليّ: "ولكنّا وصلنا لِيوْمنا، ولم نذُق طعم النوم لأكثر من ثلاثين ساعة؟ فلم يعبأْ باعتراضه ودفعَنا مع ثمانية من الزملاء وكلّف بنا الرقيب لقيادة الحراسة.. فجمّعَنا وسلم كُلاً منا هراوة وقال: "هذا سلاحك تحتمي به من كل ما يهددك واحذر النوم. إننا نُعاقِب من يخلّ

بالحراسة العقاب العسكري الرادع ! وستتغيّر الدورية بعد كل ساعتين. حراسة اسـ.. تعد. إلى الأمام سر..! "وترك بواجهة المخيم خمسة جنود للمناوبة الآتية.. وقادنا نحن البقية حول الخيام النابتة في المنخفض ونثرَنا هناك بمقادير محددة. كان نصيبي من التوزيع في الحراسة بين العين والمعسكر، بيدي هراوة لعلني سأطارد بها الريح؟ فرأيتُني دونكيشوت يحارب القطيع والطاحونة الهوائية... كانت الربوة تشرف على أسقف الخيام لا يراها القادم في النهار فما بالك ساري اللّيل. فلما اعتليتها تراءت لي الخيام تحت أشعة النجوم الباهتة كهياكل مراكب تجارية فينيقية التهمها البحر وشقّ عليه ابتلاعها، فظلت طافية بين مدٍّ وجزرٍ. وكان امتداد الصحراء تحت رداء الليل فاحِم الطيلسان موحشًا وممتعا ومقشعرا للأبدان، مطلق اللّيل يحتضن مطلق الفيافي في حَضْنة حميمية جنونية أخّاذة! يا لله! صورة من الصور الرومانسية النادرة، ولوحة من لوحات الكون لم تتجرأ عليها ريشة فنان: هذا الخلاء وهذا الامتداد الغارق في الآفاق القصية فيه كانت الظلمة مدلهمَّة تمزّق عتمتَها أشعةُ النّجوم الآتية من أبعاد لا نهائية، هي كَغُبار من تبر تمسح برفق على ما بدا من جسمي بلعابها الشّفّاف: وجهي من تحت الجبين إلى الذقن، وأذنيَّ تحت القبعة العسكرية، وشعيرات ظهر اليدين، فتنتابني قشعريرة لذيذة ساحرة كأنما الكون يدثّرني بدثار من سحر تهتزّ له الأرواح قبل الأبدان! الليل في الصحراء روعة الجمال الإلاهي الذائب في القلوب تأمّلتُه فكأنما أرى الذّاتَ المفردة تحلُّ في مطلق الكون بانسيابية واستسلام للوجود وخالق الوجود! "أيُّها اللّيل السّاجي المُعسعِس قيل إنّك رسول العشاق! وقيل إنك حيّز وحي الأنبياء وسحر الشعراء! وقيل إنّك ملاذ الصعاليك وقطاع الطرق! أستحلفُك بالسر المتجلي في سرّ سرّك أن تُصنّف هذا الكائن المسكون بالهموم والآلام والمكلوم ضمن أي صنف! أيّها السّواد المتعالي المهَيْمن على الأسافل أغدقْ عليّ صبرا يتحمل به هذا البدن وهذه النفسُ عذاب سنة من الانتظار للحظة الإفراج! وأنتِ أيتها العصا الغليظة المسكينة ما قُدْرتُكِ العجيبة على صدّ المخاطر عن جنود ضحايا في صحراء ذنبُهم أنّهم قالوا "لا لبعض الأشياء..." تواصل بي الشرود على أنين الماء وهسهسته يندفع من القناة المجاورة، ومن حين إلى آخر يتمزّق سكون الليل بوجيب ناقة من إبل الصحراء فقدَت وليدها أو نُباح يتماوج مع نسمات الليل الندية...

انتهت نوبة الحراسة الأولى، فقدِم الرقيب رفقة الزميل البديل، وتسلم مني "السلاح". رجعت قُبالة الخيام في انتظار نوبتي الثانية بعد ساعتين.. افترشْتُ الرمال الناعمة الندية والتحفتُ بالنجوم.. تمدّدت في ارتخاء وهدوء لا مثيل لهما.. تأمّلتُ المصابيح الساحرة المتدلية بسلاسل

فضية بين لألاء الشعاع وخافت الضياء.. واتخذت ذراعي اليسرى متّكأ في حين انسابت يدي اليمنى تتلمَّس ما جاورني من المكان: رمال ناعمة لِمَسِّها دغدغة في الكفّ كانسراب الضوْء بين الأصابع، فهي تسيل في لطف الجداول الحالمة، وسرحت عيناي في القُبّة الرّمادية ذات الحُبُك والمطرزة باللآلئ وحبّات التبر المنثورة تأخذ الأبصار وتستبد بالمحاجر فترتخي. كانت الأنْوار تسَّاقط عليّ كأنها رذاذ من ضياء حليبّي شفّاف، وبينها شُهب لمّاعة تغتال العتمة وتستحيل في الأحْداق مغربة بالرحيل.. أخذتني عيني في إغفاءة حالمة، فإذا الأنوار تمتصُّ ما تبقّى من تعب الجسد ..ناديتُ نداءً مكتوما يتحشرج في الأوتار: أيّتها الثرُّيات النائسة في المطلق العميق القصي! اسحبي الطين واحمليه على أجنحة النسائم فقد "تعب الطين، تعب الطين... ولم يتزود بقطرة ماء" وهو في بحر ساكن من الرمال به حاجة إلى من يبلّ صداه ويزوّده بنسْغ الحياة، احمليني حيث لا سلطان للطّين على الجوهر أو لقانون سدَنة الطّين وعُبّاد الأشياء. أيتها العتمة إني أنا ابن الليل فافتحي لي معراجا للرحيل، واحرسيه بجوقة من الملائكة النّورانية تعزف أناشيد القُدّاس الرصين. خذيني حيث الخلود الأبديّ وتَعانُقُ الممكن والمستحيل! ألا يجدُر بالطين أن يتحرّر! ألا يحتاج إلى راحةٍ أبديّة لا يُعكِّرها زلزال الفناء وخشية الموت الغادر !؟ وأنتِ، أيّتها الرّمال الحريريّة النائمة بين لهب الشمس نهارا وبرودة الندى ليلا، خبّريني ما شأنُك مع القحط وأنت تسبحين فوق بحر لانهائي من دفق المياه! هل أنت رمال الصعاليك العاصفة وملاذهم من حيف القبائل وقيم الجماعة المتغطرسة!؟ أم أنت رمال سُراة الليل يهيمون على الحقيقة والنبوّة وقطعة شِعر صوفية!؟ هل مرّ بك ذات ملحمة عروة بن الورْد أو السُّليْك بن السُّلكة أو الشّنفرى الأسْدي أو المتنبي أو رابعة!؟ ألا فاعترفي! غدًا من تحت هذه الخيام سينهض صعاليك من "غيالى" العصر يحوّلون قحطك مروجا خُضرا من النّخيل الباسق والعراجين الدانية وخدود التفاح والرمان المتورّدة. "غيلان" الجبل قد أنْهى رحلةً إلى الفناء والخسران، وهؤلاء "غيالى" لا يفهمون معنى الانكسار! و"صاهباء" في جبل قرطاج تُرعد وتُزبد وهُمْ هنا يُرغِمون الموت على الانحناء لإرادتهم همْ لا لإرادةِ من يحاول إذلالهم واستلاب فعلهم الخالد، لا يعرفون سوى الانتصار أو الانتصار! لا بأس سنقاوم.. و"نعلّمك أيتها البيداء الحياة والصمود"! وأنت أيتها الخيام المتّشحة بلون الرمل إزارًا وبالعاتيات الذّاريات سوارًا،

يُغلِّفك الموت الأصفر ليلا نهارا، سنلوّنُ بالفعل اصفرارك اخضرارا، حتىّ يزورك" الكميون" الأخضر مُرغَما مثل سواك من البراري.. هؤلاء العَاكفون تحتك أبطال ولكلٍّ منهم قصّة بل قصص وملحمة عنترية أوليسية طروادية تونسية حديثة من ضفاف رأس أنجلة والهوّارية إلى لافحات الترب ببرج الخضراء ورمادة طولا ومن جبال درناية وبوشبكة إلى قرقنة مرورا بالكرشون عرضا! وسنعزِف على بطولاتهم المائة أنشودة للخلود. بعضهم مجنّدون قَصْرا من طلاب عِلم فهذا صحيح، ولكنْ معهم قادة من ضُبّاط أشاوس وعرفاء ورقباء وسواهم من أبطال الصحراء و"زرادشتات" الكثبان والواحات. لا تغترَّ أيُّها الساكن حذاء الموج في مرسى علّيسة ولا تظنّ أننا ندينُ لك بالولاء ونقبلُ فعلك المشين، قد يكون هذا ما يرومه الحقد الساكن فيك!؟ لكن، لا.. ولا... ولا..نحن "ماء هذه الأرض ونحن البقاء وأنتم الزوال والفناء! هي عطرنا ونحن شذاها.. هي نورنا ونحن ضياها.. سنقشِّر بأظفارنا الغضّة طبقةَ الموت بأرضنا ونحنّيها بخضاب أخضر من بساتين فهي لنا! ولن نهويَ إلى معابدكم المزيّفة خُدماناً و لا سدنة أذلّاء.. أنتم الخيانة والأعداء وأنتم شريعة "دراغولا" يا مصاصي الدماء! هي عِرضُنا ونحن حماها،هي بدرُنا ونحن سناها...". انقطع حلمُ اليقظة ودَوَّى صوت الرقيب: انهض... انهض حراسة... اسـ.. ت... عدْ! فنهضتُ كالسّهم فارق القوس نحو موقعي بالحراسة وإذا الفجر قد تكسّل يتمطى خيوط من الورس ينقشع له الظلام، فتزيّن الشّفقُ الشرقي بضياء يتسلل من تحت ظلام فينشِئُ ما يحاكي عنق الحمامة كما تسمّيه أمي.... وكانت ليلة بيضاء في الحراسة دون اكتحال جفن واليوم هو تركيز المخيم العسكري وإعادة التهيئة والتّنظيف، تناولنا أدوات العمل: كل عسكري أُهدي رفْشا من أعلى طراز، وشرعنا في إزاحة الرّمال المتراكمة على جوانب الخيام إلى حدود النوافذ القُماشية. كانت الخيام رملية اللون تتماهى مع المحيط وتنصهر فيه انصهارا. تناولتُ "بالَتي" مثل كل عسكري همام وتذكرت مراد الثالث أو "مراد بوباله "يصرُخ في القصر: "البالة جاعت..."، لكن جوع بالتي للرمال وليس للرؤوس والدماء... أزحتُ ما أمكن من رمال ناعمة كالدقيق، فكنتُ كلّما ملأت البالة سال الرمل سيلان الماء من جوانبها، ولم يحصل بها إلا القليل، فلا أنا أنظّف حوافَّ الخيمة بالسرعة المناسبة ولا أنا أنقطع عن المكابدة... كنت "سيزيف" الصحراء مع الرمل لا مع الصخرة في الجبل! تتسارع دقات قلبي ويتصبّب العرق

ممزوجا بما تناثر من الرمال، فيعلَق بكل ما ظهر من الجسمِ النديّ. كان الزملاء على نفس الحال، ومن حين إلى آخر حين تنقطع الأنفاس وتعسُر المواصلة أترفّق يد الرفش وأتكئُ هنيْهة فأرى سيزيف فِيّ ينحدر إلى السفح يسترد ما تلاشى من الجهد. لكنّنى لا أستسلم! فأحدّق في الرمال متحدّيا، وأزمّ شفتيّ و"أُتكتك "أسناني وأستمرّ ! " يا سيزيف، يا والد العبثية! يا مُورث الفشل لن أستسلم مثلك لإله أولمب يسومك سوء العذاب! أنا هنا من أجل الانتصار ولا شيء سوى الانتصار". أُتابع العمل بعزم فإذا بي ألمحُ أفعى من ذوات القرون تستحمّ تحت الرمل وتتسلّق جدار الخيمة، الحقَّ أنني فزِعتُ وقفزت بعيدا، فلما رآني الرقيب أقبل وقال في رفق: "اسمع يا جندي أعرف أنّك ما تعودت رؤية الأفاعي، وأنا أعذرك، ولكن اعلم يا رفيق الصحراء أنك من اليوم ستعيش مع هذه الزواحف كما تعيش مع رفاقك، إنها تقاسمُنا المكان والوجود وحتى الطعام، فهي عشيرة ودودة أفضل كثيرا من البشر "! وتقدم منها ووضع حذاءه العسكري برفق على رأسها فغاص في الرمل وتناول ذنبها ورفعها، فتعجبتُ من جرأته، ثم قرّبها من وجهه وهو يمازحني ويقول: "انظر إنّها صديقةُ كلِّ لون أصفر مثلي ومثلك بلباسك الكيكي المموّه، فهي تعرفنا ونعرفها، وبيننا ميثاقُ شرف في هذه المملكة الممتدة، نحن غزوْنا أرضها ونزلنا بين كثبانها، فلنكنْ ارحم من "كريستوف كولومب" وزمرته المجرمة، ولسنا "المارينز" ينتهك أرض الرَّافدين والحرمين والقِبلتين والمشْرقين وحتى الثّقلين..! استغفر الله! خُذ وجرِّب أخْذها بأصابعك ولا تخف! مددتُ يدي وجِسًا متردّدًا ثم أمسكت ذيْلها فإذا هو لزج الملمس في الاتجاه السفلي وبه حراشِف إذا مرَرْت إصبعك عليه نحو الأعلى. شعُرتُ ببعض الفخر والطمأنينة تدريجيا. تركني الرقيب وانصرف وعذر مني التقصير في العمل، فانتهزت الفرصة وبقيت أُلاعب الأفعى فتارةً أضعُها على الرَّمل وأشاهد ما تخطُّه من تعرّجات وتجاعيد على الرمل فهي كالرّسام الماهر تخطّ لوحة تلقائية من الخطوط والدوائر، وتارة أقرّبها من وجهي كما فعل الرقيب وألامس ظهرها بيدي الأخرى فأجدُها مسالمة لا تقاوم ولا تستنكر، إنها ألطفُ ممّا كنت أظن. تأمّلتُها مليًّا بين يديّ فجنح بي الخيال إلى آفاق قصية فوجدتُني أهذي: "أيتها الرفيقة اللطيفة أعدك ألاّ أؤذيَك مادمتُ هنا، أنت رمزُ المكان ورمز التحدي والبقاء ومعلمتي الصبرَ والمكابدةَ وذكاءَ التخفّي في رمال الدنيا المضطربة.. أنت سمكتي الصحراوية تحاكين سمكة

زكرياء المرسنلي الياطر ! لا أحد يمسُّك بسوء فأنت ألطف مما تصورنا.. الأفاعي الحقيقية تركناها يوم "هوّدَ " بنا (الكميون) الأخضر ذات مساء وسلّمنا للكميون الأصفر! تركناها تلدغُ بني جِلدتنا وتحقنهم بالسُّمّ الزُّعاف! أنتِ في موطنك استقبلتنا في مجالك الذي هو مجالنا! أرضنا نحييها ونحمي كل ما فيها! أنت الطائي ونحن الضيوف.. نعقِد ميثاق الشرف ولا ننكث. أعرف أننا ربّما نخون -نحنُ البشر-، لكنَّ الصحراء ستعلمنا الوفاء وتعلمنا الفحولة أكثر وتسقينا من لفح هجيرها صمودَ الرجال العتاة "على من عتا". لست نادما عمَّا حدث، وكل الرّفاق لا يندمون.. سنُكمل الرسالة وسنعود إلى ثغور العِلم أيْضا! هذا نبراس البطولة، والبطل الحق لا يموت إلا إذا أكمل الرسالة لأنه لا يخون الرسالة! وحتى الموت يُقدّر ذلك فلا يستعجلُه قبل الأوان. إنّ البطل يختار يوم رحيله بإرادته. وأنتِ يا أفعاي الجميلة الناعمة الرقيقة، شرفٌ لنا أن نشترك في المهمّة، سنطعمُك من حليب وجبتنا وتشاركينَنا مرقدنا وتمتّعين سمرَنا بفحيحك السّمفوني وتقتربين من "سوامير" مواقدنا الليلية.. أنت لنا ونحن لك! ارتجّ مَسمعي على صوت الرقيب "يا جندي أكمل العمل". وضعت الأفعى برفق وتناولت البالة فأنجزت ما لم أكن أتوقّعه من تنظيف خيمتنا (أرضنا وبلادنا) مما تكدس عليها من الرمال الطفيلية البليدة التي انتهكت حُرمتنا وحرَمنا كالتي في أخضرِ مروجنا وأزرقِ بحارنا وأبيضِ شطآننا... ولما انتصف النهار أو كاد،فالزمن في الصحراء ميقاته ما في الوجدان والساعة البيولوجية هي المعيار. انتهنا على صوت الرقيب يدوي فتتجاوب له الكثبان المجاورة وتردد صداه: سرية! اسـ... تـ... عد... إلى المطعم سرْ! فكان هذا الإيعاز كلمة السرّ وصفارة المدير بالمدرسة لما كُنّا تلاميذ... وكان صباحًا حافلا بالأسرار...

ولما انتهت فترة العمل المسائيّة بين مكابدة الرمال ندحضها ونصدّ غزوها للخيام وبعض الاستراحات القصيرة المحسوبة،كان المكان مهجورا ونُصِبت خيامه على عجل لمّا وقَع قرار تجنيدنا. هيأنا ساحة فسيحة لحمايتنا من زحف الرّمال والحيوانات. وتقاسم الجند والكادر العسكريّ المسؤول إنجاز المهام: هذا فصيل لتنظيف جريدِ النَّخل وقصّ زوائده، وذاك لحفر خنادق محيطة بالمعسكر، وآخر يغرس الجريد ويسوّرُه به، ورابعٌ يزوّدنا بالماء من العين المجاورة، وخامس يثبّت السور بتكديس الرمال عليه وسكب المياه.. وآخر يشدّه إلى بعضه

بالأسلاك الحديدية حتى يتماسك.كنّا كخليّة النحل نشاطا وجهدا ولم نعدم التفاؤل والمزاح والتعارف وترطيب الأجواء بالنّكات وتبادل رفع المعنويات. لم نشعر بالتعب رغم مشقّة العمل المضني: فقد عددنا الأمر مخيّما كشفيا لا غير. وأردنا تحويل مرارة الاعتقال دافعا للأمل وحبّا للبقاء رغم الصعوبات المتوقّعة. بدأنا نكوّن أسس العلاقة الأُسرية التي ستجمعنا في تضامن وتماسك ومحبة طُلاّبا وعسكريين.. ها إننا مع الغروب نُكدِّس ما جمعه بعض الأصدقاء من حطبٍ في شكل كوم عظيم، تحلّقنا حولها وقدحنا نارها فالتهبت وعاندت السماء، فعوّضت شمس الصحراء الآفلة والقمر الذي يتأخر في الطلوع. كانت ألسنة النار تتلظى وتتماوج مع النسمات الخفيفة وتُلامس بين الفينة والأخرى يدًا أو وجهًا تجرأ على الاقتراب. في الأثناء لا تنقطع الألسنة على الممازحات والهمسات.. تكفل البعض بطهو الطعام، فقد كُنا ننجز كلّ أعمالنا بمفردنا: فريق المطبخ يجهز الوجبات وهو مُعفى من بقية الأعمال. ونحن نتسلّى بمشهد النار تكنُس الظلام الذي بدأ يتكثّف حتى دثّر المكان بردائه الحالك. فظللنا استثناء تمرّدنا على سلطانه تمرُّدنا على ظلام تظاهرنا ضده في شوارع العاصمة وأزقّتها. هاهي نارنا تُصدر حفيفا ناعما ونشنشات خفيفة تلاطف مسامعنا، ونحن نتمتع بها لا تمتُّع المجوس بل نار القِرى الحاتمية! ونار صخر السُّلمي في بكائية الخنساء! ألسنا من عرب نحن! نرى النار رمزا لأصول متجذّرة ولها فينا سكن وأبعاد؟! لم يطل انتظارنا وتناولنا العشاء ثم عدنا إلى حلقتنا حول النار فإذا هي جمرٌ لهّاب يغري بالشواء وطهي الشاي المركز. تناولت الأيادي أعوادا من الجريد وطفقت تسحب من الجمر ما يكفي لوضع "القمائل" واتخاذها "براريد" لطبخ الشاي. طافت الأواني حول كُبّة الجمر القاني واستقرت يغلي شايُها فتسمع لها نشيجا كأنها تشكو حرّ الجمر، وترى لها "جنادب تنزو" على سطحها كما قال النواسي! فإذا الفقاقيع الكُميْت اللّون تتعالى ثم تنفجر وتتهالك على حواشي "القميلة" ناشرة في الأنوف شذًا شهيا من المسك لا يحسّه إلا من قطّب الغبُّ صُدغيه فكبّسه بمنديل ذات أمسية رمضانية.. نضُج الشاي في بعض البراريد الاستعارية وطافت الأقداح على النُّدامى المِلاح، وكانت أقداحا من عُلَب الهريسة وبعض الكؤوس الزجاجية القليلة. لم يكن للبخل بيننا مكان ولا الأنانية، فالفرد للكل، والكل للفرد وللكل... تلك هي المعادلة التي بدأنا ننسجها. سنواصل الانسجام والتكامل. وفي الأثناء

وُلِّعت السجائر وتصاعد دخانها في دوائر وألسنة راقصة في الباليه مع نسائم الليل.. تواصل السّمر وسقطت حواجز الجهة والانتماء والطبقة وحتى الرتب العسكرية. فكانت ليلة من أساطير الخوالي وكانت تدشينا لأسمار عجائبية كسرنا بها منطق الأشياء ونفذنا إلى عوالمنا الخاصة حيث تبادلنا أسرارنا ولطائف مغامراتنا وكيفية القبض على كل واحد منا وأنهينا سمرنا بالغناء والطرب حتى انتشينا ونهضنا إلى فُرشنا بهدوء وسكينة...

... أغرانا فجرُ اليوم الثاني في الصحراء بالنهوض، فنشرَ أنواره على المكان، وأطلّ علينا ونحن في الخيام ممزوجا بصفرتها، فشكل لونا ورديا يتسرب من خلال النوافذ والسقف القماشي. وطرقتْ مسامعَنا إيعازات الرقيب المناوب "انهض.. انهض..انهض..."! وترافقت نداءاته الصارمة بطرقات متواصلة قوية على كل ما يعترضه من أوانٍ مبعثرة وأوتاد الخيام وأعمدتها الحديدية، وكلّما مرّ بخيمة أطل من خلال الباب وصرخ: انهض... انهض... جنود انهضوا! فاقتلعنا أجسامنا المرهقة من الأسرة اقتلاعا وغادرنا الخيام متثاقلين نطلب الماء بالعين المجاورة للاغتسال وحلق اللّحيّ.. لقد نبت الشعر في وجوهنا كثّا على امتداد أيام الاعتقال العشرة وما زارته "ماكينة" الحلاقة! نبت مشوّكا كالقتاد في الأرض الحراش. تقاطَرْنا على العين تقاطُر العير الهيم، لم نستطع غسل وجوهنا لاستحالة الاقتراب من الماء الدّافق المرتفع والنازل من الماسورة المعلّقة، فهو يتصبّب قويا كالشلّال، ولصعوبة الاقتراب دون الابتلال بالبركة العريضة التي تكفي لسباحة فيلة إفريقيا! احترْنا ونحن نُمسك بأدوات الحلاقة، فقد صدرت الأوامر بشعارين هما عنوان انضباط العسكري: "اللحية محلوقة والصباط يلمّع" شعاران لا تنازلَ عنهما وشرطان لكل عسكري مهما كانت رتبته! المهمُّ احترنا في الأمر ولا خِبرة لدينا في التعامل مع مثل هذه الأوضاع. لقد كُنا في المبيت الجامعي نمتلك أحواضا خاصة للاغتسال بغُرفنا، وفيها ننجز المطلوب من حلاقة وسواها، وبنفس الجناح تتوزع " الأدواش" بشكل مقبول لا عناء في استعمالها. أما هنا فالأمر مختلف لطالبٍ أُستُلّ من جامعته استلالا وقُذف به في صحراء لا يعرف كنهها إلاّ الله، لم نر الصحراء إلا في الخارطة وهي الجزء الأصفر الفاقع منها! أجدُني أمام بحر من الرمال المترامية، وأُدعَى إلى تدبّر أمري بمفردي على غير دُرْبة، فهذا صعب حقيقة! لا أحد منّا تجرأ على الاقتراب من الماء في الفجر خوف لسعات البرد

الصحراوي. مهمّتنا مزدوجة ومعقّدة، قد تستغربون ذلك! غسل الوجه وحلق اللّحية أمران من أعسر الواجبات.. هل تغطس بالبركة وتغسل؟ هل تمدّ يديك على حافة عميقة وتضمن لجسمك التماسك!؟ الأمر مستحيل.. تفطّن بعضنا إلى استصحاب قمائل أكلِنا، ألم يوصونا بأنها تصلح لكل شيء، حتى الحلاقة وواجب الصحراء!؟ هرع بعضُنا إلى الخيام وأتى بما تيسّر من هذه المواعين ففُرجت المشكلة، ولكن أين المرآة!؟ "هههه! لا مرآة بالصحراء يا ولد أمك! أنت عسكري تصرف! اِحلق ذقنك دون الحاجة لا إلى الفرشاة ولا إلى المرآة !" من يحلّ المشكلة الثانية؟! وجدنا للماء حلّا وملأنا القمائل وطُليتِ اللحيّ بالصابون الأخضر الذي سلمونا إياه يوم التجنيد مع ماكينات الحلاقة وعلبة ذات عشر شفرات.. مشكورين على كل حال! لكن ما العمل!؟ لا أحد يُرشدنا ولا أحد له خبرة حلق ذقنه فجرا على حافة بركة دون مرآة وتحت نسائم الصباح!؟ تفطن بعضنا إلى ضرورة التعاون بتبادل الحلاقة بين كل اثنين... هذا حلّ. فازدوجنا كل رجلين وتعاونّا على الأمر، تذكّرت لما تآخى المهاجرون والأنصار في الله رجلين، رجلين! نعم نحن أيضا تآخينا في اللحى والحلاقة طالبين طالبين! يا للمهزلة... هذا حلّ سحريّ! (لماذا تضحكون؟ "أنتم أيها القراء.. نعم إياك أعني يا قارئ الصفحات جرّب الوجود في نفس المقام واحكم!") كان عليّ رفيقي وشريك السراء والضرّاء.. سلّمتُه لحيتي الكثيفة والملطخة بالصابون الأخضر على غير هدى مستسلمًا. وشرع في الحصاد! فقلت له وهو منهمك في العمل: ألا تخبرني يا رجل، لماذا نُمنع نحن في بلادنا من إرسال اللّحيّ؟ نحن دون شعوب الأرض نُحرَم حتى من التّصرف في صفحات وجوهنا التي وهبنا إياها الله، ولم يُهدِينا إيّاها السلطان! هبْ أنّها لحية لمجرد الالتحاء البريء أو هي لحية شيوعية ماركسية أو إخوانية أو خمينية أو حتى هندوسية أو وثنية! ما دخلهم فينا، لماذا يتدخّلون في ما وهبته الطبيعة وهرموناتنا التي بأجسامنا؟ لماذا لا يترُكنا أبو لهب وشأننا! ألم يُشهِّر به ابن القباني "لا سجن يُفتح دون رأي أبي لهب... لا رأس يُقطع دون أمر أبي لهب... لا طفل يولد عندنا إلا و قد زارت أمُّه فراش أبي لهب...." يا أخي "تبّت يدا أبي لهب وتبّ...." يا أخي هذا شيء لا يطاق ولا يُصدق! ألهذه الدرجة يعيش حاكمنا أبو لهب رُعباً حتى من اللحى!؟ هل حلّ كلّ مشاكل الوطن المعيشية والتنموية والسياسية والمديونية والفقر والتخلف والأمية و... العلاقات الدولية وبقي أمامه فقط آخر

فصل لرفاهة الشّعب السّعيد وهو ضمان الوسامة بوجوه حليقة كالأحذية الرياضية!؟ يا أخي والله لا أفهم..."كنت أثرثرُ وعليّ صامت يجاهد في تمرير الشفرة على الشعر دون جدوى فقد كان الصابون يجفّ بسرعة بسبب الريح، فأُعيد بلّه لكنّه سرعان ما يجفّ! فيغيّر الشفرة تلو الأخرى ظنّا منا أنّ السبب هو في الشفرات الحافية. لم يكن الأمر كذلك يا رفاق، فالسّر كل السرّ في الريح. فالحصاد في الرياح من أخطاء الفلاح. وفلاحتنا هنا شعر وحصّادتنا ماكينة حلاقة! لم يستطع حلاّقي المثابر أن يتجاوز نصف الخدّ الأيمن باستهلاك عشر شفرات كاملة، هي مخزوننا الاستراتيجي منها! يا للهول. والباقي...!؟ ماذا نفعل؟ المهمُّ أنني تخلصت من شعر اللّحية بعد أربعة أيام: إذ أنّني في كل يوم أقوم بجولة جديدة ذهابا وإيابا "في بطولة إفريقيا؟! " وكذا كان حال الزملاء... لما يئستُ من لحيتي وقتها تناولتُ لحية عليّ فكان لها نفس المآل... وظللنا لأربعةِ أيّام نتجمع كل صباح في جوّ طقوسي خاشع ونحلق ما تيسر وننطلق، نتدرّب ونقضي شؤوننا بلحى نصف أو ثُلث أو رُبع حليقة كانت مسخرةً وأفلاما كرتونية هازلة! كل الجند على نفس الحال: رؤوس قرعاء ووجوه مشوهة يتناثر شعرها كنباتات و"لُقَّاط" سنابل في عام أرمل! اتّخذنا صورنا مواضيع للتندّر ومثارا للمزاح: كم حصادك هذا اليوم؟ من حصد حقلك أنت؟! بدِّل الحصاد في الموسم القادم يا فلاح!... ولما أطلنا المقام بالعين نتصارع مع اللحى نادى الرقيب نداءه المعهود: سرية! اسـ... ت... عد إلى الخيام... هَرْول.. لا مجال للتراخي أو الانتظار، لأن شعار العسكر: طبق الأوامر دون تردّد ولا ترمرم! فأخذنا ما بأيدينا من أمتعة وهرولنا في اتجاه المعسكر لا نلوي على شيء، استعدادا لوجبة الإفطار ثم الشروع في التدريبات العسكرية...

الفصل الثاني

- 1 -

... اليوم هو أول أيام التدريب العسكري. صرخ الرقيب بصوته المجلجل: سرية! اسـ.. ت.. عد! سرية تجمّع! وضع كل منا ما بيده واتجهنا إلى ساحة المخيم الفسيحة.. اصطف الرجال لا كتب ولا كراريس ولا دفاتر... على الطلاب أن ينسوا صفاتِهم الأصليّةَ كونهم طُلاّبًا.. عليهم أن ينسجموا مع الواقع الجديد.. الاصطفاف ليس أمام الدكتور والمدرج! هو الآن اصطفاف أمام الملازم والفضاء الشاسع الموحش بغيومه الصفراء الملبّدة.. قد يكون ذلك من الأهداف التي من أجلها جيء بنا.. أن ننسى من نحن! وما رسالتنا وكيف نتصرف!؟ درس واحد هنا نستوعبه هو الانضباط والطّاعة العمياء للأوامر والانقياد.. ترادفنا حسْب أمر الرقيب كما كُنّا نفعل في الابتدائي: اليدُ على كتف من أمامك، ثم في استعداد... قدَّم الرقيب السّرية للعريف بتحية عسكرية صارمة. وتراجع. ثم قدمَنا العريف للملازم الأول :"سرية! اسـ.تعد! تفضّل حضرة الملازم الأول"! وتراجع بدوره. قال الضابط المحترم المتزن:"سرية استـ.. رح! يا شباب أنتم جنود في الجيش التونسي لخدمة الوطن.. ستجدون كل الاحترام والتقدير من الكادر العسكري.. سنتعامل بحِرَفيّة ولكن سنُطبِّق القانون، المطلوب تطبيق الأوامر وتحية الكوادر التحيّة العسكرية. لا مجال للتهاون والتراخي، التدريب سيستمر سبعة أسابيع تنتهي بتحية العلم ثم التوزيع! سرية اسـ.. ت... عد! تفضل يا عريف.." انسحب الضابط واستلَمَنا العريفُ وبدأ التدريب: هرولة دائرية على امتداد الساحة لمدة نصف الساعة تهاوت فيها الأجسام الطالبية الغضّة، إذ من حين إلى آخر ينسحب أحدُنا من الطابور تعباً.. وكان الرقيب يلقِّننا أغاني

الهرولة لتشجيعنا على الجرْي... ثم كلّف أحدنا وهو مراد (...) بما يقول ونحن ننشد بعده: "أنا الجندي أنا البطل/ أنا السّبّاق للمحن/ فليبق النجم والهلال، في سماء تونس عاليا.."الحقّ أننا كنا ننتشي ونحن نتغنّى بمثل هذا وغيره الذي ضاع مني، ونشعر بقشعريرة وحماس، ونحسّ بنشوة واغتباط.. ما كنا يوما نكره الوطن! أيها السّاكن في الربوة الغناء بالضاحية الشمالية، ولن نكرهه كما تُروّج! وما كنا نتآمر عليه كما تدعي أبواق مجاريك العفنة.. نحن فقط نختلف في الحكم على الأشياء، ولا نقبل الإملاء ولا منطق القطعان تُساق حيث يريد راعيها! كُنّا نفكر ونريد أن تُحترم وجهات نظرنا... تنتهي الجولة التدريبية فيمنحنا العريف راحةً، فتتهالك الأجسام على حافة الساحة وتتكئ المرافق على أكداس الرمل الناعم، نتبادل السّجائر النادرة الوجود حتى يشترك منا الثلاثة أو الأربعة في سيجارة واحدة. نلتهم منها أنفاسا قطرانية ونتوهّم لذتها.. لم أكن مدخّنا قبل اليوم، وكنت حذرًا من آفة التدخين، حتى أنني أتأفّف من الاقتراب من مُدخّن أو محادثته... لكنّ الأمرَ تغيّر الآن، ليس لكون السيجارة حبل نجاتنا، أو هي ستسرّحنا من الجندية.. لا.. ولكنّ الاستراحة بين جولتيْ التدريب هي فُسْحة لشرب جرعة ماء والحديث والتدخين.. فكأنّ السيدةَ سيجارة في مكان كهذا وفي ظرف مثل الذي نعيشه مُكَمِّل من مكمّلات الاستراحة.. ثم بدأ الإدمان تدريجيا حتى علّقتني وعلّقتها.. كُنَّا في الاستراحات ننتقي الصداقات التي ستصبح من مقوّمات وجودنا. جلس بجانبي أنا وعلي زميلنا الحبيب (...) هو طالب الفلسفة معنا بمنوبة. وقال: بالله يا عمي س. (وكان جميع الزملاء ينادونني عمي س .لا أدري السبب، اسألوهم إذا أردتم جوابا...): ألم نَخرج من الجغرافيا بقدومنا من العاصمة قطعنا الخارطة من أقصاها إلى أدناها ومزّقناها أشلاء، وها نحن أيضا نخرج من التاريخ! قلت: وكيف؟ قال: ألم نكن نُغنّي أنا الجندي أنا البطل، للحجارة مزلزل.. وللبحار شارب.. للأفاعي صائد.. للحشيش آكل! أنا دارسُ أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وديكارت وابن رشد والفارابي، أقول هذا! إني أرى روح هيغل تتململ وتشتكي. أليس ذلك خروجا من التاريخ بل من المنطق!؟ وأنتَ ألم تدرس الأدب الجاهلي والرومنطيفي والكلاسيكي والنّقد والبنيوية والزمخشري والمتنبي وابن جني وتقول ما تقول!؟ ألم تخرج من التاريخ أيضا! أعرف أنك تتأقلم مع الأوضاع كلها.. أحسدك على قدرتك على التحمل والصبر والقبول بمثل هذا. "فقلت له أنا وعلي

مُواسِيَيْن: "يا أخ لحبيب إذا ظللتَ على التفكير بمثل هذه الطريقة الصّارمة سوف تتعب وقد تشعر بكارثيّة المفارقات، فكُفَّ عن جلد ذاتك يا رجل.. صحيحٌ أننا نعيش وضعا خاصّا ولكن لا تيأس ولا تعش هذه الازدواجية القاتلة والإحساس الهدّام، أُشفِق عليك يا أخي فارحمْ نفسك.. وما هي إلا سنةٌ سنقضّيها مهما كانت الصعوبات، ونحن في النهاية في بلادنا لم نغادر خارطة تونس، وهذا واجبنا في الخدمة الوطنية. فلننظر للأمر من هذه الزاوية، ولا نعذّب أنفسَنا بمثل هذا التفكير، هل سيجدي نفعا؟ بالتأكيد لا! وعليه فلنعتبرْ أنفسَنا في مخيّم كشفيّ طالما نحن محمِيُّون بمؤسسة تعي ما تفعل وتخشى علينا فنحن أبناؤها في النهاية.. لا عليك يا أخي ويا رفيق المغامرة، سينتهي كل شيء ذات يوم ويبقى ذكرى لذيذة لامعة في حياتك.. ونمتطي "الكميون" الأصفر ثم الأخضر ويسرح بنا في رحلة شمالية تعبق بأنفاس الحرية، لا تقلق يا رجل!

انفرجت أسارير الزميل الحبيب وقال: والله قد أحييتَ فيّ أملا دفنتُه منذُ نزلتُ بهذا المكان.. قطع علينا الحويرَ الشّجيّ صوتُ العريف ينادي: سرية اسـ... ت... عد.. للصفوف سر ! فمززْتُ ما تبقّى من عقب السيجارة بالتناوب مع حمّادي وانطلقنا نحو الصف...

استأنسنا بالمخيم والصحراء تدريجيا. ورامنا المكان بعد نفور.. فأنِستْ بنا الصحراء هي أيضا. وسكنتْنا الرغبة في التعارف نؤسِّس مجتمعنا الصغير الخاص: ولم نتّخذ "إخوانا للمِقة ولا للنفقة"، بل تلاقينا على المحبة ووحدة المصير وتحادثنا وتسامرنا، وانتظمت حياتنا الجديدة متوازنةً فكان النهار للتدريب نُتَوِّجُه بالانتشار في الصحراء نجمع الحطب، والليلُ للسّمر والمكاشفات بيننا: نتبادل الأحاديث حتى الخاصّ منها والحميم، وشدّتنا قصص البعض منا، وكانت مليئة بالصدق والغرابة... (سيأتي ذكرها).. اليوم قرّر المشرفون تطعيم الجنود بلقاح (t,a,b,) وهو ضروري لكل مجنّد جديد، فاصطففنا ونلنا ما قُدّر لنا، واشترط علينا الكادر أن نظلّ صائمين عن الطعام لمدة أربع وعشرين ساعة لضمان السلامة من المضاعفات المحتملة، قبِلنا الأمر الواقع وانتشرنا في ذلك اليوم الحارِّ بين الخيام ولكننا لم نتحمل حرارة القيظ، فالشّمس في الخيمة -لو تعلمون يا سكان القصور والبيوت المكيفة- لا يَصدُّ أشعّتها قماشُ

الخيمة بل يصفّيها فتزداد لهيبا، إنَّها تخترق السقف وتنفذ في الجسم نفاذ السّهام المسمومة، فكانت هذه الحرارة الخارجية،أما من الأجسام فلا تسل عن الفوّارة التي تكاد لشدتها أن تغلي الأجساد كالمرجل، أو تذوب كقطع البلاستيك لُعابا! فتذكرت وأنا منهكٌ أتقلّى في حمام العرق والحر المزدوج قول المتنبي متحدّثا عن الحمّى: "فرشت لها المطارف والحشايا/ فعافتها وباتت في عظامي.."! فعلا لقد كانت حُمّى قهرية تحرق العظام وتشوي الأجسام شيًّا "تكاد تسمع لها نشيجا وهي تفور"! تقلّبْتُ يمينا وشمالا دون جدوى فخرجت أبحث عن ملاذ في الصحراء يخفّف النار المتّقدة، فوقعتُ على هرم من القنوات الإسمنتيّة بجانب المخيّم أعدَّتْها وزارة الدفاع لمدّها بين منابع الماء من منطقة رجيم معتوق إلى مناطق الفردوس والمطروحة واحد والمطروحة اثنتين على مسافة حوالي العشرين كيلومترا.. المهمّ وجدت ضالّتي في تلك القنوات وقد بُنيت فوق بعضها كالهرم، كان قُطْر الواحدة منها حوالي السّبعين سنتيمترا حيث يتسع للجسم الآدمي، تحسّستها فإذا هي أهون حرارة من الخيمة، تمدّدت في إحداها فشعرت ببعض الطراوة ولطفِ هوائها رغم الشهيلي والغيوم التي تهيمن على المكان. فعُدت إلى بعض الزملاء وأشرتُ عليهم بهذا الاكتشاف العظيم فكأني "أمريغو" يكتشف العالم الجديد! فهبّ الجنود إلى المكان متثاقلين وتسلّل كلّ واحد في ماسورة كأنه قذيفة أو حَشْوة مدفع.. تسربنا في القنوات متجاورين في أدوار كما لو كنا في مقبرة مصرية يُدفن أمواتها دفنا عموديا! وجدنا في هذه" الحلاقيم" جوّا ألطف مما في الخيام. ما كنا نقوَى على الحديث أو الحركة فلا تسمع إلا أنينا متقطّعا صادرا من القنوات كأنما يسكنها الجن، أو كأنك تمرُّ بمستشفى يتوجّع مرضاه وتُعوزهم مداراة الألم.. بقينا نحترق بلا طعام. ولما اشتدت بنا المسغبة وطُوِيت البطون على مصارينها ومرّ من النهار أغلبه وبدأت الشمس تستأذن للأفول وتراخى شعاعها وهمدت نيرانها، بدأ الأموات يتقاطرون من القنوات كأنه الحشر وقد أُذِن بالنُّشور! وقفت الأجسام تتضوّر ألما من يَبَس الاسمنت الذي عضّها بالقنوات وجوعا من الطّوى.. ومازال الحظر على الطعام ساريا، ولكن الرجال على شفا الهلاك.. فقدّرت الأمر في نفسي: "أيّ الموتتَيْن أفضل: أبِالجوع ونبقى حديث الركبان أم بمضاعفات التلقيح إن خالفت التعليمات الطبية؟! معادلة أخرى من المعادلات المستعصية -والحقيقة أنّنا لم نسلم من مثل هذه المفارقات في مناسبات شتى-

المهمّ يا أخي يا قارئ حروفي- قررت الاختيار مادام الموت واحدا وإن" تعدّدت الأسباب". فذهبتُ إلى الـ" قريشة" التي نتّخذها مطبخا أبحث عن بقايا أكل من فضلات اليوم السابق وأنقِّب خلف المواعين وتحت الجريد عن فُتات خبز أو مقرونة أو سواهما ممّا لم تسرقه الذئاب والثعالب وكلاب الرعاة المجاورين أو أحمرتهم، فطالما انتهكت مملكتنا وغزت مطبخنا وظفرت بالمغانم! وجدتُ من سبقني من الزملاء يتزاحمون تزاحم القافلة الظمأى ولهم نفس الهدف. فتّشتُ مليّا لكن دون جدوى. انسحبتُ كغيري خائبا أرثي لحالي. وتحلقنا مهمومين يعتصر الجوع بطوننا ويمزّق الغِبُّ شرايين رؤوسنا حتى هجم الليل، ولم نشعلها نار سمر كالعادة بل "انخمدنا" في مراقدنا باكرا لا طعام ولا شاي مركّزا أو حتى خفيفا ولا نِكاتًا ولا قصصا طريفة ولا مُزاحا! فكانت ليلة ثقيلة ناءت على صدرونا بكلْكَلها ولم يُغمَض لنا جفن حتى كان الفجر. أفقنا على صوت جرس المنبه اليومي "... سرية! انهض... انهض... انهض...! وكان يوما من أيام لا تُنسى.....

كانت حكايتنا في الصحراء حكايات، بل قل ملحمة مركبة، متشعبة، مسترسلة، متقاطعة، متشابكة، متقاربة.. لا احتكار لبطولتها ولا انفراد أو تفرّد لراويها. إنما رَاويها طرفٌ له شرف نقلها ونسج جُدّادها ولُحْمتها وطُعْمها الذي صنعه الرجال ليس إلا... ولا فضل لي سوى تقديمِها للقارئ في نصّ أريد ألّا يحتكره راو مفرد ولا بطل أوحد.. وأول أعلام هذه الملحمة رجل من الأسود الأشاوس، وبطل لا يُضاهَى، صنعته مرتفعات الوطن القبلي ببنْية جسدية من سبائك العضلات وعملقة القامة، وزادته تدريباته على رياضة الألواح الشّراعية متانة في بناء جسم تبارك الله! لا يَحْرى بالعين الحاسدة أن تراه! وطهّرت قلبَه شواطئُ "قليبية" الناعسة من كل ضغينة، فكان نقيّ السريرة في بياض الحليب ونصاعة الثلج ولُطف الملائكة وحياء الولدان. طريفٌ أن يكون اسمه فرحات، ولك أن تشقق منه كلَّ ما يُتاح من مشتقات الفرح.. و"فرحات" أيضا رمز خالد ومزلزل في تاريخنا الحديث، بطل وطني نقابي لا مثيل لصداه ودويّ سيرته، قد تستغربُ المُشاكلة والتماثل يا صديقي: ففرحاتُنا اليوم شبيهة بما في أمسنا! وابحثوا عن التجانس وحتى السياقات! وفي قصته ما يشابه أبطال الخرافات واللقب "العدناني" والله، قد صدمتني المُواءمات كما قد تصدمكم! لقبُه نسبة إلى عدنان، أصل عرب الشمال في جزيرة

العرب، لما كنا جميعا عربا! اختزل قيما تليدة ودافع عنها وستعرفون تمظهُراتها، إنّي أكتب عن فرحات العدناني بما ترون من حماس وصدق ولا صلة بيننا لا قبلية ولا إيديولوجية ولا مناطقية. كلّ ما في الأمر أنه يوم حلَّ متأخّرا بيننا بعد عشرة أيام من وجودنا بالمطروحة واحد، كانت المفاجأة.. أنهينا تدريب الصباح والغداء، وركنّا إلى راحة القائلة كلٌّ في فراشه بالخيمة نستلّ من النصب بعضَ غفوة أو حتى ارتخاء جفون، فهذا يكفي للعسكري كي يستعيد بعض طاقة مهدورة.. توقفت العربة العسكرية فاشرأبّت الآذان ثم الأعناق تتطلع الخبر.. نزل عملاق في "كمبة" خضراء لامعة، وأشار عليه الرقيب أن ادخل الخيمةَ الوسطى.. دخل بهدوء وسلّم بأدب. تنحّى له أحد الزملاء عن السرير فجلس صامتا كالتّمثال، فتفرسنا في الوجه والملامح وعظمة خلق الله في البدن المفتول.. (ما شاء الله) فجال بنظره الساهم في الوجوه، وقال كما لو أنه يجيب عن سؤال تعثر في الحلوق: "أنا زميلكم الجديد، ألحقوني بكم". تبدّلت نظرتنا تجاه الرجل من الحذر إلى الترحيب والشفقة وشاع الخبر بين الخيمتين الأخْريَيْن، فتوافد من الزملاء من كان يقظا واكتظّت الخيمة بنا. كان الرجل شبيها بالأسد الجريح وقدِم زميلنا حافظ (.....) وكان من جهته فصرخ لما رآه: "فرحات... فرحات... ما الذي حلّ بك... ما هذا..." ؟! كان وجه فرحات متداخل السِّمات لا تُعرف ملامحه من آثار الكدمات الزرقاء والبنفسجية: عيناه مطمورتان تحت رُبى من الانتفاخ، شفتاه مفلوقتان ومشقّقتان تيبست عليهما الدماء وجفّت من ستة أيّام كان هذا ولم يُغسَل.. سألَه البعضُ عن القصّة فلم يجب. كان يداري حذرًا وخِشية ممن يراه أو يحادثه لهول ما رأى هناك.. نعم هناك... حيث تعرفون وتتخيلون لكنْ لن تتخيّلوا بالقدر الحقيقي حتى تجربوا الأوضاع المشهورة وأصناف القوارير والـ..... عذرناه وأحطنا به نُواسِيه ونشجّعه وعمد بعضنا إلى تسخين الماء وطفِقَ يكمِّد الجراح بالماء والملح. كان يتوجّع كلما لمسنا جسمه، فكشفْنا عن بدن الرجل، ويا لهول ما رأينا: الجراح وآثار القضبان والماتراك والحرق كخطوط الحراثة تيبّست حوافُّها ومازالت تنزُّ من الداخل، كانت الأخاديد تخترق الجسد المكتنز الرياضي طولا وعرضا، ولا مكان لموضع البَنان دون جرح أو كدمة! هالنا ما رأينا، اجتهدنا في بلْسَمةِ الجراح بما أتيح من موادّ، وأسعفنا الكادر العسكري بالأدوية الممكنة مشكورا..وحين أكملْنا المهمّة غيّرنا له ملابسه. ثم تركناه يستريح وقد جهّزنا له ما

يحتاج من طعام. وظلّ نائما حتى المغرب... حين أفاق وجد الجميع في انتظاره يتشوّف إلى القصة. تحلّقنا حول المجمرة الليليّة التي لا تفارق سمرنا، وتدافعت المناكب حولها واستقرّت البراريد في مواضعها، واندفع بعضنا قائلا لفرحات: "مرحبا بك بين عائلتك، نحن إخوان الصحراء ورفاق السلاح والغربة. لكنّنا رجال رغمًا عنهم وعن والديهم الـ..! لا تخْشَ شيئا والعسكريون محترفون يشتغلون بانضباط ومسؤولية. لا تخْشَ شيئا.. اِحْكِ لنا القصّة!

تردّد فرحات قليلا ثم سحب نفسا عميقا كأنَّما هو تنهّدات الأرض "تشكو أوجاعها"وقال:... كنت عائدا من الكلّية بالمركب الجامعي بتونس أيّام الاعتقالات وقد خفّت شدة المواجهات ونقُصت المصادمات بين الطلبة والبوليس البورقيبي، وحين تخطّيتُ باب كلية الحقوق في اتجاه الخارج، لمحتُ مجموعة من المدرّعات والسيارات البوليسية، بعضها متوقّف والآخر في حركة دائبة، مررت بهدوء أمامها دون مشكلة، ولكن حين ابتعدت قليلا عن المكان اعترضتْني طالبتان ترومان الدخول للكلية، فلما اقتربتا من الدورية بدأ بعضهم باستفزازهما وبالتهديد والتحرش دون سبب ظاهر على الأقل، فالزميلتان محترمتان في اللباس والحركة وليس بهما ما يدعو إلى الاستفزاز.. ولما التفتُّ حين كثُر الضجيج والصراخ، رأيت أحد الأمنيَّيْن يُمسك بالفتاة و يجرّها وزميلتُها تبكي وتصرخ وتستغيث، فتوقّفت استنكر المشهد دون كلام، فالتفتَ إليّ أحدهما وصرخ "موش عاجبك أنت؟! إيجا أتوْ نوريك حتى أنت..!" لم أفهم سبب غضبه وهيجانه في حين كان زميله يجرّ الفتاة إلى السيارة الأمنية! أغاظني المشهد وحزّ في نفسي! (لم يكن فرحات العدناني منتميا لا إلى حزب أو فكر كما يريدون الترويج...، كان شهما يروم الحرية ككلّ شباب تونس وينبذ القهر... وقتها قد جمع التاريخين: فسافر من الحديث إلى القديم.. من حشاد الحق والنخوة والوطنية والشجاعة النادرة، إلى عدنان العروبة وشهامة الفتى "وأغضّ طرفي ما بدت لي جارتي/ حتى يواري جارتي مأواها". الشرف قيمة ثابتة للعربي الأصيل لا نقاش فيه ولا مساومة، وشرف المفرد هو شرف الأمة! أليْس فرحات هذا قد أعاد للقيمة قيمتها؟! كان يستطيع أنْ يدسّ رأسه بين يديه ويمر. وكان بإمكانه أن يعتذر للظالم ويضمن سلامته الفردية! لم يكن كذلك..) رجع إلى حيث الفتاة تُستَفزُّ وتُسْحلُ في التراب، وطلب الكفَّ عن ذلك، لم يُعجب أصحابَ السلطان هذا الفضولُ فحاول أحدهم صفعه على وجهه ولكن لا

تسلْ عن يد رياضي مدرّب وصاحب حق... منع اليد وأرْغمها على التراخي... اغتاظ زميل المعتدي وأمسك بفرحات ولكن لقي نفس المصير.. فوقفا وتركا الفتاتين فهربتا داخل الحرم الجامعي، وبقي الرجلان لا يقويان على مقاومة فرحات، فتركهما باختصار على الأرض وقد نالا نصيبهما من رد فعل فرحات..! وانسلّ من الميدان فدوّت صافرات الإنذار والنجدة وتحركت القوات وأُطلقت الكلاب البوليسية ووقع تطويق فرحات وهجمت الكلاب فقاوم وقاوم حتى ضاق عليه الخناق وهدّدوه بالرصاص الحيّ إذا لم يُسلم نفسه،وأطلقوا عيارات نارية، وزادوا من التطويق وبقي يقاوم الكلاب المدرّبة حتى قَبضت عليه قوّة من نخبتهم.. وقد نال من العنف الجماعي في ميدان القبض ما شاء "الساد"، وحُمِل مقيّدا بالـ"كلبشات" في سيارة حيث تداولت عليه الأيادي والقبضات والعصي وكل أنواع العنف التي لا يتصوّرها إلا من ركب في نفس الظروف سيارة" باقا"! واستُقْبل فرحات في الداخلية... وأنتم تعرفون البقية... استضافوه أياما على كل أنواع" الطعام" و"القازوز "والدجاج الرّوتي" خاصة وأصناف السجائر. فترك كل ذلك آثاره في جسد فرحات، هو جلجامش الصحراء، سرقت منه الحية "المتشرطنة" نبتة إكسير الحياة، وها هو يبني أسوار النخل وقنوات المياه ويعمّر ريجيم معتوق بالبناء والتّشييد.. ما أعرفه أن أول مخبزة في الثكنة تتزوّد منها كل القرية قد بنتها عضلات فرحات التي أرادوا كسرها فكسرتْهم! وفرحات ككل "فراحيت" المعسكر هم ايشيل وهيكتور وأبتين خلّدوا الفعل وأحيَوْا الأرض كما لم تكن أبدا حية..) أكمل فرحات الحكاية وهو مازال متأثرا ويتألم من جراح ناضحة نشطة. وظل الرّجل إحدى أيقونات المغامرة التي عشناها وهو فخر لأسرته الكريمة ولأصدقائه ولكل من تعرّف عليه.. بل هو البطل الخالد الفعل في زمن عزّ فيه الأبطال... ولفرحات منزلة نادرة، فهو كالجوهرة لا يبخس قيمتها إلا جاهل.. وفرحات اليوم أستاذ تربية بدنية ومدرب من أعلى طراز... ولنا معه طرائف كثيرة ربما يحين وقتها...

2

... هذه الليلة انتهى سمرنا بالتندّر والمزاح حوالي منتصف الليل داخل الخيام.. لم تسمح لنا العواصف بإيقاد النيران في البطحاء، لقد كانت الصحراء في أشهُرِ الرّبيع تغيّر مزاجها،

فتستدعي من الرياح أعتاها ومن الرمال أذراها.. ركنّا إلى مخادعنا ممنّين النفس بنومة هادئة تريح الأجسام المرهقة من نصب اليوم.. دبّ الوسن في الجفون دبيبا حتى هجع الرجال في استرخاء واطمئنان. ولكن...! مع الساعة الثانية صباحا قفزْنا جميعا مذعورين في هبَّة واحدة! إنه الزلزال يا رفاق الصحراء: أصواتُ قرع على الأواني كأنّ الجبال تنهدُّ وتلفظ صخورَها تتدحرج، والرّعد يُدَوِّي فيقتلعُ القلوبَ من أقفاصها ويخلع بقايا النوم من الأجفان، وما فتئت الأصوات تدنو من الآذان فتصدّعها تصديعا! ومع الأصوات نداء تتمزّق له جدران الخيام القماشية: "انهض! انهض! سرية... انهض... نحن في خطر! العدوّ على المشارف! أسرعوا... أسرعوا..." اضطرب الجمع وامتزج الصراخ بالعويل بالاستفسار بالحيرة فلا تفهم الهمهمات ولا تميّز بين الأصوات... أطلّ الرّقيب من باب الخيمة في سِنة المذعور وبيده مصباح فوجدنا قد انتحيْنا ركنا من الخيمة وتكدّسنا يملؤنا الرُّعب كالخراف الفزعة فصرخ فينا: "الليلة ليلة خطر. علينا مغادرة المعسكر فورا، لا مجال للتباطؤ، نحن مهدَّدون.. كل ثانية تمرّ يتعاظم التهديد! أسرعوا!

- نسرع!؟ فيم نسرع...!؟

- أمامكم خمسُ دقائق، كلّ جندي يلبس بسرعة، ويحزم كلّ أمتعته بما فيها البطانيات والوسادة والحقيبة العسكرية والتجمع خارج الخيمة فورا!"

لم نستسغ الأمر ولم نفهم شيئا! لكنّك عسكري تطبّق الأوامر دون نقاش، القيادة وحدها تدرك المخاطر وتقدّر الموقف وهي المسؤولة في النهاية عن حياتنا.. عاد كل منّا إلى فراشه وبدأ في ترتيب الحِمْل الذي كُلّف به. طويْتُ البطّانيتين العسكريتين الثّقيلتين ووضعت المخدّة فوقهما ولكن كيف أحزم كل ذلك!؟ بقي الجميع في حيرة حتى أطلّ الرقيب من جديد يستحثّنا فرآنا في حيرة فصرخ: "استعملوا "الشاش" وأربطة الأحذية استعمال الحبال! أسرعوا لم يبق وقت... بسرعة... تحرك أنت.. وأنت..." أسرعنا بنزع خيوط "البرودكانات" وحزمنا الأمتعة واتخذنا الشّاش حِمالة على الظهر وفوقه الـ"الصاك ماران" بما فيه من لباس وكل ما نملك، فهو خزانتنا المتنقلة.. اصطف الجميع في الساحة لا أحد يرى الآخر لشدة الظلام والرمال المتطايرة

تُعمي الأبصار وتلسع الوجوهَ ولا مجال لاتّقائها لأن الشاش في مهمّة أُخرى! والأيادي تتلمّس من هو أمامك تهتدي به إلى الطريق... ثم أطلق العريف الإيعاز: "سرية.. اسـ.. ت... عد! است... رح... اس... تعد... إلى الأمام سر...! ". انطلقَ المسيرُ... واحد.. اثنين.. واحد... اثنين...! كان الرقباء يحفّون بالصّفيْن من الجهتين والعريف يطلق الإيعاز: واحد... اثنين... في حين امتطى الملازم سيارة الجيب الصّحراوية تقفز من كثيب إلى آخر حتى ذاب ضوؤها وابتلعها الظلام.. أما نحن فكانت ظهورُنا تنوء بما حملناه فنمشي متثاقلين والعيون استولى عليها الغبار العاصف فاحتلّ المحاجرَ والأحداق وتسرب إلى المناخر والحلوق فإذا به "يتقزقز" في الأفواه تحت الأضراس. لا طريق ولا مسلك. نطأ الصحراء البِكر ونقفزُ على شجيرات "الشعّال والزيتة" والأعشاب الصّحراوية الشّوكية فتدمى السوق وتتأذى الأرجل.. لا نهتدي إلى السبيل ونمشي بلا دليل، فكان كلّ منّا يُمسك بحزام من يتقدّمه. ومن حين إلى آخر يتعثّر في حذائه فيتوجع هذا ويتذمّر ذاك.. نتقدّم ببطء خوف وقوع الأجسام على الأجسام أمامها. فكانت الصحراء تتلاعب بخطوِنا فترفعُنا إلى كثيب وتخفضنا إلى وهْدَة والعاصفة الرملية لا تتوَانى تُصفّرُ فتصكُّ الآذان صكًّا وغبارها يصفع الوجوه العارية صفعا. ما كان على الرؤوس المقرّعة سوى القبعة العسكرية وهي لا تقينا "قرصات" البرد ولا رشّ الرمل المتطاير كالسّهام. بدأتْ الظّهور ترزح تحت الأحمال الثقيلة والأجسام تترنّح والخطوات تتثنى وتتلوّى وشرّفَنا سيادةُ العرَق في عزِّ البرد ينضح كماء الأحساء ثم يتجمّع وينزل ممزوجا بالأنين والتأوهات... "المارشة العسكرية" مازالت متواصلة. علينا الاحتمال ولا أحد يسأل المشرفين عن شيء. عيب عليك أيها العسكري المدرب والمقاتل الصحراوي الأشوس أن تتذمّر وتسأل! تحمل.. وتحمل.. وتحمل..! كيف ستقاوم في حال الحرب إذا لم تتحمّل اليوم!؟ هذا تدريب من ضمن التدريبات، تحفَّزْ لكل طارئ.. كُنَّا نسير ونلهث ونتلمّظ طعم الرمل في الأفواه كما لم نتذوّقه من قبل! رفع مراد عقيرته بالإنشاد: un kilomètre a pied , ca use les souliers... / deux kilomètres... .../ 3 kil... كان صوتُ مراد شجيا يتمزّق له صمت الصحراء من حولنا.. فكنّا كقافلة الإبل يهزّها الحِداء فتشنِّف سمعَها وتسرع "الإرقال". كان ذلك دأبَنا حتى قطعنا المسافة المطلوبة. أربعة كيلومترات بالتمام. هكذا هو التدريب! تراءى لنا عن بُعد سنا نار تحجُبه الكثبان وشُجيْرات الصحراء، ثم مافتئ يتَّضح

ويتجلّى. إنه خطّ الوصول.. تسارعت الخُطى رغم نفاد الأنفاس حتى ارتمت الأجسام المنهكة بأحمالها وتساقط الرجال حول الموقد مصدر الضّوء الذي اهتدينا به. وجدْنا الملازم في الانتظار فابتسم لنا كالمشفِق ثم قال: "إنها ليلة الفزع.. وهي من التدريبات العسكرية.. أشكر جهدكم وتحملكم! " لم نكن على تمام الوعي بما يقول وانشغل كل منَّا يَفُكُّ قيودَه من الحِمل الثَّقيل الذي كبَّله طيلة "المرشّة"العسكرية ثم توسَّد كلُّ جنديّ حقيبته وأهدى بدنه للأقدار. فامتصّه نوم ثقيل لكنه في مذاق الشهد. فلم نصْحُ إلا وأشعة الشمس قد بدأت تجتاحُ الوجوه العارية وتنشر علينا لفحها الوهّاج. وإذا صوت العريف يدوّي من جديد: سرية! انهض... انهض... فكانت ليلة تبعتها ليالٍ أغربُ منها...

... لقد تمخّض الزّمن عن حادثة ما خطرت على الإنسان لا في غابر الدهور ولا في حاضر العصور... الليلة، أسعفنا الفضاء بضوء ساطع ككُبّة النهار الوقّادة، فقد اكتمل البدر واستدار، والنّسائم تترقرق كالعبير.. كانت الطبيعة متعاطفةً مع الحدث رغم جحود الإنسان. جلسنا في حلقة حول نارنا المُؤنسة لوحشتنا في فيافي المحنة، وتدبّرنا أمر عشاء فاخر وتكرّم علينا محمّد مشرف المطبخ بخبزة "قاطو" منزلية تغري المحرومين. يقتضي الحدث منّا كل الاهتمام هذه الليلة: فمنصور الجربي -المحامي اليوم بالتعقيب- رجل استثنائيّ، فهو صمّام المجموعة برقَّة مشاعره وحكمته وتوازنه وقدرته على التوفيق بين المختلفين وحلّ كل ما يستعصي من الأمور. كان منذ المساء يسير شاردا كأنه يحمل أثقال الأرض.. سألناه عن السّبب لكنه كان في هدوء الطود وشموخ الذُّرى. لم يبُحْ بما في المكنون من متأجّج المشاعر وغريب المفارقات. وتحت إلحاحِنا قال بغُصّة: "اليوم هو يوم مراسم خطوبتي في أعلى نقطة بالخارطة بشمالها البحري بـ"رأس الجبل"، وبأقصى شرقها البحري: بالـ"شّابّة"! وأنا بأقصى جنوبها الغربي: "المطروحة واحد" ! هل لعلماء الدّنيا في كل التخصّصات أنْ يحلّوا هذه المعادلة!؟ هل جاد التاريخ الإنساني بمثل هذا الإجرام!؟ لكن المسؤولين لم يسمحوا لي بترخيص لحضورها، رغم أنّني قدّمت استرخاصا فرُفِض، وقد سبق أن حدّدنا موعد الخطوبة من مُدّة طويلة ولنا التزامات مع مختلف الأطراف، ولا يمكن تأجيل الموضوع! كان منصور يكتُم غُصّة كما تكتم البحار أصدافها والمحار. لم يُشعِرنا بالضّيق ونحن نصرّ على السؤال وننبُش في صندوق

الأسرار! صعبٌ أن نجد من اللّغة وفيها ما يواسيه ويخمد ناره والشعور بالحقد على أولئك الـ..... ولكنّنا حاولنا له التعويض بما يسمح من ذات اليد ونحن معزولون عن العالم. كان السّؤال الذي يحرِقنا هو كيف يمكننا التّعويض لمنصور ولا نحسِّسه بالفراغ؟ ما المطلوب من طلبة في محتشَدٍ ناءٍ مغمور حتى يساعدوا في تخفيف الحُرقة! منذ المساء استعددنا جميعا لتجهيز مراسم الاحتفال وضرورات السهرة: مزيد من الشّاي على غير العادة، بعض المكسّرات والعصائر من القرية المجاورة... تناولنا ما طاب وحان وقت المرطبات "الدّياري"، من يشارك في قطع الكعكة ونحن لا نرى من الخطيبين سوى منصور؟ نفذ الحقد والخيبة إلى صدورنا وتساءلنا: "متى كانت مراسم الخطوبة تتمّ بين من يفصل بينهما سبع مائة ميل؟ في أي شريعة سماوية أو وضعية أو وثنية أو حتى نازية ينفصل قلبان بهذه البشاعة بحكم السلطان القاهر؟! هل في الوجود قوة عادلة توقف المهزلة!"حزّ في أنفسنا المشهد وطأطأنا الرؤوس وذرفنا الدّموع، فدارى من دارى وشهق بالغصّة من شهق. والتفت للخلف من خجل افتضاح دمعه. ولكنْ تحمّلنا وكأنّنا بالصبر نتحدّى من حرم صديقنا فرحة العمر، ومزّق وصال قلبين غضّين! تصوّروا! إنها الفرحة التي لا تتكرر! عيشوا اللحظة لتحسّوا عمق الجرح.. وتصوّروا معنا درجة الإحراج التي تشعر بها العائلتان!؟ لما تهمِزُ الحاضرات ويلْمزُ الحاضرون ويكثرُ الهمس والتأويل والتهويل:

ــ أين العريس!؟

ــ يقال إنه مجنَّد...

ــ لا... لا.. سمعت أنه في الحبس...

ــ ربّما!

ــ فلماذا توافق العروس وأهلها إذن!؟

ــ هههه. لا ندري!

يا لله كم من قصص تُختلق واحتمالات تلفّق! ولا تسل عن الخبر يسري في القرية ودكاكينها ومقاهيها وحماماتها وحجّاماتها! رأيْنا حجم الإحراج! وتصوّروا الفرحة المنقوصة التي تعيشها أم منصور، هل ستزغرد بطلاقة المنتشية بخطوبة ابنها، أم ستغصّ بالعبرة ويتلاشى صوت الزغرودة في حلقها!؟ وماذا عن الخطيبة؟ هل ستشعر بنفس الشعور لو كان منصور هناك؟ كيف ستتفاعل مع الحاضرات؟ كيف سيكون قلبها وهو يُعتصر حرقة وانكسارا؟ هذا دون تفاصيل المشاعر! (إنك لا تتصور أيها القارئ نفس الشعور الذي عاشه منصور، وأنا وقتها قطعةٌ منه تطفّلت على قلبه فتسرّبت إلى وجدانه وعشتُ ما لم تعشه أنت فلا تبسّط الصورة !) عمد منصور إلى اقتطاع الكعكة فصفّقنا كما لم نصفّق في أي مناسبة ونحن الذين لا نصفّق في الأصل. لكن! أين العروس حتى يبادلَها صديقنا قطعة المرطبات؟ لا عليك إنها هي أيضا تتحرّق شوقا وتعيش نفس المأساة بل أكثر.. هنأنا العريس الأوحد ونحن نتصنّع الرضى ولكن نعيش الفرح بصدقِ الأشقّاء. وانطلقنا نُغنّي لمنصور ولأنفسنا وللماضي وحاضرنا.. غنّينا ما نحفظ: للأزهر الضاوي: (يا شهيد الخبزة رجعت.. يا شهيد الخبزة ثور... طالعة من قبرك وردة.. تنادي الشعب يجيك يزور...) واستحضرنا مشهد البطش ورصاص البوليس يخترق أجساد المناضلين.. لمعتْ صورة الشهيد الفاضل ساسي مضرّجة بالدماء في الشارع الرمز: (فاضل يا نوّار اللوزة، فاتح في غريق القرّات/ الفاضل معزوم على قفصة نادوه جبال الفسفاط../ شعاع النور في ليلة دمسة، سِربة في حلق البايات...). نعم البايات لمن لا يعرف جرم البايات؟! غنّينا "البسيسة"مع البحث الموسيقي ولخّصنا حالنا وبكينا وشرقنا بالدمع وتهدجت الأصوات للحال: (خوذ البسيسة والتّمر يا مضنوني،، وألفين عشرينات توّا جوني...) نعم كان"العمدة يجري بين يديه أوراق، ("وينه ولدك هاتو هولي متهومْ بحُبه لبلاده..."). آه يا زمن! حبّ الوطن جرم لمن صدق! واغتصاب الوطن مجد لمن سرق! تراءت لنا المفارقات العجيبة! غنينا: (يوم استشهادي يا أمي ما تبكيشي عليَّ، ولا تهدِّي لخدود يا أمي)." تذكرنا شهداء الخبز والكرامة وازددنا احتراقا. غنّينا: (مشايخ دوارنا فيهم الفكر يحير دزّونا في بير/ لا ربحنا في عقابهم لا فيهم خير/ مشايخ دوّارنا ما عندهمش إحساس/ كبسوا علينا الكبسة رمونا في لحْباس/ عملوا معانا المنكر عملوا شي كثير....."). هؤلاء حكام بلادنا يتربعون على صدورنا

ويشربون "بجماجم أبناء البقعة" كما قال مظفر... غنينا لمرسال: (أنا يا رفاق من الجنوب...) وفهمنا معنى الجنوب! تذكرنا طائرات المستعمر يلعلعُ رشّاشها وتدوّي قنابلها في جنوب العزة بتواطُؤ مع المتواطئين على من أسموْهم زورا وكذبا ب"الفلّاقة"! غنينا لحالنا وللإسلاميين في الثمانينات واليسار في السبعينات والقوميين واليوسفيين في الستينات والخمسينات... غنّينا لحشّاد وكل الأحرار... حضر الحفلة كل من الشيخ إمام: (شيد قصورك عالمزارع من كدنا وعمل ايدينا/ والخمارات جنب المصانع، والسجن مطرح الجنينة/ .. عمال وفلاحين وطلبة دقت ساعتنا وابتدينا.. نسلك طريق مالُهْش راجع.... والنّصر قرب من عينينا...) إلى مارسيل: (منتصب القامة أمشي... مرفوع الهامة أمشي/ في كفي قصفة زيتون وعلى كتفي نعشي وأنا أمشي وأنا أمشي...) وأهدينا ما غنينا إلى كل من قال لا... أين نحن من احتفال خطوبة من المفترض أن تكون بين أحضان العائلة!؟ اسمحوا لي أن أكرّر السّؤال: (هل سمعتم بهذا في أي عصر أو مصر! ؟). براعةُ سلطتنا تتفنّن في وسائل القهر والتدمير النفسي ولكن في النهاية تمّتْ الخِطْبة في مواضع ثلاثة من البلاد! وتمّت كذلك في الزمان لأنّها استثناء من استثناءات الدهر دون مبالغة! وفي هذا أعجب العجب! بعد أيام تلقّى منصور طردا بريديا أرسلته عائلته وعائلة أصهاره الكريمتان، كان به نصيبُنا ممّا غاب عنه منصور من حلويات و"دراجي" وحتى سجائر فاخرة... تذوّقناها بفخار وظللنا في كمَد ممّا وقع ولكن لم يخمد رماد هبّتنا "حذار فتحت الرماد اللهيب...! انتبهنا إلى لهيب جوانحنا حنَقا ولهيب موقدنا كاد يخمد فالساعة قد تأخرت وقاربنا الفجر.. فانطلقنا إلى المراقد بين النشوة والتحسر...

3

... كان الومد يخنق المجندين وهم يستحثون الزمن حتى تنتهي الحصة الصّباحية. الشمس تطعن الرؤوس بنار سهامها وتمتص الأجساد بلعابها فتسيل عرقا. اللهاث يصّاعد والحلوق تجفّ. ما أحوج هذه الحلوق المتورمة لرشفة ماء تطفئ لظاها. اليوم تجاوزنا الشهر هنا ولا أمل في الخروج أو العفو أو التفاوض. والحال أن زملاءنا وما يُسمّى باتحادات الطلبة لا يعنيهم كثيرا ما نعاني. (وقد كنّا السّلّم الذي صعد عليه القادة المفوّهون ثمّ رُمينا رمي المحراث

الخردة). كانت لهم حساباتهم الخاصة. الله يعينهم... فجأة توقفت سيارة الجيب العسكرية في ساحة المخيم.. نزل الملازم الأسمر بملامحه الصّارمة فأوعز لنا العريف: "سرية اسـ.. ت... عد.." وحيّى الملازمَ وانسحب... قال الملازم "اليوم، وقع الترخيص لبعض الأهالي بزيارتكم. وسأعلن عن الأسماء بعد الغداء. "أحسّ الجميعُ كأن غشاوة من العين قد تلاشت وهبطْنا نتعانق كما لو أنّا حققنا حلم الأحلام. شهر في المعسكر وقبلَه أربعة منذ عطلة الشتاء لم نر الأهل ولا تضوّع في خياشيمنا مسك العائلة. كنا لا نعود إلى بلداتنا إلا نادرا، والأسباب معروفة لمن طوّحت به المسافات بين الموطن والكلية. تحلّقنا في مجموعات وطفقنا نتوقع ونُؤَوِّل ونخمّن عن المحظوظين منا..! من ستبتسم له السماء ويغنم زيارة من قريب يحتضنه ويملأ رئتيه من نفح حُرِم منه مدة طويلة!؟ كان الانتظار أحرّ من لظى النار وأرسى من الجبال. دُعينا إلى الغداء فتثاقلنا وما بنا رغبة. كنّا نعيش لحظة القفز بين أحضان من ينتظر هناك في القرية على بُعد عشرة كيلومترات قبل الأوان.. عشنا التلاقي وما التقينا ! خرج الملازم من غرفته فتهيأت الآذان وتمطّطت الأعناق كقطع الرجاء ليلة تنفيذ الإعدام! ودارت الحدقات في المحاجر تتساءل في صمت وأمنية: "ليتني أكون من المعنيين.. "! نادى الملازم، فكنت ضمن أربعة جنود! لم أصدّق ما سمعت.. قفزنا بسرعة ودون وعْي. ركبنا صندوق السيارة ولا بأس! المهمّ أن نصل.. انطلقت بنا ونحن نستقطر المسافة استقطارا رغم قربها! أخيرا سنرى أحد أفراد الأسرة. أخيرا قد علموا أين نحن! كنا على امتداد شهر وبضع الشهر نعيش همّين: همّنا الذاتي بكل تفاصيله الموجعة ونحن نتعالى على الجراح وندوس الآلام، وهمَّ أهالينا لا يعلمون أي أرض ابتلعتنا فُتاتا أو سماء امتصّتنا بخارا... وصلت السيارة فقفزنا قبل أن تتوقف.. اتّجه كل منّا إلى أهله. هاهو أبي أخيرا مغبرّ الوجه كمدا، يابس الملامح والريق. يبدو أنه ما اكتحل بنوم من مدة. ارتميت في حضنه أتمرغ بين ذراعيه وصدره ولم أشأ عنه الانفصال، لقد شدتني جاذبية غريبة إليه. سلّمتُ على قريبيّ المرافقَيْن.. التفتَ كلّ منا إلى الخلف بين نشيج مكتوم وشهقات مفضوحة... كتمت دموعي وحاصرتها. لم أرغب في فضح انهياري.. خشيت أن أبدوَ في عيونهم ضعيفا ونادما عمَّ حدث. أتقنتُ لعبة المكابرة أيّما إتقان! ورغم هذا رأيت في عيونهم نظرة شفقة وعتاب: شفقة على حالي المزري، طالب في لباس اخضر مقرَّع الرأس متورّم العينين جافّ البشرة يُطلّ عليهم

في صندوق سيارة خلفي كالبضاعة وفقد إمكانية العودة إلى الدراسة، فقد أضاعها وتبخر معها مستقبل العائلة، طالب مهدَّدٌ بالملاحقة حتى بعد السّراح من الجندية.. كلّ مصائب الدنيا تجمعت في نظرة الإشفاق المُذِلة والماكرة تلك. وعتاب على تطاولي على محظور السياسة والسياسيين والتفكير وحرية الاختيار والسلطة. خاصة أن الوالد عاش مدة نصف شهر حين علم بأمري بين تقريع العمدة وأعيان الشُّعب الدستورية واتهاماتهم المبطنة لي وحتى له، والبحث المضني عن خيط يدلّ على مكاني وتلك قصة أخرى لا يصدق تفاصيلها عاقل (...)! سألت عن أحوال العائلة والأقارب وكيفية الوصول.. أخبروني بمشقّة الطريق بإيجاز وبأنهم محظوظون حين علموا بضرورة الحصول على ترخيص من والي قبلي شرطًا للزيارة! فنحن ممنوعون منها إلا بالترخيص من السلطات السياسية والأمنية. نحن جنود "حصة خاصة"! نمثل خطرا على الدولة والشعب! نحن مجرمون في معتقل تأديب! نحن محلّ شبهة: لا أحد يتعامل معنا ولا يشفق ولا حتى يزورنا.. إننا محاصَرون حصار قريش بحكم صحيفة المقاطعة لبني هاشم! ولا مجال للتساهل معنا كبقية الجند حتى مشاعرُنا يجب أن تُعاقَب! وهل نملك مشاعر أصلا!؟ مع العلم أننا لم نحصل إلاَّ على رخصة واحدة طيلة 410 أيام أما بقية الزائرين فإن بعضهم لم يحصل على الترخيص فاضطر إلى العودة إلى قبلي لتسوية الأمر فكانت الرحلة مضاعفة ومكرّرة في الصحراء الملتهبة في عزّ شهر ماي ومن لم يجرّب ذلك فهو غير ملوم! كان اللقاء سريعا خاطفا لم يتجاوز ربع الساعة. كأنما استرقناه من الزمن. هكذا تُدار الأمور ولا مجال للنقاش! لم نشبع حتّى من النظر في الوجوه فما بالك بإطفاء نار الشوق... المهم أننا أحياء كما قال أبي لأنهم توقعواالأسوأ! لاشكّ في أننا برّدنا بعض لهيب النار في جوانح أهلنا. أما نحن فلنتحمل مسؤولياتنا وبالصبر سنفتّت كل أسلحتهم. ودّعنا الزوّار وامتطينا السيارة وانطلقت ونحن نلتفت خلفنا كأنما تركنا قلوبنا معلَّقةً هناك وكنا نكتم دموعا انفجرت حين غبنا في الفيافي يسلمنا كثيب إلى كثيب...

كانت لنا سبعةُ رؤوس من الخرفان والجديان يزوّدنا بها الفوج كل أسبوع مع شحنة المؤونة. كنّا مستقلين في طبخنا وحياتنا معزولين عن بقية الجنود في الثكنة الرئيسية المجاور ونحن ممنوعون من الاحتكاك مع الآخرين! كنا أثناء التدريب مرجع نظر للفوج الترابي الصحراوي الثاني برمادة ولا علاقة لنا بفوج إحياء الصحراء برجيم معتوق إلا بعد تعييننا فيه إثر تحية العلم تتويجا للتدريب. نشعر أن عالمنا ضيّق إلى حدّ الاختناق. لا حركةَ خارج الخُطوط المحددة. كان شهر رمضان الأول صادف مدة التدريب بما فيها من معاناة متنوّعة الوجوه. عادة ما نُخصّص كل يوم خروفا أو جَدْيا لوجبة الإفطار، فيتفنّن محمد مشرف المطبخ في الطهي ويبالغ في"التصنيف" بين كسكسي ومقرونة بالتناوب وكفتة فول شهية.. كان الهدف فقط هو هزم الجوع ذلك العدوّ المتربص على التخوم.. والجوع في الصحراء كافر وشديد البطش بالبطون ولكننا في غاية الرضى والابتهاج مادام اللّحم يشمّه الرجال المائة في المعسكر شمّا حين يتراقص البُخار عاليا فيداعِب شهوة البطن فتنهار! أمّا الأكل فنستغني عنه بمرق مأدوم برائحة سيد الطعام! وهذا كاف في ظل وضعنا. فكنا إذا حضر الطعام نستعد استعداد من برّح به الشوق لحبيب، ومن أثاره استكشاف غريب، "فتتلمظ الشفاه وتتحلّب الأفواه وتسافر العيون" وتزقزق عصافير البطون، رغم أن العشاء مستنسَخ من أخيه الغداء! كان الجند ينشغلون بتقسيم مهام المخيم بين واجب احتطاب من الصحراء، وواجب ماء، وواجب تنظيف، وواجب إزاحة الرمال، وواجب صيد الأفاعي خوفا على المعسكر وواجب حراسة وغيرها... أما الخرفان فيكلّف بها من لا يرغب في بقية الواجبات أو لا يقْدر لسبب من الأسباب على عمل مضنٍ.. يومها، كان الدكتور علي الغيلوفي يتألم من أوجاع برجله فتكفّل بحراسة الخرفان واصطحابها للصحراء... كانت هذه المساكين كل يوم تفقد أحدها فترى البقية وكأنها تشكو حالها للمطلق حين تسير مسرعة في غدوها وتتثاقل في رواحها إلى المعسكر! فلا ترى في أعينها طمأنينة راسخة كأبقار الشحاذ في الرواية المعروفة! وتقرأ بها أسئلة حائرة: لماذا ينقُص منها كل يوم أحدها؟! من يهدد مجتمعها الصغير المتوائم غير الإنسان صاحب الرأس المدوّر ومنبع الشر!؟ هل لها أن تفرّ من المصير المحتوم!؟ ولا تؤكل يوم أُكل "الثور الأبيض" في القصة الشهيرة!؟ من أين لخراف مقطوعة عن قطيعها أن تتمرد على سائقها حيث يريد!؟ وحالنا

كحالها نتملْمل في مضاربنا ولا نخطو خطوة إلى الأمام! هي ضحايانا ونحن ضحايا غيرنا. لعلّها تنتهز غفلةً من سائقها وتغير الوجهة! أليس العالم كله خرافا تُساق إلى حيث شاء راعيها!؟ ولكنّ بعض الخراف تحتجّ وتستنكر والسواد الأعظم يرعى بهدوء أو يعتلف في مخلاّته وينشّ الذباب بذيله في الإسطبل الفسيح.. تصوّرتُ خرافنا في مسيرة احتجاجية ترفض الذبح.. فكيف سنعالج الأمر؟ نكتة سخيفة.. (أليس كذلك أيها الممسك بالأوراق الآن وهنا؟).. أوغل عليّ بالخراف في الصحراء حتى اختفى عنا، وغرّب في اتجاه الحدود الجزائرية، وكانت الصحراء بامتدادها قد أغرته بنعومة رمالها وتوفر الكلإ وارتفاع شُجيرات"الشعال" و"الزيتة"الكثة الأوراق والوارفة الظلال... وأغواه انشراح الخرفان بالعشب الغضّ، فاتكأ إلى ظل إحدى الشجيرات يتأمل ما حوله من امتداد وخضرة تطرّز صفرة الرمال الذهبية. استند إلى مرفقه وسرعان ما دبّ النعاس في جفونه فسحبه الإله "إبنوز" إلى عالمه السحري المريح. فغرق السيد عليّ ولم يطْفُ. وله عذره فالرجل كان مرهقا جدا.. في الأثناء كانت الخرفان تمارس حقها البيولوجي في البقاء وحفظ النوع : فبدأت تختلس المسافة وتتقدم الهوينى وتبتعد عن المكان كاسرة قيودها تائقة للتحرّر ، وإذا بها ترى قطيعا عن بعد فتتبادل الثغاء، ويتجاوب القليل مع الكثير بشوق المفرد للجمع.. وتنضم خرفاننا إلى قطيع الرجل، وتسير معه دون أن يتفطّن إليها. ولمّا غرُبت الشمس أفاق عليٌّ على لسعات برد اللاّذعة وعواء ذئب "قليل الغنى" "متسكع في مملكته الصحراوية" كالخليع المعيل" ولكنه حرٌّ على الأقلّ . وبحث عليّ عن الخرفان فلم يجدها، وداهمه الظلام وخشي الضياع في بحر الرمال والعتمة الزاحفة، فبدأ يتحسس الاتجاه إلى المخيم حتى أنِس نارنا الليلية تلتهب فاهتدى بها ووصل دون الخرفان. فتأثرنا لضياعها لأنّنا لن نظفر بأخرى إلا في الأسبوع اللاحق، ونحن أضعناها جميعا وقد وصلت ليومها... لم نُظهر الجزع حقيقةً ولا حتّى الملازم، ولكنّ عقابَنا أن نبقى بلا لحم على امتداد أسبوع. ومعنى هذا أن نُحرَمَ من شذا اللحم يدغدغ الأنوف. فسلمنا أمرنا لله. وبعد يومين اقترح البعض أن نجمع المال كلٌّ حسب إمكانه ونشتري من أحد الرعاة ما نذبح بقية الأسبوع، فاشترينا سبعة جديدة مما خزّناه من نقود معدودات للطوارئ. ونشرنا الخبر بين الرعاة المجاورين والغرباء المارّين وكل من نلاقيه حتى نُبّئنا بأنّ الخرفان عند أحد الرعاة غربا،

فانطلقت مجموعة عسكرية بالشاحنة "الأونيموق" لكنها توغلت في الحدود الجزائرية وغرقت في الرمال الناعمة، ولم ينْج الجماعة إلا بشقّ الأنفس حيث كانوا يقتلعون الأشجار ويضعونها تحت الدّواليب، ويبعدون الرمال بأيديهم العزلاء ويدفعون الشاحنة حتى أضناهم الإرهاق. ولم ينجحوا في الإفلات من الرمل إلا بعد عناء.. وعادوا بأخفافهم تحت آباطهم. وبعد يومين آخرين اتصل بنا أحد الرُّعاة وسأل إن كنا قد أضعنا خرافا؟ ثم أتى بها واعتذر لأنّه لم يتفطن إليها منذ البداية. فأصبح لدينا ضعف نصيبنا الأسبوعيّ منها. وهكذا صرنا نذبح خروفين بدلَ ذبح واحدٍ فقط وعوضنا حرمان أيّام من طيب رائحة اللحم وحتى الأكل.....

-5.

... الليلة هي ليلة عيد الفطر في المعسكر..(أسألك يا صديقي هل عيّدت مرة خارج حضن العائلة ودفئها؟ إن لم تفعل فتذوق معي طعم عيد الفطر في الصحراء).. أنهينا شهر رمضان كلٌّ حسب ما أتيح له...! اجتمع بعضنا في المطبخ الذي نسمّيه "قريشة" يرافق محمّدا في طهي" الكفتة" العجيبة وهي من مفاجآت الاحتفال! أما البقية فقد تحلقنا كالعادة حول النيران على أنغام البراريد المتنوعة.. كنا نتسامر بأحاديث حفظنا أغلبها من بعضنا بعضًا! لكن اليوم سيكون الحديث مختلفا. فغدا العيد بقرار اليومية المعلقة في الجدار، لا رؤية ولا هلال! لماذا نضيع الوقت في معاينة الهلال؟ كل شيء منظم ويسير وفق مقادير قدرها من شاء لنا أن نكون هنا! المهم سال الحديث بيننا كسلسبيل في بستان. هو مزيج من الحنين والحسرة على العيد بين الأهل.. تذكّر كل منا كيفية قضاء العيد في العائلة: في المدينة تنشغل الأم بتجهيز أطباق الحلويات وقد هلّت من المخبزة للأقارب وتطبخ ما أرادت من لذائذ السهرة، والأب يحضر حلقة الذكر مع الأصحاب ورجال الحيّ أو القرية ثم يتسامر الجميع في ابتهاج بليلة العيد وانتظار الصباح.. أما في الريف فالأمر مختلف حيث لا حلويات مسبقة ولا مخبزة، بل الليلة لتلطيخ أيادي النسوة والبنات وصغار الأطفال بالحنّاء، وأكل ما كُتب من طعام الإفطار ونوم الصغار بلباسهم الجديد فرحا بالمناسبة قبل الأوان! كنا نتناوب الأحاديث ونستمع ومع كل صورة من أسرنا تتمزّق أفئدتنا وتتلاشى معها أحلام بنيناها من شقاء سنوات دراستنا.. سهرة بلا طعم ولا

رائحة كالعلكة البلاستيكية الـ"الماسطة" فقدت غشاءها من الحلوى منذ يومين! ها أننا أصبحنا وأصبح الملك لله.. تململنا في مراقدنا وما سمعنا لا أذان ولا تهجد أو أذكار ! تمطينا بلا رغبة في الانقلاع من الفراش ولكن غائلة الجوع والغبّ على القهوة والدخان كانت أقوى على المقاومة.. انتحيت جانبا من المطبخ وأعددت قهوتي سوداء لا بياض حقيقي ولا استعاري. وكذا فعل كل من أفاق.. اصطحبت القهوة وأشعلت ما يؤدّمها من ملوثات الحناجر والصدور، ونفثته يتلوى في الفضاء.. جلستُ على الكثيب المشرف على صفّ الخيام.. أرمق الزمن يعبر أمامي بطيئا كدبيب السلحفاة ماكرا كالثعلب.. ورأيت أعيادا مرت علينا مرّ السحاب في عز العاصفة... هل أقول "بأية حال عدت يا عيد؟!" لعل الحال من بعضه! وكلّ سجن له قضبانه وله سجّانه! تأملتُ امتداد الفلاة وفوقها تصطف الخيام الثلاث، فمنّيت النفس لو يستحيل الرمل تحتها لُجًّا ذا أمواج! فهمست للخيام: "أيتها الفُلك الكسولة، أمَا آن لك أن تنصبي الأشرعة وتتملْملي من رقادك الطويل وتزيحي غبار السهاد، وتندفعي تمخرين العباب فقد برّح بنا شوق الأحباب... انظري إلى النوارس البحرية الصحراوية تجدف أجنحتها وتجوب سماءك في حركات دائرية موزونة ترافقك مع الرياح السبّاحة! وأنت أيتها العصائب البيضاء من السحب الشاهقة الشفافة، هل لك أن تخفضي من غرورك وعنادك وتنزلي حتى نمتطي أجنحة ضياءك فلنا هناك من ينتظر كلمات ("عيدكم مبروك، كل عام وأنتم بخير، يحييك لأمثالو...").. من لتحية العيد غيركم يا اتجاهات خارطة الأرض المنسيّة!؟ جُمعنا من كل الثنايا فإذا بنا (جنوب الآن "يحن إلى الشمال") لكنه الحنين المضمّخ "بمَهْبَة" العيد نأخذها صغارا ممن نعيِّد عليه، واللباس الجديد نتفاخر بألوانه وأشكاله وحتى بالأزرار... وللبنات احمرار الحناء بعد ليلة من القيود يتضوّع منها التباهي بالأنوثة والانتظار.. العيد هناك مهما كان بسيطا وفقيرا وساذجا وزاهدا من تخمة الأكل وأنواع الحلويات ألذّ وأمتع: عصيدة الفرينة البيضاء والفطائر المنزلية كنز موسمي لا نراها إلا في عيد الفطر، وتراتيل الصباح والأذكار في المآذن أو حتى المذياع بلسم جراح الغرباء عن عشّ العائلة... كل شيء تبخّر الآن وهنا! وهذه المراكب تزداد كسلا وفي الرمال انغراسا وتلك السحائب لا تغادر قلب السماء وهي ترمقني بنظرات شامتة دون حياء، وهذه الغربان ليست نوارس إنها تتقاتل على جيفة بأعلى الكثيب المجاور! و رفاق الصحراء قد

انتشروا في الفلاة، فلا ترى سوى رؤوسهم بين ذُرى شجيرات الصحراء يكظمون الغيظ ويحبسون دموعا حرّى! بدلَ الاجتماع كنا نتفرق.. أراهم كما رأيتُني، ألتفِتُ إلى الخلاء وأتظاهر بالصبر والكبر، ولكن بالقلب تتّقد شهب من لظى.. صحيح أننا أفقنا في الصباح على غير العادة نأمل في أن نشتمّ نفحات العيد ونرصد ملامحه فينا، لكنّنا واهمون! أحسن شعور به استقبلنا هذا اليوم هو إحساس "الحُقرة" والهوان. لقد تمكّن كل الجنود العاديين من رخصة العيد بالتناوب قبله وبعده وكذلك الضبّاط وضبّاط الصف، أما نحن فليس من حقنا! لأننا لسنا من عداد البشر وذوي المشاعر ! وأظن أنّ كل حيوان في الأرض له شعور الأمومة والأبوّة وحنين الابن والقريب إلا نحن.. ثم نحن معاقبون من أجل جريمة خطيرة: مظاهرات واحتجاج على زيارة جورج بوش للزعيم يستأذنه لاختراق المجال الجوي... آثار المظاهرات ألهَثتْ كلاب البوليس تطاردنا وأفرغت الخزينة من القنابل المسيلة للدموع، وهذه خسارة للدولة العتيدة! هههه... علينا دفع الثمن... صحيح أن الإعلام الكلب وقتها ذكر في النشرة: "وخرجت مظاهرات طلابية حاشدة احتفاء واحتفالا بزيارة نائب الرئيس الأمريكي الصديق للمجاهد الأكبر و... رغم التزوير قبضوا على من أرادوا.. فلماذا الاعتقال مادام التظاهر للاستقبال؟! وعليه يجب أن يكون التدمير النفسي والروحي والجسدي وحتى الأخلاقي من الأسلحة المناسبة لتأديبنا وإعادتنا إلى بيت الطاعة! قرأنا في هذا التمييز نظام "ابارتايد" (تمييز عنصري) صارخ المعالم والتجليات.. كيف لا ونحن نُميَّز من دون خلق الله بالحرمان من حقّ الجندي في رخصة لمدة معيّنة!؟ نعلم أن التعليمات -ونحن بلاد التعليمات- كانت صارمة وحاسمة: حاسبوهم أشدّ الحساب، قتّروا عليهم حتى الأنفاس، قيّدوا حركتهم وصادروا حريتهم ودمروا ما تبقّى لهم من شعور بالكرامة والشرف والانتماء...! طيب وما ذنب العائلة في هذا؟! -طبعا هي سبب كل ذنب: أليست مسؤولة عن وجودك؟! وهي متواطئة بانتمائك إليها! لذا تُحرمان من التلاقي، ولو قدَرنا حتى في الحلم! أي ثقافة هذه التي تحكمنا!؟ غابة بها وحوش تتحكم وأخرى أنعام تمارس طقس النعام، ومن رفع رأسه هذا مصيره ابن الـ..... لا تسامح مع جنود الحصة الخاصة ولا رخص ولا حرية.. تذكرت لاءات الكرب -عفوا العرب- في قمة اللاءات الثلاثة الشهيرة... هكذا العيد في الصحراء في وطني حلوياتنا غُصّة تلقم غُصّةً، وشرابُنا دموع ذارفة. هام كلٌّ منا بها في امتداد الصحراء

والهجير ولا يعلن، ومرطباتنا مزيد من الحقد يتضخم ويربو كما تنتفخ العصيدة في "البرمة".. وفواكهنا نُثارُ احتقار لسلطة بائسة تظنّ نفسها بتعذيب بعض من أبناء الوطن قد ضمنت الخلود في كرسيّ النجاسة والاستبداد وجمهورية المجاهد الأكبر ومدى الحياة ..

الفصل الثالث

.1.

انتهى العيد بزراعة بذور الحقد والنقمة على الحال المزري.. وتُوِّج التدريب بتحية العلم.. كان تدريبا على الخطوة العسكرية و"مارشات" العذاب: لم نعرف سلاحا، لم نمسّه إلا بأبصارنا عن بعد في أيادي المشرفين على المعسكر! وكان العُذر لديهم أن جند الحصة الخاصة خطرٌ على سلامة المكان والإنسان ولا ثقة فيهم إذا تدربوا على السلاح أو حتى لمسوه !كان خيارا لا دخل لنا فيه ! سألنا الملازم في وضع الدرس يوما وهو يشرح كيفية التمويه في الحرب: أين سنتموقع يا حضرة الملازم من سرايا الجيش ونحن لا أسلحة لدينا ولم نتدرب عليها؟! فأُصيب الرجل بالحرج ولم ينبس، وسرحنا من الدرس دون جواب... كنا نتهامس ونتندر: "يا جماعة نحن إذا

شاركنا في حرب فنحن أبطال الحَفْر والردم مادمنا تدربنا على كيفية استعمال "البالة"! نحن نسير في أعقاب الجيش ونحفر المقابر للأعداء ونحثو التراب أو نسبق ونحفر الخنادق! ونشترط ألّا نشارك إلا في حرب صحراوية! ومرّة بدأ زميل في الرابعة هندسة يتحدث بحضور العريف عن الطائرات وتشغيلها واستعمالها وتركيب الأسلحة بها... ففضّ المسؤول الدرس وعاقبنا بإكمال الفترة في الهرولة، أما الزميل فانقضى عليه النهار بين الزحف والبرميل والبطة والنحلة والنابض... وأمسية أم كلثوم وعُليّة... كنّا في التدريب نغني "(لا لا سيبني نشعف،ع الشي الْ راتو عينيّ.. وضع الزحف والبرميل، زادتهم سَهرة عُليّة...)" . اليوم أكملنا شوطا من المهمّة.. سيتغير كل شيء: المكان والفوج وطاقم الإشراف والعمل، وستتواصل جولتنا بصحراء جنوبنا العزيز ثلاثة عشر شهرا! فصبرا جميلا لكم ولي... (أيها القراء الكرام)... اليوم زارنا الكميون الأصفر كما لم يتعود... زارنا يا سادة مشرّعا منخاريه يحتلب العجاج احتلابا. كنا جاهزين بخزائننا القماشية في الصفوف.. الآن نحن جنود "أصيانات كلاس اثنين". ولكن سنظل في عيون من سبقونا محلّ شفقة واستهزاء: مازالك بارشا يا بوجادي"... امتطينا "الماجيروس" على دفعتين في كل واحدة سبعة وأربعون جنديا من أبطال الرفش والمعول! تهادت بنا الشاحنة في الطريق الترابي ونحن نودع خيامنا التي تذوّقنا فيها ما تذوّقنا من مرارة الحرمان ما تذوقنا ومن السّهر ومشقّة التدريب ألوانا وكذلك من حلاوة السمر الأخوي الصادق وبناء علاقتنا الوطيدة وتعاطفنا في كل الأحوال... التفتنا إلى الخيام وكأننا نُخْلي موطنا عزيزا علينا.. كما لو أننا نُجتثّ من الجذور اجتثاثا! وتراءت لنا تتشوّف لوداعنا وتشير بمناديلها وعُراها ونوافذها القماشية والخياش تلوّح للمسافر بل للمفارق: أيتها الخيام المموّهة الجميلة لقد أحسنت احتضاننا بجهدك المحمود البسيط رغم الحر القائظ والعواصف والأخطار.. شكرا لك تحملت لغط لياليا الكالحات نروي رقيق الكلام وغليظ العبارة، ونحكي قصص الواقع والخُرافة، ونلعب الورق في أوقات الفراغ ونؤذيك بدخان السجائر، ممتنُّون لك أصغيتِ إلى أنيننا في الليل من البرد أو السّقم، وتجاوبتِ أصداءً منّا إلينا وكتمتِ الأسرار، ولوّنتِ صُحبتنا بالودّ وقيم الفحولة... كم مرّة... كم... اِبْقَيْ شامخة في مهدك الرملي ولا تستكيني لعنف الريح يهدد أركانك.. تتذكرين كمْ مرةً اقتلعتْكِ العاصفة ليلاً ونحن تحت

جناحيك كزُغب الفراخ ، فقمنا مذعورين و قد تكدّست أكوام الرمال علينا وإذا نحن بقايا يقْطين في الخلاء .. لا أنسى أبدا حين التهمتكِ النارُ ليلا فأعوزتنا الحيلة لإخمادها فطفقنا نضحك بهستيريا عبثيّة مازوشية إلى حدّ البكاء ..لقد حضرني وقتها مشهد احتراق زوجة أبي هريرة في الروايةالشهيرة فوقف يتفرّج ورأى العمل منقوصا فأشعل عليها البيت .. لكنّنا نحن أبناؤك سنعود.. لابد أن نعود نتفقّد حالك ونرمم أركانك! كلّما تقدم الكميون يريد ثكنة ريجيم معتوق المركزية تتراقص الخيام خلفنا في بحر من سراب، فتشعّ كبِركة من زئبق يلحَسها لسان الشمس المُذهّب حتى توارت عنا وتوارينا عنها... نزلنا بثكنة ريجيم معتوق. هنا سيكون "المستقر والمتاع إلى حين".. اصطف الجنود الجدد في ساحة العلَم الواسعة بين صراخ رقباء وعرفاء جدد ارتعابا من الملازم آمر السرية، لم نكن على علم بسر الخوف وقتها ولكن عرفنا بعد التجربة أنّنا في السرية الثالثة مع الملازم الأول فلان والمعروف بـ..... (وبكل ما تتصورون...)،اتخذنا مواقفنا من الصفوف جنودا مدربين ملابسنا العسكرية مازالت خضراء كالحشيش لم تنهكها الشمس فيتبلد لونها كتبْن في آخر صيف غمرته "غسّالة النَّوادر".. "سرية... اسـ... ت... عد...، اسـ... ت... رح، اسـ... ت... عد" تفضّل حضرة الملازم الأول "هكذا قدمنا العريف الذي نظمنا في صفوف... ابتسم الضابط ابتسامة استهزاء ماكرة صفراء، وطاف أمامنا يحدّق في العيون باستفزاز وازدراء ،ويقيس الأطوال والأعراض وإن كانت اللحيّ محلوقة واللباس مرتّباً... كان يدقّق في كل شيء ومن حين إلى آخر كان "يدوّح" برأسه لهذا أو لذاك... فهِمْنا أنّ المستقبل لا يبشر بخير. لم يتكلم والتفت إلى العريف يشير إليه أن استلم المهمّة... ثم انصرف فبقينا في الساحة ساعة تذوقنا من حر الشمس درجات ومن قيظ النهار أصنافا.فكان ذلك عربون ضيافتنا يوم حلّ ركبنا. ثم حلّ السيد الملازم متبخترا واستقبل الصفوف وقال في صيغة المهدد "لعلّكم لم تسمعوا عن السرية الثالثة؟ إنها سريّة أبطال العمل بأنواعه في زراعة النخيل وبذر المنبت وتثبيت زرائب الجريد حول النخيل ومدّ قنوات الماء من "الرجيم" إلى المطروحة اثنين والبناء، فأنتم المؤهلون لهذا! "قلت في نفسي ولا بأس من المطبخ والتنظيف والواجبات الأخرى! وأضاف: نحن في هذه السرّية لا نعرف إلا العمل الجاد والانضباط وتحدي بقية السرايا.. (كان هذا الضابط يتباهى بعمل الجنود أمام الرائد حتى يغيض آمريْ السريتين

الأولى والثانية ولا تهمّه كثيرا معاناة الطلبة خاصة) إننا نحن المشرِفون نعرف كيف نتصرف مع كل مخالف أو "كركار"... سرية.. اسـ.. ت..عد... "تركنا واختفى. فرافقنا العريف إلى خيامنا: كانت ثلاثا في طرف الثكنة.. لا تماسَّ لها مع بقية الخيام كالعادة! دلفنا إليها وتوزعنا الأسرة كانت غائصة في الرمال إلى النصف! كنا في منتصف جوان ذي الحر الوقّاد، وقبالة الخيام تناثرت حنفيات متهالكة تقطّر تقطيرا، ماؤها نار لأن قنواتها فوق الرمل تزورها من العين الكبيرة في الجوار أحيانا. ذهبنا للتبرّد فازددنا لهيبا فآثرنا برد العرق على صهيد الماء! يا للمفارقة: الماء أصبح هنا وقيد نار... نُودينا للتّجمع للغداء بعد الثانية ظهرا، فلبّينا واصطففنا ترمُقنا عيون قدماء الجنود من سريّتنا وبقية السرايا بين شفقة وكِبر وحسد: شفقة لأنّنا على أعتاب السنة لم نتجاوز سوى شهر وبعضه ونقطة الوصول قصيّة! أمّا الكِبر فلأنهم وجدوا جنودا جددا يحملون عنهم أوزار العمل الشاق وهم سيستريحون، وسيتلهّى آمر السرية بغيرهم يجرعهم أصناف العذاب! أما الحسد فلكوننا أكثر من تسعين طالبا جامعيّا من كل التخصصات وهم جنود عاديون من مستويات مختلفة... (رغم أننا ما مارسنا عليهم غرورا ولا تكبرا)..تسلمنا قمائل جديدة من ثكنتنا الجديدة وهرعنا إلى الماء نملؤها لنغسلها في ازدحام حتى خارت القوى وساءت الضمائر! كانت الأحذية العسكرية تلبسُنا منذ الفجر، وصارعت معنا الرحلة إلى "الرجيم" بما فيها، فسَال لُعابها وأغرقت الأقدام في عجين من الأتربة والعرق! فكنتُ إذا رفعتُ قدما ودُست الأرض سمعتُ من صرير الأبواب وزقزقة النّوافذ ما يقزّز، هذا مع انتفاخ الأصابع وحشرجة الحصى في كهف الحذاء! لم نجد بُدًّا من التحمّل. وكل خطوة يلفظُ من الأنفاس والروائح ما يكدّر! نحن ممنوعون من التقرّب من باقي الجنود والاحتكاك بهم في حصار آخر بتعليمات حلف النّاتو! تفطّن البعضُ إلى ضرورة نزع الأحذية، فسارعنا نسلخ أرجلنا سلخا، وننزع مع كل جورب فُتاتا من لحم ورَّمَهُ العرق! فتنفّست الأقدام إلى حين. ولما وطِئْنا الرّمال حُفاةً لسعتنا بجمرها المتّقد وقد سكنته أشعة القائلة. فترى الرجال تنكُص نكص الجمال لسعها ذباب الصيف حتّى صرنا نرقص رقصا لا إراديًّا على غير إيقاع كي نبرّد أخفافنا بالقفز ثم هي "تُلكع" بالوطء! أين السيدان فهرنهايت وسلسوس ليحلاّ المشكلة الفيزيائية المعقدة! لا بأس "قال أحد الرقباء المرافقين خلسة: "اسكبوا ما في الأواني من ماء

حيث موطئ الأقدام من الرمل فهي بفعل الهواء تبرد الحر قليلا". فعاد منا من فرغت قميلته للتزود من جديد ويلتحق بالصفّ. فانخرم النظام وضاع الانضباط وهدّد العريف الجميع وتأحّحت الحناجر وليْتك ما التزمت بصفّ أو وقفت بطابور الغداء! تواصل الحال في تحرّك حلزوني في "رمل أقاسيه بطيئ المطاعم" وليس "وليل أقاسيه بطيئ الكواكب" كَليْل النّابغة. وجدنا في وضع الرِّجل مكان الرِّجل السابقة أهون في تحمّل الحرّ مع سكب قُطيْرات على ظاهرها يجعل الأمر متحَمَّلا. سرنا الهوينى ونلنا طعامنا في قمائلنا وعدنا مسرعين إلى الخيام نجلس على أطراف الأسرة كالمنبوذين من صبيان الحارة، ونلوك ما كُتب لنا دون إحساس بطعم الطعام في الطعام...

-2-

... صادف ليلتنا الأولى بالثكنة وصول شاحنة التموين. كانت محملة بكل احتياجات الثكنة ذات السرايا الثلاث.. كنا في الخيمة بعد العشاء نرتب مضربنا وننظف الخيمة ونتحادث عما ينتظرنا من ظروف جديدة في هذا المكان الجديد. وفجأة اطلَّ علينا رقيب وبدأ يتفرّس في الوجوه ثم صرخ "أنت وأنت وأنت... إلى الواجب! وأخرج سبعة منا أمام الخيمة فتساءلنا: "عن أي واجب تتحدث ونحن لم ننشّف عرق السفر ووعثائه؟ فصرخ "واجب تهبيط السلعة من الكميون" فاستغربنا تصرفه ورفضنا أمره واستمتنا في الدفاع عن موقفنا ولم نتزحزح من باب الخيمة ونحن نغلي غليانا ..غاب بُرهة ثم عاد ومعه العريف فأعاد علينا نفس الأمر مهدّدا بأن ما نقوم به عصيان عسكري وعقوبته قد تصل إلى حد المحاكمة! تبادلنا النظرات المستنكرة وصمّمنا على الموقف، وقال له حمادي: "يا عريف نحن جدد بالثكنة ولم نهيئ حتى أسرتنا وننظم أدواتنا المبعثرة في الخيمة ولم نسوِّ الرمال تحت الأسرة فهي غارقة حتى آذانها ونحن مرهقون من شدة حر اليوم وتعب الرحلة". لم يصغ العريف وقال بصرامة أشدّ: ألم يدربوكم على تطبيق الأوامر دون تردد أو ترمرم!" قلنا "بلى، ولكن وضعنا يدعو إلى الإشفاق"... كانت عبارة "ترمرم" هذه تنفخ الكلى إلى حد الانفجار وتبخر الدماء في الشرايين. كلمة حق أُريد بها

باطل.. أصررنا على الرفض فانسحب يستنجد بالملازم. فتهامسنا: "عن أي محكمة يتحدث هذا!؟ وهل المحاكمة أقسى علينا مما نحن فيه؟ لعل السجن أهون من الإهانات والتطاول والأشغال الشاقة والإذلال المقصود الممنهج!؟ كنا ندرك تماما مخطّط هذا الملازم خاصة فهو من يصدر الأوامر ويستقصدنا بالذات لإرهابنا من أول يوم وإظهار جبروته وتسلطه واستكشاف مدى صمودنا! أدركنا هذا الملعوب تماما. فتبادلنا نظرات التحدي والعزم لأنّ الحال قد استوى أمامنا. عاد العريف ومعه الضابط في لباس رياضي يتباهى به علينا، فهو الضابط المتخرج من الجامعة ونحن جنود! نحن من بلاد الموزمبيق الشقيق ومن جامعة بنغلاديش! لو لم نكن في هذا الوضع لقضينا سنة الجندية ضباطا مثله، بل منّا من يفوقه مستوى تعليميا فقد كان معنا زميل بالسنة الخامسة صيدلة وآخرون بالسنة السادسة هندسة! ومنّا الأستاذ استُلّ من معهده والمحامي على وشك التخرج و... و... لماذا لا يقدر هذا!؟ أم أن غرور السلطان قد أعماه؟! غيّر الملازم النبرة باستهزاء وإمعان في الاستهتار: "بكل بساطة يا جنود، أمامكم خياران فقط: إما إفراغ الشاحنة أو عقوبات عسكرية حتى الصباح!". كنا نُدرك أنه لن يتراجع فقد سمعنا عنه ما سمعنا، ونحن في أول يوم يستقبلنا هكذا! فخيّرنا التوجه نحو مخزن التموين وانطلقنا في العمل لأن ساعتين من الجهد أهون من ليلة ليلاء في الزحف والبرميل والجرمانة والنحلة و... كانت الشاحنة مرتفعة والحمولة متنوعة من كراتين مصبرات ومعلبات وأكياس مقرونة وكسكسي وسكر وشاي وكل متطلبات الثكنة لشهر! كانت الفلسفة تتطاير بين الكميون والمخزن وتُزاحم الفيزياء في المدخل وتتعثر بالرياضيات فتسقط الهندسة وينكسر ضلعها، ثم تغبرُّ ملامح علم النفس ويَعْورُّ علم الاجتماع فيصرخ ويتوجع الأدب من ثقل الحمل، والجميع في عزم ونشاط والعريف بالقرب يهشّ بعُصيّة في يده ومن حين إلى آخر يحثّنا على الإسراع ولا يتورع من قول: يا كذا... وكذا... ويا ولد... فقلنا: يا لعجيب المفارقات ورديء المعادلات! (...) تحملنا... ثم تحملنا... حتّى صرخنا: "يا أخي احترم نفسك ومقامك ومستواك ولا تتطاول! فلمّا احتدّ النقاش واشتد الصراخ تناهى إلى سمعنا دويّ مزلزل، وأبصرنا من الأفق الشرقي شِهابا يخترق الأحداق. وارتكز بجانب الشاحنة كالبرق في شكل سلم انغرس في الرمل، فانبهرت العيون وانحنت الرؤوس لشدة الوميض ونحن نحمي

وجوهنا بسواعدنا، ولم نلتفت إلا على صوت جسم يسقط ويصدر أنّة وتوجعا، فإذا العريف قد رمته رجّة البرق الصّاعق على وجهه دون حراك، وإذا طابور من أشباح تنزل سلّم النور في هدوء وخطوٍ موقّع موزون، وبدأت الملامح تتّضح والأجسام تتشكل من الضّياء، فإذا هي من لحم ودم، وإذا الملابس تتنوّع تنوُّع العصور فهذا زيّ إغريقي يوناني وذاك روماني والآخر عباءة عربية والرابع بدلة إفرنجية من عصور التنوير! فكدنا يُغشى علينا من الدّهشة. ثم تقدَّم الغرباء وأعلنوا عن أنفسهم هؤلاء فلاسفة اليونان ومهندسوه وعلماء الرومان وشعراء العرب ونحويوهم وفلاسفتهم وفلاسفة التنوير جاؤوا يساعدون طلاب العلم في تفريغ الكميون:

فكنتَ ترى سقراط منحني الظهر بكيس الأرز فيهبّ أفلاطون يحمله عنه ويعاتبه بلطف:"يا أستاذي دعْ عنك واكتفِ لنا بالتوليد السقراطي وها أنا وأرسطو سنحمل كل الأرز.. وهذا أبو الطيب مع تلميذه أبي العلاء يشتركان في أكياس السّكر فهذا بقامة الفارعة كالرمح اعتدالا والآخر مطويّ طيّ التاء المربوطة، وكلّ منهما يمدح الآخر ويثني عليه: ("لقد بالغت يا أبا العلاء إذ وسمت شرحك لديواني ب"معجز أحمد"، وإني أراك حريّا بالتبجيل أكثر مني وقد أتيت فعلا بما "لم تستطعه الأوائل". فيرد المعري بتواضع: "لا يا أستاذي، ما بالغتُ فأنت بذلك جدير، ويكفيك أنك "تِرْب الندى ورب القوافي.. ألا تعلم يا سيدي أنك خالد خلود الجوهر، لقد "تركت في الدنيا دويّا كأنما تداول سمعَ المرء أنملُه العشر ").. ويتواصل حوار الرجلين مع العمل.. وفي الكميون تسلّق سيبويه يرفع الكيسَ ثم يتراجع فينصبه، فيغضب ابن جني أو ابن يعيش بجانبه فيرمي الكيس رميا حتى يجرّه بالكسرة الظاهرة في آخر الشاحنة.. كانت لُعبًا نحوية رائقة.. وكان في الممرّ بين الشاحنة والمخزن جَوق من المغنين بقيادة معبد وإشراف الخليل بن أحمد ينشدون لابن زيدون (أضحى التنائي بديلا من تدانينا.. وناب عن طيب لُقيانا تجافينا) ولأبي فراس: (معاذ الهوى ما ذقتِ طارقةَ النوى.. ولا خطرت منك الهموم ببالي) فيشتدّ عزم الجميع بالغناء فيفعل فيهم فعل الحُداء. ومن حين إلى آخر يتدخل فولتير أو روسو لتنقية الطريق مما تساقط من عُلب المصبّرات أو أكياس العقد الاجتماعي والشاي الأحمر السيلاني.أما داخل المخزن فقد انتصب المهندسون من أرخميدس إلى ابن الهيثم يرتّبون البضاعة في مواضعها بالسطرةوالفرجار و بالدّقة والمقاييس المضبوطة. وكان بالباب

"نيتشه" يصرُخ ويعاتب أينشتاين الذي سدّ عليه طريق الخروج إلى المطلق وخلق الإنسان الأرقى، ونسّب له قدرته. ولم يكن سارتر أفضل حالا فهو مطرق يتأمّل دون حراك حائرا في الوجود. فكنت ترى بعض الأفكار تتساقط هنا وهناك فيكنسُها العبثيون أو الدّادائيون ويبعدونها.. وظل جهد الجماعة في دأب كخليّة دم نشطة حتى أُفرغ الكميون وذابتْ الأشباح في الظلام المحيط. وأفاق العريف على أصواتنا جميعا نعلن إنهاء المهمّة فنهض يهذي: أين أفكاري؟ أين أشعاري!؟ أين أوتاري؟ أين بركاري؟ فتضاحكنا وانصرفنا نحو الخيمة وتركناه يدور في المكان ويمسك بجزء من ذيل الكوجيتو الديكارتي ويسحبه بكل قوّته وكان محجوزا تحت صناديق متراكبة من زيت الحاكم اللّذيذ، لكن دون طائل فأدركنا أنه لا يفهم معنى "أنا أفكر إذن فأنا موجود".. وبقي مجرد وجود مادي لا طاقة له على التفكير ... ولم يفق من حلمه.... أين ديكارت؟ أين الجرجاني؟

-3-

... نحن سريّة العمل وتفتيت الصخر.. نحفر بأظفارنا خنادق القنوات لإحياء الصحراء اليباب. تركنا القلم كَرْها وتسلحنا بالرّفش كرهًا، لكن سنحوّل الكَرْه طوعا كي نستسيغ القهر وينحني لنا المستحيل. وحتى إن اشتكينا فليس لمن يبغي علينا ويبتغي بنا قهرا. تسلّقنا منذ الفجر الشاحنة كالعناكب الهزيلة فجابت بنا الطريق الكلسيّ الممتد بين "الرجيم" والمطروحة. هنا سنكمل ما بدأه سابقونا من جيش القراطيس والأقلام.. وبدأ الكميون يلفظنا على حافة الطريق أكداسا آدمية من عشرين طالبا غضّ الملامح طريّ العود رقيق الكفَّيْن لا قِبل له بصلابة يد البالة ولا "كُرناف" النخل وإبر الجريد الناكزة، ولا بأحساك القتاد المسمومة.. كان مع كل عشرين طالبا رقيب. تكفّل مرافقنا بزرعنا على مسافة مائتي متر حيث يكون نصيب كل عامل عشرة أمتار من الخندق بعرض نصف المتر وعمق المتر والنصف. هذا نصيبك من الدرس الأول في العمل! لا تظنّ نفسك في قاعة بقسم العربية تهيئ الذهن لمقدمة في الأدب العربي عن أصل العرب ومجالهم الجغرافي والحضاري وفنونهم! ولا أنت بمدرج الحقوق تمهد لدرس القانون العام! أنت هنا مع العريف فلان يَقيس لك المسافة المطلوبة، ويحذّرك إذا لم

تُنهِ الأمتار العشرة ويعاقبك فلا عودة للثكنة إلا بعد التهام نصيبك من الأمتار! سَطّر العريف المسافة، فتناولتُ البالة وتوكلتُ على الله.. كانت الرّمال سهلة الحفر لا تحتاج إلى فأس أو مسحاة. البالة وحدها تفي بالغرض. والحفر يسير سلس في البداية، مع كل لُقمة رمل أستحضر من الشعر بيتا أو من العروض وزنا أو من الوظائف ضرباً. أُمنّي النفس لو أُغمِضُ العين وأفتح فأرى الخندق كامل الذات والصّفات: طولا وعرضا وعمقا.. لكن هيهات! مع كل ضغطة على البالة تهتزّ كل جارحة بالجسم فأتلوّى، ويحمر الكفّان ويتّقدان احتراقا، (لا قِبل لك أيها الطالب المدلل بمثل هذا. تحمّل جزاء ما فعلت!). استمرت المعاناة في صراع مع البالة والرّمال والخندق يتعمق رويدا وأنا أغطس وأسبح. لا داعي للتفكير في التعفّر بناعم الغبار والقش المتناثر من كل الاتجاهات، فكل ذلك يجد ملاذه فيما تبلل بالعرق من الجسم فخلعتُ (الكُمبة) اتقاء الحر المتزايد فتقاطرت طيناً لزِجا... ومن يمرّ لا يرى في الخندق إلا كُتل الرّمل تقفز يمينا وشمالا وتتخذ موقعها من حافتي الخندق، ويُبصر برأسٍ ينبض صعودا ونزولا. وحين تجاوز العمق نصف المتر أصبح الأخدود لا يسعني فأحتك بطرفيه فينهار الرمل من الجانبين على امتداد ذراع حتى يردم ركبتيَّ. فأعيد إخراج الرمل الدخيل الناعم قبل الحفر من جديد. فكنتُ إذا ملأتُ البالة ذرف من جوانبها الرمل الغبار فأكفْكفه بيدي لكنّه ينزلق إلى الهاوية من جديد.. فأتوتّر ويغلي الدم في دماغي وأصرّ على إخراج ما غزا الخندق من رمل خارجي. كنت أصارع الرمل صراعا عبثيا: فلا أنا أنجح في تصعيد الرمال ولا أنا أهنأ براحة الجسم والبال. ألم أكن إلا سيزيف الفلاة يحاول فيفشل ولكن يصرّ على "إرغام المستحيل على الإمكان"! وهذا الكاسر خارج الخندق يتربص بي لينهش كبدي ويحتسي من دم بروميثيوس أقداحا! هو بجانبي يمرّ في خُيلاء وكِبر مزيّف . كنتُ في حركة دائرية مفرغة سمجة أدور.. وأدور.. وأدور.. كجمل "برّوطة أو الصفصاف" كفيف العينين بلحاف من سواد يطوف حول نقطة مركز، ويذرع المكان وهو يتوهّم قطع المسافات الطوال! هيهات يا صاحبي! أنت ما غادرتَ وما خرجت ممّا سطّروه لك من حدود! تَهلكُ جسما لتسقيَهم ماء من أعماق الصخر زلالا! ثم يتزاحم حولك المتطفلون والصبية لالتقاط صورهم التذكارية يسجُنونها في ألبوماتهم ويودعونك بملاطفة خبيثة ماكرة وفي النهاية حين تهرم وتنعدم منك الجدوى تُنحر ويُوزّع لحمك بينهم إرْبا! كانت الجمال على طول الخندق تعيش نفس الشعور التراجيدي المؤلم! كوميديا سوداء يُخرجها ساكن القصر وينفذها علينا بلا حياء و يحرّك الكومبارس بعنجهية و خُيلاء ! سكننا شعور الهزائم المضاعفة أضعافا: مع القهر كان الرقيب المتجوّل بين الرُّفوش

النابضة يتربص بكل رفش لا يتراقص كعصا قائد الجوق في معزوفة بليدة، و الرمل يصرّ على الانزلاق كلّما حركْتُه أو هبّت عليه ريح خفيفة يلتهم ساعات من الجهد المضني، ويبتلع شعورا بالجدوى لديّ حين أحاول تهدئة خواطر النفس، ومع النّفس العاجزة عن التحرّر من "طينها" تروم أن ترفرف خفاقة مخترقة حجب الغيب وتذوب في المطلق ،فتتخلص من العذاب الظالم! كنت بدلَ حفر المسافة المطلوبة ألتفت فأراني ضاعفتها أضعافا ثلاثة! فكل عَرض يزحزح من الرمل ضعفيه يمينا وشمالا! يا لله! ما الحلّ لهذا الكابوس اليقظان!؟ ظللت اليوم كلّه أجهد ولا نتيجة، وحتى في الاستراحة القصيرة المحسوبة بين أشواط الحفر لا ينقطع العقل في التفكير في هذه المعضلة... انتصف النهار وآن وقت الغداء فالتحقت بنا الشاحنة تحمل خزان الكسكسكي، وتمرّ بجانبنا فندبُّ نحوها لملء القميلة ونغرس رُكبنا في الرمل ونشرع في الوليمة ونحن نفكر في ما ينتظرنا من جهد إلى آخر السنة حتى نمدّ أنابيب عشرين ميلا أو أكثر...

في اليوم اللاحق لم تزل الشمس تتململ تحت لحاف من غسق كحسناء مغناج، لا يظهر منها سوى ذوائب قرمزية تتماوج بلطف مع أولى هبات النسيم.. أنهينا تداول أقداح البراد الثاني وعمّرنا الثالث يأكل الجمر الوهاج جانبيه. اليوم، عملنا في تسييج المساحات المخصّصة لغراسة النخيل بالزرب، فقد انتهى حفر خنادق القنوات طيلة شهر... كان الجريد على جوانبنا أكواما، حين اتضحت الرؤية انقسم الفريق بين من يحفر الخنادق، ومن يشذب الجريد ومن يغرسه ومن يشده بالأسلاك. كنت ممن يغرس.. فأتناول الجريدة ذات المترين وسعفها متعثكل على جانبيها كجدائل بعثرها رقيق النسيم. أُمسكها برفق وأغمس جذعها في عمق الخندق فأتخيل حالها قبل أن تجفّ ويزورها اصفرار الفناء: "يا سامقة الطول ونحيفة القدّ والقوام، ها قد دب فيك السقم وتلاهُ العدم ولونك بشُهْبة الغبار وامتص رواءك من اليخضور ينعش نفحك، كم تسامى شَعرُك عاليا يهدهدك النسيم ويفركه النور المصفّى من إيّاة الشّموس الوهّاجة! وكم تعثكلت مع رفيقاتك كضفائر الفيروز! بك تغنّى مجانين العُشّاق وفرسان الكلام، ومنك استلهموا لوحاتهم الفتانة ورسموا آلاء النظم وأسرار البيان! ومن سحرك فاض على اللوح الفنان! كم شكّلتِ للظِّل رموشًا تتمطّى على الرمل مثل هُدب البيلسان! أليست "بلقيس أطول النخلات في أرض العراق"؟ ثم أيتها الجريدة الذاوية الهزيلة، ألم تحمي عراجين النور تتدلى قطافها وهي دانية! وما أسرفْتِ في ريح بها تعصف ولا سَموم لها يلفح، فكنت لها "لثاما للهجير" وهي تترحَّل عبر الزمن من البرعم إلى الزهرة إلى البِسر إلى الرطب إلى النّضج والاستواء.. كنتِ تحمين نهارها بظلّ ظليل وليلها بدفء بَليل وطلّ طليل، ولا تملّين

احتضان الشّماريخ والذّود عنها بسهامك والنّبال، وتحرسين عناقيد العقيق من طفيلي الذّباب واليعاسيب الطنانة! كم تزيّنتِ واستحممْت بشراشف النّدى سحراً وتنشّفت بلوامعَ من خيوط الصبح فجرا! ها إنك الآن لا اخضرار ولا رواء، ستُدفنين ويُحثى عليك الرمل الصّاهد، لا سُقْي ولا ماء، ستذوقين من الحر ألوانا ومن أثقال الغبار أطنانا، سيتجرأ عليك السّفلة والهجاج وكنت في سمائِك شامخة لا تُطاوَل وطاهرة لا تدنس ولا تُضاهى، كُنتِ تمتطين الريح "على قلق" أمواجا وتُعاندين السحاب أبراجا، تسبحين في زرقة السماء كملاك من خضرة ونقاء.. أمّا الآن وهنا، فأنت قطعة من خشب يابس ككلّ أجسامنا إلى الاندثار و الزوال! أخذني هوس الحوار مع كل جريدة أغرسها فأدفن معها حلُما للبقاء و وجهي بلا لثام ، حتى انغرزت شوكة كالإبرة في الخاصرة بين الإبهام والسبّابة وأطلت برأسها من الخلف، فرأيت النجوم في عز الظهر وصرخت كالملدوغ وأنا متسمّر لا أتحرك لأن الجريدة قد اتخذت موقعها من الخندق، واندفع الدم هطلا يلطّخ كامل الكف، فهبّ الأصدقاء على وقع الصرخة، وطفقوا يعالجون الشوكة لاقتلاعها لكنّها تستعصي وتزداد في الكف انغراسا، فعمد عليّ إلى قطع رأس السعفة ولم ينزعها إلا حين "أُسقط في يديّ".. إنّ سعف النخيل عنيد (يا سادة، و يا أصحاب الأيادي الناعمة) وهو لا يسير إلا في اتجاه واحد لأنّ به حراشف كالزواحف، لم تُنزع الشوكة إلا وقد تركت في طرف الكف جرحا غائرا تدبرنا له ضمائد من أعشاب الصحراء المالحة ورماد الكانون في انتظار العودة إلى الثكنة.. وانكفأتُ تحت شجيرة ممددا أنتظر الآخرين لإنهاء "الياطاش"... انشغل الزملاء بأمري وغرقوا في العمل حدّ الانصهار إذ لا مجال للتراخي ولابدّ من إنهاء نصيبنا من الأمتار حتى نستطيع العودة. واشتركوا في إنهاء نصيبي من الأمتار فنسينا أمر البراد وما التفتنا، فقد عمّرنا الرؤوس قبل الانطلاق.. وحين عاد العمال إلى الكانون بعد ساعة كان في برد القبور.. قررنا إشعال النار فبحثنا عن ولاعة فلم نجد، انتظرنا عابرا بالطريق فلم تمر سوى قوافل الإبل تنتشر على امتداد الصحراء دون راع. ليس في وسعنا مغادرة موقع العمل للبحث عن ولاعة ونحن متلهفون على كأس مقطر وسيجارة نفاثة العبق.. تراخوا في العمل غصبا عنهم فقد زال المحفز. وفجأة سمعنا صوتا ضعيفا بين شجيرات الشعال ينبه حماره ويستحثه على السير.. استبشرنا بقدوم الشيخ وكان الدخان ينبعث من منخاريه كقطار الوسترن، أسرع إليه حمادي وقطع عليه الطريق، ففزع الرجل من اللباس الأخضر، فالتحق به عليٌّ وقال له ممازحا: "زرعتشي باتاتا" وكررها مرات.. لم يفهم الشيخ ولم يدرك المقصود فكان يجيب ب"اه؟" مستفسرا، فيسأله حكيم: زرعتشي تمتمتماتم" فلا يفهم الرجل ونغرق في

الضحك وملاطفته. ثم استضفناه بيننا ومدّنا بالقداحة فأشعلنا كانونا جديدا وطبخة من الشاي الثقيل تعمر الرؤوس شاركنا فيها الرجل بكل تلقائية أهل الجنوب السُّمَحاء. وظل معنا يروي لنا حلو الحديث من حكم وأخبار، ويحدثنا عن الصحراء وساكنيها ومغامراته فيها، فكان حديثه لنا كالحُداء يحفزنا ويشد من عزمنا حتى أنهينا المهمة...

-4-

... تنوع السّمر بالثكنة الجديدة، وبدأت مجموعات الأصدقاء تتشكل. كان الأمر تلقائيا حيث تماهت الأمزجة وتقاربت الاهتمامات فكان ذلك معيار التلاقي. لم يكن البُعد المناطقي هاجسا. وترفعنا عن الانتماءات العقائدية والتوجهات الفكرية الحزبية. وقد اختزلت مجموعتنا -التي ستشتهر فيما بعد- كل أركان الخريطة: فقد كان "علي الغيلوفي" ينحدر من قرية ابن غيلوف الحالمة على تخوم الصحراء من حامة قابس تزوّد من شهامة بني يزيد بشيم لا تضَاهى وصلابة عريكة لا تقارن.. وكان"حمادي سلامة" من أشاوس المثاليث بالحنشة المناضلة بصفاقس وأعرق قبائل العرب ورجال الملاحم يتقدّمنا دائما في المواقف المعسرة! أما عماد بن نصر فهو ابن الوردية ذات الصولات الخالدة في التاريخ ومن أخلاق ولد الحومة الشهم تلوّن سلوكه المرن والمتوازن والدافئ! وحمل لنا "حكيم خي" نفحات الوطن القبلي وشذا زهر البرتقال من تازركة و تمسك أهلها بالفحولة النادرة! وكنتُ من منطقة الكرشون بماجل بلعباس من القصرين زوّدني الشعانبي وجبال عرباطة من نسائمهم بما ملأ أنفاسي نقاء ومن سموّه شموخا وعزة نفس ومن صوّانه صلابة. وكنا جميعا في تلقائية البدوي ومرونة الحضري وحكمة الشيوخ وعفوية الأطفال.. لا نبخل على بعضنا بعضا ولا على غيرنا بإيثار أو تضحية.. كانت المجموعة فسيفساء من الجهات والروائح العبقة تزرعها في البلاد أمجاد السّابقين وبساطة اللاحقين، لذلك كنا في سمرنا نترحل بالقصّ من أقصى البلاد إلى أدناها: ملاحم الأجداد ومآثرهم الخالدة، ولشدّ ما تراءت لنا حيّة فينا.. ونحن نسهر على ثغور الصحراء المسيّجة بالجبال.. لكن السياق مختلف.. في الجنوب نحن اليوم تزورنا مع نسائم الليل أطياف أبطال ماتوا وما ماتوا فينا. أبطال شوّهتهم آلة التزييف الجهنمية فأطلقوا عليهم اسم "فلاقة" لأن المستعمر وأذنابه أرادوا ذلك. أثثنا السمر بملاحم شيخ المقاومين الدغباجي وقد تجاوزت

حدود القُطر من فلسطين إلى ليبيا، كان طيفه بيننا يشد العزائم ويحفز الهمم. سهرنا مع معاركه في "جبل بوهدمة" و"المغذية" وغنينا له "الخمسة الي لحقوا بالجرة وملك الموت يراجي.. لحقوا مولى العركة المرة المشهور الدغباجي". تذكرنا بطولته حتى في لحظة إعدامه وهو يقف شامخا كالطود الباذخ باسما يتحدى قاتليه، ويرفض حتى عصابة العينين أثناء الإعدام ويستقبل صدره رصاص الغدر الاستعماري بالتكبير وبتهليل الرجال وزغاريد اليزيديات الحرائر. عشنا معه ملاحم الأبطال. وسافرنا بالذاكرة مع بطل مدنين وكل الجنوب الشهيد مصباح الجربوع فكسّرنا معه جبال تطاوين وشعابها، وطوّفنا جبال غمراسن وبني خداش ومطماطة. فذقنا من لذائذ النصر أقداحا. حضرنا معه باللحن معارك "تشين" و"وادي جير" و"وادي ارينيان" و"بوصرصار". عشنا معه ملحمة الملاحم "بجبل ميتر" ببني خداش. وكم تألمنا وبكينا لاستشهاده برشاشات طائرات الغدر الاستعماري وبتواطؤ أذيال المستعمر سنة 1958!؟ فالدولة "مستقلة حسب ما قالوا"! وترحلنا مع أسد جبل عرباطة المقاوم الشهيد الأزهر الشرايطي. تخطينا معه حدود الوطن الصغير إلى فلسطين قلب الوطن الأكبر.. ثم خضنا بذاكرتنا معارك "زلين" و"السلوم" و"سيدي عيش" الأولى والثانية و"الرديف". وعشنا نخوة النضال مع كل أبطال المقاومة من الحاج محمد كمون وعلي بن خليفة النفاتي ورفاقهم بصفاقس وكل شبر من تراب الوطن. ووقفت أنفاسنا مع سيرة حشاد البطل الأسطوري.. نادينا ونحن في أعماق الصحراء كلّ من تذكّرنا.. كررنا كثيرا من القصص وما مللنا.. نحن المشحونون بشهوة الملاحم وبطولات الأجداد من أعلى رأس الخريطة ببنزرت إلى حدود الصحراء ببرج الخضراء.. من حدود البحر الأزرق إلى حدود البحر الأصفر. كنا مجموعة متنوعة الاختصاص: من شعب العربية والعلوم والفيزياء والرياضيات والتاريخ.. مزيج عجيب ممن كان قدرهم الانسجام.. ومن حين إلى آخر ينضم إلى هذه النواة الرئيسية كل من فرحات العدناني من قليبية ومنير البعتي من صفاقس... شكلنا فريق السمر الطويل إلى حدود السحر وانطلقنا في وضع برنامج "الخرجات" الصحراوية في الآحاد لكسر رتابة الحياة الضاغطة. كُنّا نحن مجموعة التخييم الصحراوي المشهورة في الثكنة، حتى أن البعض في كل يوم أحد يترصد الاتجاه الذي توجهنا إليه من الصحراء الشاسعة.. دائما نعد البرنامج منذ مساء السبت، فننطلق إلى قرية "الرجيم" المتاخمة للثكنة ونطوف بين الأهالي نبحث عن ديك نشتريه، ونقتني كل لوازم الطبخ من دكان العم بلقاسم ثم نبيت ليلتنا في سمر أمام الخيمة.. تتميز جلساتنا الليلية بتوافد الزملاء علينا وخاصة كل من يشكو الإحباط أو الحنين والشوق إلى الأهل، وكلّ

من تُبرّح به الغربة، فكنا نرمّم له المعنويات ونبدد اليأس ونشجع كل من يلتحق بنا.. في الليل نخطط ل"ركشة" اليوم الموالي باختيار المكان ونوع الأكلة التي سنطبخ حتى نكسر روتين الأكل العسكري.. حين انبلاج الفجر ننهض على صوت ديكنا يصيح تحت الفراش فيفزع كل من بالخيمة فنضطر إلى إسكاته والتوسل له... ونستعجل الخروج فيحمل كل منا نصيبه من اللّوازم: ثلاث بطانيات وبعض أعمدة الجريدة خصّصناها للغرض وأدوات الطبخ والمؤونة.. خرجنا اليوم على عادتنا نتحسس الطريق والليل قد بدأ يسحب رداءه الرمادي عن الكون.. شرّقنا وتخفينا بكثبان الصحراء وشجيراتها المتنوعة وتجاوزنا حدود المسافات المعهودة خشية تفطن الوشاة أو الملازم إلينا أو التحاق المتطفلين بنا.. توغلنا حتى غابت عنا الثكنة وملامحها فحططنا الرحال بين شجر الشعال الكثيف وشددنا البطانيات إلى بعضها ونصبنا خيمتنا وتكفّل عماد بطبخ فطور الصباح: كان عجّة حارة لذيذة واحتطب حكيم ومنير ما نحتاج وصنع لنا علي خبز "الملة" اللذيذ.. أما حمادي فكان أبرعنا في إعداد الشاي.. وذبحتُ الديك ونظفتُه للغداء.. استقبلنا أول أشعة الشمس بفطور الصباح فتحلقنا حولها الصحن المشترك ورددنا كلماتنا الطقوسية التي ألفناها كل مرة: (فقد كان عليّ يعبر عن إعجابه بقولته الشهيرة "مجانا".. وكنت أقول: "لذيييييذة"، فيتوتر حمادي ويقول "كولوا واسكتوا"... قضينا النهار في بعض القراءات وشرب الشاي وبعد الغداء استسلمنا للنوم تحت الخيمة، ولكنها لم تكن تتسع لكامل الأجساد، حشرنا رؤوسنا في حضنها وأهدينا الباقي إلى ظل شجيرات الشعال المحيطة تداعبنا من حين إلى آخر بسعفها النّاعم على أنّات النسائم فتدغدغنا، وتؤنس سُهادنا كالأم تمسّد خدّ وليدها حتى ينام.. كان الهدوء يسحر الآذان بسكينة حالمة. إننا خارج المنغصّات الدنيوية وقد استرددنا النشوة الأزلية قبل خلق البشر: كثبان مترامية تأخذ بالأبصار والألباب تتراقص على ذُراها أمواج من السراب اللؤلؤي اللمّاع، وترمقها أهداب الشمس بشعاع عسلي جموح.. لا أثر لآدمي ولا لسجن.. الطبيعة هنا تنفتح وترخي لك عنان الحلم اللذيذ بعد أن تبخرت أحلام الواقع الكئيب! تركنا السياج يخنق الثكنة هناك مثلما تركنا قضبان السجن الأكبر يكتم أنفاس البلاد والعباد.. عالمنا هنا في الفلاة نزوره أسبوعيا كأننا نقيم مراسم قداس التطهر من درن الوجود، وبالرمل والشمس تستحم ذواتنا من وسخ الأيام، ونَنْحر على محرابه قُربانا، وننشد أناشيد الخلود، وحين نجتمع هنا فليس شهوة في الأكل أو رغبة في العلف! فذاك متاح في مواضع أخرى، إنما شوقا إلى أنس العائلة وحبا في دفء الأقارب.. وها إننا بأسرتنا بين صفرة الرمال وزرقة السماء ونقاوة السراب.. طهارة خالصة لم تدنسها يد الحضارة وزيف

البشر.. إنه الوجود في صفائه منذ أصل التكوين. نحن فتية آمنّا بالحرية والكرامة إيمان فتية الكهف والرقيم بوحدانية خالقهم! نجونا مثلهم بإيماننا من قمع ديقيانوس العصر يُركّع رهبانه وسدنة معبده للتسبيح له، ويرسل بين الناس رسُله من شعبه الدستورية يرغمهم على الإيمان أو الفناء. نروم التحرر من مكبّلات الحياة ومنغّصات الواجب الرتيب. هام كل منا في رؤاه وسافر في أعماق الكون بين غرق في ذاته المنكسرة ومستقبل أرادوا تحطيمه وإعدام حقّه في البقاء.. رأيت وأنا معلّق بين شفا اليقظة والمنام نهرا كما الزئبق ينسكب سلسبيلا ميّاساً، ويتدحرج الزمن فيه تدحرج الصخور مع السّيل من أعالي الجبال، شدني المشهد وأنا على حافة المجرى، كان مشهدا كرنفاليا محكم التّصميم: هذا يوم الاثنين يدفع يوم الأحد دفعا فينكبّ على وجهه في السائل اللزج ويمضي، ولا يفتأ أن يلحق به يوم الثلاثاء فيطعن سابقه فينهار ويذوب في التيار الجارف، ويمضي... وهكذا كانت الأيام تتبادل الاصطراع ولا تتوقف... ثم تمضي... وكلما اكتمل الأسبوع سارع أسبوع آخر يُرديه ويتسلّق الموقع في مكانه... ثم يمضي... إنها حركة جنونية للزّمن حلقاتها الأيام والأشهر والأعوام.. ورأيت في خضمّ هذه الحلبة طيفا كالظلّ ولا جسم، يقف على اللاشيء فوق النهر كالمقبل على الغوص، ويتعاظم حجمه كلما مرّ يوم كأنما يشربه فينتفخ، وكان يترنح كالثّمل. سألته: "من أنت أيها الواقف المتدلّي بين السماء والأرض؟ أيها المشرف على النهر كأنك تعد قطراته العابرة؟ ألم يأخذك الدُّوار وأنت ساهم في حركة السيل من تحتك مع الهاويه"؟! فأجاب كمن يلهث مع السراب: "أنا العمر أيها الغافل عن سلطان الزمن! أنا عمرك أشاهد مسرحية الزمن العابث بكياني كلما مرّ بي منه نزْر أثقل كاهلي وحملني وزرا على أوزاري! وهذا نهر الزمان الجارف! ألم تلاحظ منذ وقفتَ إلى الحافة أمامك أنني أتضخّم عرضا وأزداد طولا وأنكبّ على وجهي؟ وأنت ابتعد كي لا يستهويك التيار ويأخذك الدّوار فتغرق! واستمع إليّ وأصغِ: يا أنتَ، يا أنا، يا وجهي المتشح بالآلام والآمال، لا تخشَ الهزيمة ولا خوف الانكسار، لا تستعجل أهازيج الانتصار... أنت أنا أعرف لك ما تتستّر عليه الأقدار.. إنهم يتربصون بكم ليجهضوا الحلم اللذيذ المزروع فيكم ويقتلعوا النبتة اليانعة ليزرعوا الأشواك ويقتلوا موسى في المهد كي لا يهدد عرش الفرعون! اصمدوا إن الانكسار والهزيمة خيانة لا يرضاها فارس الفرسان وإن عقروا من تحته الحصان... والقصّة لا تنتهي قبل أوانها إلا بأمر راويها، وأنا الراوي لا أسمح بالانسحاب... ستمر عليكم الأشهر لكن لا تنسوا أنها أحمال ثقال تنتهي بكسر القضبان وستعودون إلى شمسهم المزيفة فأشرقوها رغما عنهم من مغربها إن كانت لكم إرادة واقتدار... "أفزعني الطيف بقوله هذا وشاك بدني بحشرجة

ودبيب كالنمل ورأيته قد استحال كالدخان يتراقص على وقع النسائم وتلوّى في الهواء وبدأ بالتبخر والتواري عن البصر! فشمّرتُ كمن يريد عبور الجدول لأكلمه فإذا بي أعثر وأنزلق فأفيق من غفوتي على أصوات الزملاء يرددون نفس الهذيان: أين أنت؟ أين اختفيت؟ انتظر وأجب عن السؤال؟ وكنا جميعا في حالة من الذعر والاضطراب وراح كل منّا يسأل الآخرين: أين هو؟ أين اختفى؟ لماذا كان على تلك الهيأة؟ لماذا لم يجبنا عن أسئلتنا؟ وغرقنا في حمّى من كلام أنصاف المجانين! يا للعجب لقد كنا نسبح في نفس الحلم بنفس التفاصيل الغريبة! ولم نرتدّ إلى وعينا إلا على صوت سيارة الجيب وهي تُرغي في الصحراء تقطّع أوصال الكثبان والوهاد، فخشينا انكشاف أمرنا من الملازم أو أحد وُشاته، فرأينا فيه فرعون يطاردنا، وجنود ديقيانوس يبحثون، فأسرعنا باقتلاع الخيمة وأخَذ كل واحد منا ما وجد أمامه من أدوات وتفرقنا في الصحراء حتى لا نقع جميعا في الاحتجاز وكنا تواعدنا على اللقاء في الثكنة مادام كلٌّ منا سيتدبر أمره في العودة...

- 5 -

... تكررت نزهاتنا الأسبوعية في الصحراء بنفس الوتيرة.. ولكن حين ضقنا ذرعا من ممارسات الملازم المشرف على السّرية، وهدّنا تعب العمل الطاحن والإهانات المتواصلة، لم نر جدوى من تواصل المأساة! وآثرنا الانسحاب من المقصلة اليومية في حفر الخنادق أو "تزريب" الصحراء أو الاحتطاب أو العقوبات العسكرية.. ورأينا جهدنا مجرّد حلقة ضمن سلسلة عبثية لا تنتهي يصنعها من لا يحترم كرامة البشر ولا يثمّن جهدا لمخلوق.. قررنا نحن مجموعة الخمسة ذات ليلة أن نبحث عن خيار جديد في تمضية مدة الاعتقال. لأننا وجدنا صاحبنا لن يكفّ عن الأذيّة والإذلال فخطّطنا لمغادرة الثكنة وسجنها إلى رحابة الصحراء وانطلاقها وخيّرنا العيش بين قوافل الإبل تتهادى مطمئنة قانعة ترد معاطنها أنى شاءت وتتجاوب مع فضائها كيفما أرادت، وفضلنا جماعات الغزلان وزرافات الحبارى وحتى الذئاب على أن نظل رهائن محبس بلا أقفال. ملأنا منذ الصباح ما يلزمنا من ماء في قربتنا البلاستيكية، وحملنا قُفّتنا، فيها زادنا من الشاي ومواعين الطبخ وقصعة كنا اشتريناها.. ولم ننسَ بعض مراجعنا الدراسية زوّدَنا بها

أهلنا حين زارونا.. تسلّلنا في جنح الظلام بين فتحات السّياج الجريدي وسلكنا طريقا متعرجا بين الكثبان وشجيرات الصحراء. أوغلنا في المفازة حيث لا يمكن استقصاء أثرنا، فهذا المهمه ملاذ الراغبين في الحرية والهدوء.. وصلنا حيث أمِنّا المكان وتقاسمنا الأدوار كالعادة لا قائد ولا مقود، ولا رئيس ولا مرؤوس.. جمعنا الحطب المناسب للطّبخ، أحضر لنا عماد الشّكشوكة الحارة المعهودة وتعاونّا على خبز الملة الشهي الدافئ وتحلقنا نفطر قبل ضوء الفجر. وفي الحال كان الشاي ينسكب في الكؤوس "مُزَزًا من الطعم قرقفا".. ودار بين زفرات الحسرة وعناقيد التبغ الثقيل تلوث الجو... أنهينا الشّرب ثم انتحى كل منّا ناحيته مستندا إلى شُجيرة وفتح ما يملك من كراريس ودفاتر.. كانت بجرابي البلاستيكي مجموعة دروسي لتلك السنة: أدب حديث وأدب قديم وحضارة حديثة وقديمة ولغة وبلاغة وترجمة ولغة فرنسية ولغة أنجليزية... كل المواد كانت معي، كانت مرتبة في دفاترها بعناية الطالب المثابر الراغب في النجاح والمقبل عليه بتفان وجدية في تلك السنة! لكن قبل حصاد السنة بشهرين وقع اختطافي فشعرت بحقد كافر على الظالم وتقزز من الجور... بين الدفاتر تختفي بعض بطاقات الأكل الجامعية، حين عثرت عليها اهتز كياني لها كأنما ظفرت بكنز أو لقيت حبيبا بعد طول النوى وغيرة العذّال.. قلّبتها بين يدي ولم أصدق ما أرى... تحسستها وقرأتها.. وكررت القراءة.. ركزت على عبارة "أكلة واحدة، مائة مليم"! يا لله! أخيرا أجد مؤشرا وعلامة تذكرني أني مازلت طالبا رغم الانقطاع القسري عن الجامعة! وضعت البطاقة على أنفي أتشمم رائحتها، وأغمضت عيني تلذذا بشذاها.. بدت لي أشهى من كل عطور الأرض.. تراءت لي فيها أيام الطابور على المطعم الجامعي بمنوبة ونحن نتزاحم لكن في اعتداد الانتماء الطالبي والزّهو.. تذكرت بها إفطارنا في مطعم الرابطة وابن خلدون ورأس الطابية.. وحملتني الذكرى إلى شوارع العاصمة وأنهجها الضيقة ونحن نجري أمام مطاردات البوليس في المظاهرات.. كنتَ إذا ضاق عليك الخناق وأوشكتَ على الوقوع بين براثن المطاردين من البوليس تدلف إلى أي باب بالمدينة العربي... كان السكان في المظاهرات يترصدون خلف أبوابهم كل طالب مطارَد يتعاطفون معه... اقتربنا ونحن نلهث من بعض المساكن ونحن محاصَرون، فجأة انفتح لنا باب صغير وجذبتني يد خشنة ثم أُغلِق الباب حتى زال الخطر، أكرمَنا صاحبُ البيت وشجّعنا بنبرة المتعاطف والعاجز! وغسلنا وجوهنا من أثر الغاز المسيل للدموع وزوّدنا الرجل بقطع قماش مبلّلة اتخذناها مناشف نقي بها الأعين والوجوه من الغاز! كان كل من في البلاد يغلي ولكن آلة القمع ترهب الناس وتطحنهم.. كان الطلاب هم الصفّ الأول في التظاهر والتحدي وهم أول الضحايا! وحتى إن ضحوا فإن فئة من

المرتزقة المبثوثة في كل الشُّعب الدستورية والمخبرين لا شاغل لها سوى تشويه فئة الطلاب!
عدْتُ من شرودي في الماضي وتناولت دفاتري وأوراقي أتصفّحها: هذه دروس اللغة للأستاذ الشريف وهذه المقامات للأستاذ البكاري وذلك السّياب للأستاذ محمد القاضي و... و... أتناول كل درس أنظر فيه بفتور وحسرة وأستحضر مقعدي بالقاعة ورفاقي بالمدرج! لماذا أُحرم من دراستي وأُرمى في البيداء! هل سيتغير البرنامج الدراسي حين نُسرّح!؟ ومن قال إننا سنغادر هذا المكان أصلا!؟ وهل سنغادره أحياء!؟ هل سيُسمح لنا بالعودة إلى الجامعة!؟ هل سنُحاكم بعد الخروج!؟ ما مصير أهالينا ومصيرنا إن حُرمنا من مواصلة الدراسة!؟ ما مستقبلنا إن لم ندرس!؟ كيف سنُتّهم بين أهالينا بمعاداة الدولة!؟... أسئلة تتزاحم في رأسي فأتقلب بها يمينا وشمالا وأنا أفترش الرمل وألتحف السماء.. انتبهنا على صوت عماد ينادي: "الغداء جاهز يا جماعة... ...

ـ6ـ

ظللنا على وضعنا بالثكنة.. نغادرها مع السَّحر فيستقبلنا الفجر بلطيف نسماته بين الكثبان. ثم يأتلق لهيب شعاعه ساحرا كالراهب يلمع نورا وبهجة. ونودع المعسكر حين يلحّفنا الليل بردائه الحالك. لم يعد يربطنا بالثكنة سوى قضاء الليل بالخيمة أو العودة إلى المطعم منتصف النهار للتزود بالغداء. شعرنا بنوع من الحرية والانطلاق لا مثيل لهما وكسرنا نسق الرتابة المقيتة لمدة شهر حتى كان اليوم الذي وشى فيه البعض للملازم الأول فبدأ يتعقب أثرنا.. لم نتفطن إلى الأمر وواصلنا خروجنا الباكر للصحراء. وذات صباح حين جهّزنا المجلس وشرعنا في إعداد الإفطار كالعادة داهمتْنا مجموعة من الشرطة العسكرية مسلّحة يتقدّمها الملازم وقد اقتفى أثرنا.. لم نُفاجَأْ ولم نبادر بأي مقاومة أو اعتذار. فالطائر الحر لا يشتكي ولا يتذلل ولا يقاوم المقاومة اليائسة حين يقع! تحمّلنا المسؤولية وقبلنا الأمر. بادر الملازم بالتهديد والوعيد والشرّ المستطير وقال: "كنت على علم من مدة بأمركم وتعقبتكم دون نتيجة فكأنّ لديكم مع الصحراء ميثاقا واستبدلتم بها الثكنة! إنها تبتلعكم كلما أصحرتم! كنتم تغيّرون الاتجاه في كل يوم ولا تكررون نفس المكان. لقد أوغلتم صدري حقدا عليكم وأشعرتموني بفشلي. أنتم متمردون على القوانين العسكرية والعمل. ستنالون أشد العقاب". كُنّا نستمع إليه دون اكتراث لأنّ ما نحن فيه استوى فيه منطق العقوبة والصفح. نحن محبوسون في سجن أسواره من جريد ومن بيداء يسيّجها الظمأ والضياع والأوامر العسكرية. فحتّى إذا فكرنا

في الهروب فمصيرنا لقمة لمتسكعات الذئاب الجائعة والكواسر الجارحة. لقد بلغَنا مصير زملاء سابقين لنا أكلهم العطش والحر حين تاهوا في الصحراء، وعَثر عليهم بعض الرعاة جثثا. نحن نقدِّر هذا المصير ومثله. اندفع حمادي في تحدّ للملازم: "نحن مستعدّون لكل مصير، ولا يخيفنا أي تهديد ولكن لا نقبل أيّة إهانة أو تطاول، صحيح أنت المسؤول ونحن الجنود، ولكن نتحمل مسؤوليتنا في حدود القانون.." تراجع الملازم عن صلفه وقال: "لديكم عشر دقائق تحملون أمتعتكم وترافقون أفراد الشرطة العسكرية إلى الثكنة، وهناك سيكون الحساب.. انطلق بالسيارة وتركنا مع ستة من الشرطة، جمعْنا الأمتعة وانطلقنا يُحِيطُ بنا المسلّحون ونحن نتبادل الحديث والنكات والتحدّي مطمئنين إلى المصير مهما كان: نحن اخترنا ونتحمل نتائج الاختيار. وجدْنا في الصحراء فضاء يليق بحريتنا. تركنا الثقافة المغلّفة بالنفاق ورائحة المزابل تحفّ بالثكنة والغطرسة تنخر بواطنها. ووهبنا أنفسنا للحضن الطاهر نقّته أشعة الشمس وعمّدته الرمال الذهبية! لا حاجة لنا بثقافتكم المزيفة وقوانينها الجائرة... وصلنا المعسكر بعد نصف ساعة فوجدنا الملازم في انتظارنا رفقة سائق الشاحنة. قال لنا: "أنتم لا بقاء لكم في الثكنة المركزية سيتمّ نقلكم إلى "المطروحة واحد" حيث تدربْتم ستكونون في منفى داخل المنفى، وسوف نعرف كيف نتصرف معكم! فهناك ستكونون قلّة مع بعض الجنود ستُرغمون على سقي الأشجار المزروعة على جانبي الطريق، وسنشدّد عليكم الحراسة وإن كنتم قادرين على المخالفة فالمصير سيكون كارثيا! تبادلنا النظرات في استخفاف وقبول.. جمعنا أمتعتنا وصعدنا الشاحنة، وانطلقت بنا فوجدنا خيامنا التي فارقناها قد كادت تُدفن في كثبان الرمل إذْ شكّلت حولها حزاما. رأيناها أطلال الحنين والشكوى. أصغينا إلى همسها مرحبة ومعاتبة.."لك يا منازل في القلوب منازل".. شرَعْنا في تنظيفها وترتيب الفُرش وقضيْنا ليلتنا كأنّما تحررنا من ضيق الجمع إلى اتساع الفضاء في حرية المفرد كنا خمسة مع عشرين من الجنود العاديين، ومعنا رقيبان وعريف... مرّت الأيّام ونحن نبكّر لسقي الأشجار المترامية على حافتي الطريق، وفي الليل نسهر على ما حفظنا من الأغاني والأهازيج والحكايات المكررة والجديدة.. حتى كان يوم! إنه يوم زيارة بعض سفراء الدول المساهمة في مشروع إحياء الصحراء ب"رجيم معتوق"... سفراء الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا والكويت، مع وزراء تونسيين... في الليلة السابقة للزيارة أحاطنا العريف علما بها.. انتشرنا منذ الصباح الباكر على عادتنا إلى مواقع العمل: كل فردين منّا مكلّفان بالسقي من حنفية معينة... كنت مع علي الغيلوفي قد باشرنا عملنا بشكل اعتيادي وجهزنا كانونا من حطب الصحراء نطبخ الشاي

ونعود إليه بين الفينة والأخرى في مراوحة بين العمل والراحة.. تقدّمنا في السقي كدأبنا كل يوم، وأثناء استراحتنا القصيرة باغتنا الملازم على السيارة العسكرية وهو يتفقد العمل قبل حلول الوفد.. وجدَنا في موقعنا لكنّه لم يقتنع بحجم العمل الذي أنجزنا. توعّدَنا بالويل والثبور وانصرف.. حين انتهت الزيارة عاد إلينا مع انتصاف النهار في أوج الحر وأمرنا بامتطاء السيارة معه. ففعلنا ثم دخل بنا الصحراء على غير طريق وهو يُرعد ويُزبد ونحن نرتج في الصندوق الخلفي للسيارة مع ارتجاج الدواليب على الكثبان والمنعطفات حتى أوغل في اتجاه الشمال الغربي ما يفوق خمسة عشر كيلومترا. ثم توقف وأمرنا بالنزول وقال: "عقابا لكما على التقاعس في العمل عليكما الاختيار بين أحد أمرين: إن أردتم السلامة والحفاظ على حياتكم فهذه آثار عجلات السيارة في الرمال دليلكم للعودة إلى المقر! وإذا أردتم المغامرة والانتحار فهذه الصحراء أمامكم بامتدادها وشساعتها فاذهبوا أنّى شئتم ولكني أعلمكم أن أقرب مدينة لكم هي (الشبيكة) وتبعد أكثر من سبعين كيلومترا! ولكم الاختيار. ولكنْ أنصحكم باختيار طريق العودة!" قال هذا، ثم داس على البنزين وتوارت به السيارة مشرّقا... التفتّ إلى عليّ فرأيت في عينيه شعاع التحدي والإصرار. لم تكن معنا قطرة ماء في صحراء مترامية قائظة. كنا مجردين من أي سلاح يحمينا من مخاطر الوحوش والمسافة الفاصلة للعودة مسيرة يوم، وهي في الرمال المتموّجة والدوائر والكثبان أصعب من غيرها في الأرض العادية. كنا نرتدي أحذيتنا العسكرية الثقيلة تعُوق حركتنا وتزيد من بطء خطونا. وهبْ أنّ آثار السيارة أخفتها الرياح، فبم نستدلّ على الطريق. المهمّ اجتمعت لدينا كلّ عناصر الخطر. "ماذا نفعل يا عليّ ونحن بين فكّيْ العدم ألهمنا الصبر والقدرة على التحمل يا الله! زودنا يا ربّ بالقوة التي بها ننجو من النهاية الفجائعية. أيتها القوى الخارقة مكّنينا من بعض الأنفاس الإضافيّة نعيش حتى نرى أهالينا. ما مصيرنا يا ساكنا في قلوبنا وفيك رجاؤنا!؟ انطلقنا نحثّ الخطى بين خوف العطش فلا نجري أو نهرول، وخوف الزمن فالشمس لها مقدارها في مداها، وخوف اندثار آثار السيارة بفعل الريح على الرمال أو الظلمة المنتظرة، وخوف مفاجآت الصحراء الكثيرة! كان قلبي يفارق صدري ويكاد يلامس الحنجرة. والعضلات تتشنج مع كل خطوة كنت أجدّف في بحر أمواجه عاتية. كنا نسير بصمت حتى لا نستهلك الطاقة في الكلام واللّهاث يُسمع ممتزجا بدقات القلب كالمطرقة في الآذان.. تواصل السير وكلنا إصرار على العودة إلى الثكنة دون المخاطرة بما هو أسوأ.. إنَّ التّمسّك بالحياة هدفٌ لا محيد عنه ولا بديل.. قطعنا أكثر المسافة قبل المغيب، وحين بدأت أشعة الشمس تتراقص خلفنا وظلالنا تزداد طولا تسرب إلينا بعض الوجل،

ولكنّنا عزمنا على المواصلة. وبالتدرج ضاعت بوصلة الطريق بفعل الظلام الذي بدأ يكتسح الفضاء ولا هادي إلا بوصلة أذهاننا.. ترافق هجوم العتمة مع عواء متقطع لذئاب الصحراء تتسكع بحثا عن فرائس.. فكان لعوائها قشعريرة موحشة تُنبت في كامل البدن ما يشبه الشوك. زادنا الجو الموحش إسراعا فتيبّست الشفاه وجفت الحلوق وكنا نستعجل المسافة ولا أمل في الاقتراب، ولا أثر لكائن حتى سمعنا في السكون صوت إنسيّ يحث دابّة وسرعان ما تبين صوت عجلات عربة خشبية تلوك الرمال وتحدث قزقزة فأيقنا بالخلاص. هرْولنا في اتجاه مصدر الصوت وأمسكتُ بعنان البغل، وانهرْت على الرمل لا أعي شيئا وكذا كان علي بجانبي.. نزل الرجل ووضع فم قربته في فمي وضغط فانسكب الماء باردا زُلالا لذيذا لذّة العسل وهو يكنُس رمضاء اليوم.. ثم زود رفيقي بجرعة وساعدنا على امتطاء عربته. فاستلقينا فوقها ولم نستردَّ الوعي إلا ونحن في الخيمة يحيط بنا بقية الجنود يبلّون ريقنا ويتبادلون الحديث عما رواه لهم منقذنا من موت محقق...

الفصل الر ابع

- 1 -

قضينا بالمعسكر أكثر من ثمانية أشهر نلنا فيها رخصة واحدة بأسبوع فقط! وكانت تلك المناسبة الوحيدة على امتداد مدة التجنيد كلها! آلمنا ذلك ونحن نعيش مع جنود عاديين يتمتعون برخص دورية بشكل سلس! قررنا فيما بيننا نحن جنود الحصة الخاصة (أي الطُّلاب) أن نتصل بأهالينا.. فقد برح بنا الشوق وانهارت معنويات البعض إلى حدّ الإحباط والتأزم النفسي بل قل الانهيار. حتى أن الكثير من الزملاء لا يفتأ يشكو ويستذكر في أسمارنا كل ما هو خارج المعسكر بما يشبه الهوس والهذيان. وكانت أغانينا المفضلة وقتها أغنية رابح درياسة: "طالت الغربة عْليّ وتوحشت الدار.. والمكتوب كتب عليّ وطْوال المشوارْ.. يا ربي فرّج عليَّ يا كاتب لقْدار.. نرجع لهلي وامّاليَّا ونطفّي لجمار../ ولرشيد طه: يا الرّايح وين تسافر تروح تعيى وتولي.. آش حال ندمو لعباد الغافلين قبلك وقبلي.../ وللهادي قلة: (بابور زمّر خش البحر، عطى بالظهر، لأرْض الوطن عزّ الوكر.. بابور زمر خش الغريق، سالك طريق، قدا أرض غربة

تشيح الريق.. بابور زمر بالصوت عالي، ع الوطن جالي يحمل شباب ع الشعب غالي، قداه اليدين ترعش تشالي، دمع الأهالي، يلذعْ ويجرحْ شبح النظر، حرق الشفر...). كان البابور الذي حملنا ذا دواليب مطاطية يمخر عباب بحر من الرمال! وتهجيرنا ما كان للشمال بل للجنوب! وفي كلّ الأحوال ها إننا نعيش نفس الغربة! كانت هذه الأغاني وغيرها تؤنس وحشتنا إلى حدّ وتشحننا بمزيد من الشجن اللذيذ المؤلم.. كنا نتبادل بها نظرات الحنين والشّوق ودموع البعاد.. كان ما يفجعنا فعلا شعورنا بالغربة في أرضنا وتحت سطوة نظام الاستبداد وصمت الجميع عن حالنا! إننا في حاجة إلى إطفاء نار الأهالي ولهيب قلوبنا.. وكذلك لترتيب أمورنا الدراسية في التثبت من وضعيتنا التعليمية والتسجيل بالكليات.. لم نفقد الأمل في أننا سنعود يوما إلى الدراسة رغم العراقيل والمعاناة.. كل هذا جعلنا نتحدى قوانين القمع التي تكبلنا.. وتجرأنا على الخروج من الثكنة عنوة ودون استشارة أي كان.. قسمنا الأدوار في "التزرطية": أي الهروب الوقتي من الثكنة وليكن ما يكون! فجعلنا ما يشبه البرنامج الأسبوعي لمن سيغادر حتى لا نلفت الأنظار إلى فراغ الثكنة. لا نريد أن يتجاوز عدد المغادرين الأربعة على أقصى تقدير. وكلما عاد فريق غادر آخر... كنا واعين بضرورة التصرف في ظل صلف السلطة وجبروتها! في شهر ديسمبر كان دوري.. شهر يتنفس فيه ليل الصحراء مسامير من الثلوج القوقازية المتجمدة، وتزفر النسائم زفرات الجليد.. ومن شتّى بالصحراء (أيها القارئ العزيز) يدرك هذا ويتمثّله! في ليلة من ليالي ديسمبر اخترت المغادرة. منذ المساء أعلمت الزملاء بالأمر وتكتّمنا كالعادة عليه. خلعت الملابس العسكرية ولبست ما كان معي من ملابس مدنية هي عبارة عن بنطلون صيفي وقميص خفيف، لا أريد أن أجلب النظر إذا خرجت بالزيّ العسكري دون رخصة ورقية، فذاك من احتياطاتنا الإجرائية.. كنت قبل يومين رتبت السّفر مع أحد العاملين في مقاولات تعبيد بعض الطّرق المجاورة على متن آلة "تراكس"، فقد سألت سائقها وقد عرفت منه موعد المغادرة، فأعلمني وساعدني مشكورا دون مقابل. كان بقية الزملاء ينسقون السفر إلى مدينة قبلي مع تاجر القرية "العم بلقاسم" كل ثلاثاء، ينقلهم في شاحنته الـ404 باشي مع السلع التي يتبضّعها من المدينة، فكان يحمل المغادرين إلى قبلي فجرا والعائدين إلى "رجيم معتوق" مساء. كان هذا دأبنا ودأبه.. لم أُخيّر الذهاب مع العم بلقاسم لأنني استعجلت أمر

المغادرة يوم الجمعة لذا اخترت جماعة المقاول وكانوا قد أنهوا أشغالهم.. في اللّيلة المشهودة لم يُغمض لي جفن رغم إغراء الغطاء في الخيمة في تلك الليلة الشتوية الذابح قَرُّها .. ظللت أتململ حتى أزفت الساعة، كانت الواحدة ليلا، سكنت الحركة وبات دبيب الرِّجْل، وادلهمَّ اللَّيل سوادًا فلا ترى حتى يديك، كان الحارس على البوابة الجريدية "يختلج" من البرد كقصبة ريح، بحثتُ عن منفذٍ بين سعف الجريد وتسربت برفق وهدوء ومررت وأنا استعدّ للتعلّل بالخروج للاستراحة إذا هو تفطن إليّ. فما كان لنا وحدات صحية وواجبنا البشري في الصحراء رفقة قارورة ماء! تجاوزتُ السّياج الجريدي بضعةَ أمتار وفي غفلة من الحارس عدت إلى جنب السور حتى أتخفّى عن أعين بقية الحراس على أطرافه، ثم حين وصلت آخره في اتجاه الشمال حيث كان مقصدي، اتخذت وضع الزحف على مرفقيّ وركبتيّ وشرعت في التنقل زاحفا بحذر مسافة مائتي متر حتى أمنت الملاحقة وغطتني أشجار الشعَّال المتاخمة للمنبت. وقفتُ من وضع الزّحف فلم أحسّ بكفيّ أهما قطعتان منّي أم من جليد، ولا تسلْ عمّ أصابهما من وخز الأشواك والحجارة المتناثرة التي مزّقت البنطلون على ركبتيّ فدميتْ وكان بها مثل الإبر.. وقفت أعرُج كمن ثُقبت رجلاه بحديد! تحاملتُ على نفسي وأنا أكتُم حتى الأنفاس فلا أحسِّس أحدا، ولم أعد أسمع سوى دقات قلبي تنقر كمطرقة تصدّعان الأذنين بعنف مزعج. كان الظّلام رفيقي وستري وحامي مغامرتي على امتداد مسافة كيلومتر سمعت فيها أصناف الأصوات المتوجعة في الصحراء وكأنها تشاركني آلامي. هي سمفونية من عواء ذئاب أضناها الجوع وهرير كلاب لسعها البرد وتَحنان نُوق تأنس إلى حُوارها وثغاء شاة أضاعت رضيعها، فالطبيعة مؤنسة بقدر وحشتها.. انتهى بي الطريق إلى "حوش" من حجارة وطين بغرفة واحدة وسياج حجريّ، لم يكن فيه باب ولا نوافذ وقد اتخذه المقاول سكنا لعماله. اقتربت من المدخل فسمعت شخير الجماعة يغطون في نومهم، ليس من اللياقة إزعاجهم. كان المسكن صغيرا ومتهالكا وأنا قد سبقت الموعد بساعات.. لقد تواعدنا على أن يكون السفر مع الساعة السابعة، وها أنا قد وصلت مع الثانية ضمانا للسلامة.. فكيف سأنتظر خمس ساعات في العراء والبرد دون فراش أو لحاف! لم أشأ دخول الغرفة التي بها العمال رفعا لكل حرج، واستندت إلى جدار البيت الخارجي في العراء وقرفصتُ حاضنا ركبتيَّ إلى صدري وغامسا رأسي بينهما آنسُ لأنفاسي

الدافئة أُسكِّنُ بها آلامَ كفَّيَّ الجريحيْن حينًا وركبتيّ المخدوشتين حينًا آخر.. وكلَّما تقدّم الوقت كان البرد يشتدّ والألم يحتدّ ولكنْ لا مجال للشَّكوى أو التذمر ! وكنتُ لا أسمع سوى اصطكاك أسناني وأضراسي ودقات قلبي توقّع لحن المأساة الحزين... مأساة طالب يريد أن يرى أهله فيُمنع بسلطان القهر والقمع! تواصل الأمر بين إغفاءة سريعة ولسعة من برد تخز الجسم العاري إلا من لباس صيفي خفيف... حتى تنفس الفجر فكأنما فُتّحت أبواب السّماء بالفرج.

ولما تنفّس الفجر و زيّن الشفق بخيوط ذابلة أرهقها برد الصحراء، أفقت من غفوتي اليتيمة في الهزيع الأخير من الليل، كانت مزيجا من الهدوء والأرق، لم أحسَّ بالطمأنينة أو الراحة بل أفقت منكمشا قد تكوّر جسدي ولم أقدر على إطلاق ساقيّ، كان مجلسي على الاسمنت قد خلّف في لحمي ما أراد من أوجاع..(أنت يا من تقرؤني بين صفحات الورق وأنت في مقعد وثير، جرّب الجلوس مدّة خمس صفحات على الاسمنت دون أن تتوجع.. إن فعلتها فأنت صديقي ورفيق وحدتي وأنس طريقي). وكنتُ -حتى أتعافى- بدأتُ أنطّ في المكان جيئة وذهابا.. ذكرتني هذه الليلة بليلة القبض عليّ.. فقد اختار أفراد "البوب" وقتها من طابور الطلاب داخل مبيت منوبة خمسة من أصحاب الشّوارب والملتحين بدعوى أنهم قادة التحركات وزعماء المظاهرات، لا أدري أكان من سوء حظي أو من حسنه أنني كنت ضمن خمسة زملاء أفردونا بسيارة خاصة إلى مركز الأمن بوادي الليل، وكنت أرتدي نفس الثياب التي رافقتني مدة الاعتقال واصطحبتها إلى الجندية.. (كانت ليلة من ليالي الخرافات لأننا باختصار شديد ومخلّ بالحكاية وقد آلمني حتى تذكُّرها حيث كنا في بيت الراحة التابع للمركز حتى الصباح... وكفى...) والملابس ذاتها تستر اليوم سلاسل عظامي ولا تقيها بردًا ولا نسائم ليل.. أفقت وقد سبقني الجماعة وكانوا ستّة: بينهم سائق شاحنة وسائق "التراكس" وأربعة عمال.. أحضروا عصيدة ساخنة وإبريقا كبيرا من الشاي، تناولنا معا فكانت لُقم العصيدة تنزل في الحلق دافئة تمسّد برفق جفافه، وتُنشّط المفاصل.. ثم امتطيت "التراكس" مع سائقها وانطلقنا.. لم يكن في هذه الآلة سوى مقعد السائق فتسمرت بالرّكن الفولاذي الضيق بجانبه وأنا أمِيل مع كل منعَرَج أو أقفزُ مع كل مرتفَع ومنخفض في الطريق.. كانت الحركة بطيئة بطء يوم الانتظار. شرّقْنا في اتجاه مدينة قبلّي وقد بدت من الشمس أوّل الأشعّة تلامس الفضاء من حولنا ولا تبخل ببعض الدفء يتسرب من الزجاج، فكنتُ أعرض لها كفّيَّ حينا وظاهر يديَّ حينا كمن يصطلي على النار.

أنِست قليلا وأنا أتشوّق إلى لحظة الوصول. كان السائق بجانبي منشغِلاً بتدبُّر أمر آلته المتهالكة وهي تشخر لكل دوسةٍ ولا تسرع! فتتناثر من فيه عصائب من الشتائم والسباب لها ولصاحبها المقاول.. لم أجد معه مجالا للحديث وتقصير الطريق. مازالت المسافة بعيدة، إنها تسعون كيلومترا في بيداء يصفّر فيها الريح. استسلمت لطعنات الفولاذ من تحتي ونوسان الحركة يمينا وشمالا، وحين آلمني المجلس وقفتُ مُنحنِيا مُمسِكا بأحد الأعمدة الفولاذية اتقاء الانزلاق أو السقوط وأرسل بصري حولنا في الفضاء الممتد فلا أرى سوى شجيرات الصحراء مبثوثة هنا وهناك وبين الفينة والأخرى نَلمح قوافل الإبل تتهادى مطمئنة أو سربا من الغزلان يقفز مرحا ثم يختفي. وبعد ساعة من المسير لمحنا عن بعد غبارا في الطريق يعترضنا، فأوجست خِيفة، وقال لي مرافقي: "لابد أن يكون غبار سيارة عسكرية وقد يكون بها أحد مسؤولي الثكنة، عليك أن تختبئ حتى لا يراك! إنهم يفتشون السيارات والشاحنات غير العسكرية بحثا عن الهاربين أمثالكم! "فاندفعتُ خلف مقعد السائق وتمدّدت على الجسم الفولاذي لاذع البرودة، وأحطتُ بجذع الكرسي تحته حتى أختفيَ عن الأنظار.. ظللْتُ على تلك الحالة حتى أوقف السائقُ آلته على صوت أجشّ وإطباق باب سيارة، إنه الملازم فلان، المشرف على سريتنا في الثكنة وصاحب الباع في الانتقام والشر. أيقنت من الوقوع في كماشته فتسارعت دقات قلبي وكادت تفضحني. أطلّ الملازم على الداخل وفتّش بعينَيْه الناريّتين كل أركان المكان. ومن حسن حظّي لم يتفطن إليّ وانصرف. فاسترجعت أنفاسي المكتومة وتنهدت بزفرة طويلة انطلق معها السائق من جديد. كان رجلا متعاونا أصيلا من رجال نفزاوة الأحرار. استمرت الرحلة أربع ساعات كاملة ذقت فيها من ألم الانحناء والغثيان ما نلت.. وصلنا حوالي منتصف النهار إلى المدينة فشكرت رفيقي وودّعني.. قفزتُ من التراكس ولامست قدماي أرضية الطريق الإسفلتية لأول مرة بعد خمسة أشهر. لم أصدق ما أنا فيه: حين خطوت الخطوات الأولى ترنّحت وتمايلت حتى كدت أسقط! لقد كان جسمي خفيفا كريشة في مهبّ الريح، فاجأت قدميَّ صلابةُ الأرضية فلم تنسجما معها وهما اللتان تعودتا الغوص في الرمال بحذاء عسكري ثقيل! كلّما خطوْتُ خطوة ظننتُني سأطَلِّق الأرض وأطير، كان شعورا رائعا بالخفة والحرية لكنه ممزوج بالخشية من السقوط والخجل من إثارة انتباه المارّة. حاولتُ التّماسك وأنا أخْطو ببطء كصبي في أوّل عهده بالمشي! يا الله! ألهذا الحدّ فقدتُ القدرة على التحكم في حركتي!؟ هل نجح النظام حتى في تغيير حاجاتنا البيولوجية وأبسطها المشي!؟ كم كنت أرثي لحالي ولكنّ نشوة الخلاص والحرية حفزتني للاستمرار في المشي نحو محطة السيارات المتجهة إلى مدينة

قفصة.. تدربت قدماي على الطريق إلى حدّ ما، فكنت أنطّ حينا في حركة كالرقص وأتمايل ثم أتماسك وتعلوني ابتسامة عريضة من ابتسامات الزهو والانتشاء.. وصلت المحطة وليس في جيبي مليم أبيض.. لم تكن وسائل النقل متاحة بين الولايات. سألت عن الحافلات فقيل لي لا توجد! تركت المحطة وسلكت طريق قفصة ثم توقّفت أنتظر لعلّ الله يمنّ عليّ بابن حلال يُنقذني... بعد انتظار ساعة توقفت شاحنة 404 باشي على إشارتي فركبت. كان صاحبها من تجار التمور يريد سوق ماجل بلعباس يصادف يوم السبت. سألني عن الوجهة فأعلمته، لم يتردد في اصطحابي له. كان لي كالملاك أرسلته السماء لإنقاذي. ارتميت على المقعد وغرقت في نوم عميق. نوم من نسي السّهاد ليلة كاملة، ولم أصحُ إلا على صوت صاحبي يقول لي: "انهض، فقد وصلنا".. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب واصطبغت أشعتها بلون الدم تتسرب من الزجاج الأيسر لنافذة الشاحنة. نزلتُ عند مدخل قريتي التي لم أرها من مدة طويلة وأنا أمنّي النفس باستقبال الأبطال.. عند مدخل القرية الساكنة سكون المقبرة بجانب محطة البنزين.. قرأت اللافتة (ماجل بلعباس ترحب بكم) .إنها "الفيلاج" حسب تسميتها الحضرية التي يتباهى بها كل من يتسوّق إليها! التفتّ يمينا وشمالا ممنّيا النفس برؤية من يبدي اهتماما بشأني..كان ثلّة من أعيان البلاد يتّخذون من المقهى المجاور فضاء لجلساتهم المسائية المألوفة، وفيها يرتبون شؤون المنطقة حسب تعليمات سادة القصر وعمالهم بالولاية وعملائهم هنا! التفتَ البعضُ للغريب النازل من شاحنة عابرة. عرفوني لكنهم تبادلوا الحديث على مسمع مني في حركات استفزازية:

- آآآآ هذا آكه فلان ولد فلان!

- ماو كان في العسكر!

- هام سيبوه!

- علاش زعمة!؟ هيه تلقاه مزرطي!

- هاو لابس سيفيل!

وعادوا يقهقهون إمعانا في الاستهتار!

استوعبت الرسالة.. كان هؤلاء جماعة من مريدي التسبيح للتماثيل والسجود في معبد الوثن.. تتصدّر مجلسهم جبةُ صفراء "فاقع لونها تسر الناظرين" ولحفة بيضاء شفافة هي مركز حلقة الطقس الوثني الدائم في الفيلاج... وحولها تحلّقت مجموعة المريدين والدراويش من سدنة المعبد والكهان تتنافس في استرضاء الحَبْر الأعْظم بالتّناوب على النفخ على ولعة الشيشة أو

تغيير "المعسل" أو حمايتها من هبوب النسيم. وبين الفينة والأخرى تتعرى الأضراس الصّفراء الكبريتية في قهقهة مجاملة سمجة من الجوق البائس حول ضابط الإيقاع المتعالي.. واصلت الطريق الوحيد الذي يشطر القرية نصفين. كانت مجموعات من البرانيس والقشاشيب تغلّفها بقايا أوراق متناثرة وغبار وهي متكورة تحت جدران الدكاكين منشغلة بلعبة "الخربقة" والأصوات تتعالى من هنا وهناك ("إش.. كلبك مات.. غور والا خلي نغور..") كان المسلك خاليا "لا غريب عنده" (على صورة ابن القارح يعبر الصراط) تُفاجأ الوجوهُ المغبرّةُ المثيرة للشفقة بالوافد الغريب. وتتبادل نظرات مستفسرة وحركات متعجبة.. ثم تعود الرؤوس للانغماس والطأطأة على بساط الرمل حيث تتوزع "كلاب الخربقة" تتصارع بين أصابع اللاعبين المعفّرة الماهرة! رأيتُني منبوذا كمن نزل من كوكب آخر! التمست لهم عذرا! "لعلّهم لم يعرفوني أو هكذا تأولت اللاّمبلاة"! كنت متأكدا أن خبر اعتقالي وتجنيدي ظل حديثَهم المفضّل على امتداد أشهر وتبادلوا في شأنه التحاليل والتأويلات وحتى الشماتة وربما التعاطف.. لكن مع الذي رأيت بأمّ عيني أدركت كم أنا وحيد بين الجمع وكم أنا غريب في أهلي وعشيرتي! تقدمت أمضغ الغصة وأتجرع المرارة إلى دكان أحد الأقارب. وكان مع جُلّاسه يطبخ الشاي.. سلّمت عليهم فردوا بحياء عجيب وريبة وهم يجرّون عيونهم المتراخية جرّا! "أنا الذي فارقتُ المنطقة منذ ثمانية أشهر لا أحد يرثي لحالي أو يُشعرني بالتعاطف! تهيأ الجميع للوقوف كمن حاق بهم خطر. وغادروا المجلس بدعاوى مختلفة. أدركتُ أنّ قدومي نغّص عليهم مجلسهم وأربك هدوءهم وأحرجهم. ما كان يجدُر بي أن أمر بهم أو أسلم.. تجرأ صاحب الدكان لينهال عليّ بوابل من الأسئلة: "آآ..فلان!؟ ياخي سيبوك؟! إيمتَى سيبوك!؟ وكيفاش سيبوك!؟علاش سيبوك!؟ ولاش ماكملتش العام!؟".

لم يكن يشغل صاحبي سوى أمر الإفراج عني وسببه وكيفيته، وكأنه يستنكر ذلك! فأنا تُهمة تتنقل في الأرض وليس من حقي الحرية. ووقوفي أمام دُكّانه أفسد عليه وعلى جلسائه لذة العشوية والشاي الأحمر اللذيذ وحكايات الغَيبة والنميمة! لم يسأل عن حالي ولا عن وضعي الصحي والنفسي. لم يُبد تعاطفا ولا مجاملة ولا حتى حيادا! هههه... فهمت أنني كنت واهما، وأنني ثقل على أهلي في قريتي وأن وجودي بينهم في تقديرهم عارٌ ! أدركت أن آلة النظام غسلت الأدمغة ولونتها بلون بنفسج الرعب والتحفّظ والخوف والإشاعة والأسطورة، وأن كل معارِض لاختياراته خطر على البلاد! خشيت أن يعمد بعضهم إلى الوشاية بي وأنا في زيارة غير قانونية! انسحبت من المشهد وقد شرع صاحب الدكان في إغلاقه تفاديا لكل إحراج خاصة أن أجواره

قد اصطفوا أمام دكاكينهم يستطلعون ويرمقونني بنظرات الازدراء! غمرني شعور بالغيظ ما حسبت له حسابا وما تصورته في أقصى حالات التشاؤم. "أنا لست سوى عنصر غريب ودخيل على الجسم القبلي المنسجم المطمئن للسبل المسطورة! وأنا شاذ عن القاعدة! قلت في نفسي : "لو كنت أعلم بهذا الاستقبال الحافل المشهود لمررت دون دخول القرية! ماذا لو وقفت بينهم وناديت بأعلى صوتي: "يا أيتها الجسوم بلا عقول! يا أيها المساكين تُساقون إلى حتفكم ولا رأي لكم في اختيار المصير! طالما توهّمنا حمل أحلامكم وتطلعاتكم وتبنّي قضاياكم! نحن طلاب الجامعة ندعي ريادة الفكر والتغيير وقاطرة الوعي والتحرر من وصاية البؤس السياسي والفكري! هل نحن غالطون حين تجرأنا على حمل رسالة شعبنا في الحرية والمساواة! كم أنا يائس وحزين! يا لبؤس هذه العيون الشاردة المفتحة العمياء! "كنت كمن يصيح في جوف واد سحيق لا يسمع إلا تردد صدى صوته الجريح، أو كلاهث خلف سراب خُلّب في صحراء بلقع يروم قطرة من ماء تطفئ له صداه! وددت والله لو انشقت الأرض وابتلعتني ولا أقف هذا الموقف! كم عجبت لهذه الأقدام الرثة النعال تدوس كرامتي بمثل هذه الغباوة والصلف! إنّكم مدعاة للشفقة يا أبناء جلدتي وعشيرتي المنسية في قرية حدودية تقتات على فتات التهريب وصدقات الحزب الملغومة! أنا المخطئ. فعذرا! أعتذر إن أنا لوثت صفاء عيشهم بترهات الوعي الشبابي الموهوم ! كدت أقول كما قال الشّابي "أنتم لستم بأهل لخمرتي ولكأسي"! لكن تحفُّظَ الانتماء وحياءَ الأبناء منعاني من ذلك! تركت القرية وقد أذّن المغرب.. وسلكت الطريق الترابية المؤدية إلى الكرشون: الريف المنبسط بين جبل الناظور وحدود منطقة صولة.. هناك تنتظرني قلوب مكلومة عمّق الشوق مواجعها وأحضان دافقة بالحب والود غير المزيف.. طريق تعودتها صبيّا أيام الابتدائي، أعرفها كما جيبي.. بمنعطفاتها ومنحدراتها وهضابها وصخورها الكبيرة وحتى شُجيراتها ونباتات الحلفاء المنتشرة على جنباتها. كانت عشيرتي لسنين الصبا الست فيها تذوقت ما حلا كالشهد وما كان علقما. أرسلت ساقيّ مسرعا أتخيل أحوال كل فرد من العائلة: سنّه وطوله وصحته، ومدى تغير شكله، ولباسه، وحركته، وكيف سيكون استقبالي؟ وهل ستعاملني عائلتي مثلما رأيت في القرية؟! كانت الأسئلة تزدحم فتحثّ الخطو لما يشبه القفز في تردّد بين الشوق والانتظار.. قطعت مسافة الكيلومترات السبعة في وقت قياسي وكانت تحفني من جنبات الطريق أنوار المواقد الشتوية تطرّزُ الريف الممتدّ من المحروق إلى وادي صولة كنثار من كواكب لألاءة. كنت آنس لها فاستحثّ المسير. وحين أشرفْتُ على ربوة الهنشير المجاورة لمنزلنا تأملت الفضاء مليّا رغم زحف الظلام، فرأيت أشباحا حول النار: إنهم إخوتي

يلهون بأعواد الحطب وأقباس النار ويتهارشون.. تسمّرت في المكان ولم أقدر على كبح جماح دموع حرّى تعسفتْ على الكتمان وانهمرت كالمزاريب قبل لحظات اللقاء...

... كفكفت دموعا غدرت صمودي وتحدت تحملي لها أشهرا.. الحمد لله أنها تفجرت قبل لقاء الأهل حتى لا أنهار بينهم وأبدوَ ضعيفا منينا ونادما عما وقع! كان الكتمان والمداورة في المشاعر دأبي في الحياة! لا أُظهر ضعفي ولو في أحلك الحالات. لا أدري كيف حملتني قدماي إلى البيت بسرعة عجيبة.. كنت أطير بجناحين ولست أسير! وجدتُني على مشارف الصبية وهم كفراشات حول النار تزدحم أكفهم الصغيرة وتتبادل العبث الطفولي الطاهر. لم يشعروا بي إلا على صوت الكلب يتودد مرحّبا ويبصبص متعرفا على زائر الليل. لم يصدّق الصبية الأمر: من هذا الشبح المتسلل مع خيوط الليل والمتشح بالسواد!؟ من هذا الذي يرحب به الكلب ويجري أمامه في التفات وزهو ولم يرحب به الإنسان! صاحت أختي الكبري: إنه فلان أخي! والله إنه هو! واندفعت نحوي فاتحة ذراعيها كجناحين من الشوق والحنين وارتمت بين أحضاني وانهارت بين شهيق وزفير ودموع أغرقت خديها.. ثم تعاقب البقية يسلمون ولا يُفلتون جسدي النحيل إلا وقد تبلل وجهي ووجوههم بسيل من العبرات وينتحي كل منهم ناحية وهو يمسحها ويسترق النظر لي متسائلا: أين كان أخي!؟ وما له بهذه الحالة!؟ ولماذا غاب كثيرا!؟ وهل صحيح ما قيل عنه؟ أسئلة كبيرة وكثيرة تصدر عن قلوب صغيرة! ثم تقدم أبي ليسلم بهدوء ومكابرة حتى لا يغلبه الدمع فينفضح ضعف مشاعره. أحسست حين ضمني إليه أنه يشفق ويعاتب في آن! وكانت أمي تنتظر لحظة الاندماج الشعوري والحلول الجسدي والروحي الحارق. فهي حريصة مثلي على مداراة المشاعر وكبت العواطف. أجّلتْ بإرادتها اللقاء الأثيل. ليس من طبعها الاندفاع ولا التسرع حتى في التعبير عن الأحاسيس. يا الله.. كم هي قوية وصامدة كالطود الشامخ لا تهتز ولا تنحن ! في غمرة دفق المشاعر اندفعت إلى حضنها كالظمآن المتلهف لنُغبة ماء! وطوقتها وطوقتني. واهتز جسمانا بغصة كتمناها طويلا! يتنازعني فرح اللقاء ونشوته في مقابل قهر الغبن والبعاد! دسست رأسي في لحافها الدافئ أعبّ من شذا مسك تضوع من الطبيعة اكتظت في خياشيمي روائح العنبر وعود القرنفل الفواح. ما كانت أمي إلا الطبيعة تختزن عطر الشيح والزعتر والسنابل وعرق الجهد والكبرياء! امتصصتُ من عطرها طيبَ العشق المعتق المكتوم. لم نكن نبوح لبعضنا بالحبّ قولا بل نمارسه فعلا في نظرات الشفقة والود والتشجيع والعناد. كانت عيناك العسليتان تفضحان ما تخبّأ من جارف العواطف والكبرياء. ولم تكن تفك قُفل المشاعر والحنين المضمخ بالوجد خوفا عليك من عنف الذوبان

في العالم السحري الأخاذ.. أنت في عينيها هي فقط رجل مكتمل الوعي والرجولة، ولست عودا غضّا طريا كما يراك سواها.. هي وحدها تقدرك حق قدرك وإن تهامس الآخرون بما دون ذلك غيرة منك وحسدا لك و"تغبيطا".. المهم أنك احتويتها واحتوتك جسدا وروحا، في هذه اللحظة اللذيذة الهاربة من جبروت الزمن. كنت تحتضن فيها النخلة الباسقة المتجعدة الأعذاق والجدائل و"المتعثكلة القِنْوِ". لم تستطل مدة العناق وهي تربّت على كتفيك مشفقة ومستلذة عودة العود إلى الشجرة.. عناق بين جسمين يرتدان إلى نشوة البدايات يوقّعه الصمت الناطق بلحن من الشهقات والزفرات! يا الله كم هي قصيرة هذه اللحظة وإن طالت، واللذيذة وإن آلمت! أيتها الشّمس الخرساء الآفلة خلف السواد أضيئي لنا الرّكح واعزفي يا طبيعة الشتاء الألحان وقدمي الجوق ينقر إيقاع نشوتنا المؤجلة المنسية! استهواني حضن أمي المفعم بالدفء والاعتزاز، فوددت لو أغفو إغفاءة ليس بعدها صحو! لكنّ النخلة أحست بنكء الجرح فتناولت وجهي واقتلعته من حضنها اقتلاعا. فكان ينزف دمعا حارقا ولظى.. نظرت في عينيها فاخترقت شهب بصرها مقلتيّ، واستقرت في أعماق الحشى نِبالا متّقدة جامحة معطرة بالحنين. تمتمتُ خجِلا "يا الله كيف نخجل من لحظة مؤجلة من النشوة الشجية؟" هكذا تعودتَ دوما كبت مشاعرك وقبر أحاسيسك. فكأنما تشك في كل شيء وتشك حتى في ذاتك! الآن انتهى الشكّ وزالت الرِّيَبُ. آن لك اليوم أن تستردّ طفولتك المسروقة وشبابك المرتهن.. أيتها الطبيعة، أيها الملأ، أيتها الأجسام الطائفة حولي والأشباح المتفرّجة في الملإ غير المنظور، أيتها الأصوات المزدحمة في رأسي وفي أركان الكون: لقد تحرر النسر السجين وخلّع الأقفال وحطّم الأقفاص! و ها هو يجنّح فوق الطيور وفوق الشِّعاب وعلى ذُرى الجبال يفتت بعزم لا يُفلّ ترّهات الوهم، ويقف شامخا مزهوّا في القمة! صحيح أيها الملأ إن القمم أشكال ولكن قمة القمم هي الشعور بالرضى عن النفس والانطلاق كالسهم من الوتر لا يتراجع ولا ينثني". تراخى ذراعاك عن حضن أمك وتراجعتَ في ابتسامة صادقة مجلجلة نقية والتحقت بالمتحلّقين حول الموقد الشتوي المتقد الجمر. كنت تربت على هذا من إخوتك وأخواتك وتداعب الآخر وتتظاهر بالتماسك رغم لهيب البواطن وتخلخل البنيان ثم بدأ الاستعداد لاحتفال يليق بالمناسبة الاستثنائية. فكانت ليلة كالوشم في جبين العمر المتسارع ذي النتوءات والتجاعيد...

قضيت بالكرشون "العظيم" مدة ثلاثة أيام، كانت مهرجانا مختلف الفقرات تشبعت فيها كل جوارحي من عبق التربة والحلفاء والزيتون والشيح ما به هددتُ فِطاما قهريا ومسغبةً دامت شهورا. ثم عزمت على الرحيل إلى الشمال حنينا إلى موطن الضاد. رحلة هائم بالقلم والقرطاس ومُتمرد على الرفش والفأس! إلى كلية الآداب بمنوبة كانت الوجهة، معقل النضال والفكر والسجال. لابدّ من استكشاف الأوضاع وزيارة أصدقاء ظفروا بالخلاص من بطش الاستبداد، وكذلك لترتيب بعض المسائل الإدارية والاطمئنان على وضعي الدراسي. ملأت جراب القلب بما يحتاج من زاد المسافر من الحنين والشوق. وامتطيت حافلة الليل العابرة للفيلاج من قفصة. وصلتُ الكلية قبل الشروق فقادتني قدماي إلى الحقول المجاورة الموشحة ببساتين البرتقال والتوت والإجاص والتفاح الناهد، وبحقول الـ"قنارية" والزرع المنساب مع النسائم.. إنها الجنة المفقودة في الكرشون وما جاورها: هنا كنا نتجول بكراريسنا نراجع مسائل البرنامج، وفي شجرة التوت تلك كم تظلّلنا بين أوراقها الوارفة نحفظ من الأشعار شواهدَ للامتحان. كم حفظنا ونحن معلّقون بين أغصانها للسّيّاب وخليل حاوي وشوقي وأمل دَنقل وبشار وابن الأبّار وابن الزقاق وأبي فراس! ومن حين إلى آخر تمتد أناملنا إلى حبة توت شهية نُحلّي بها ألسنتنا ونستأنف الحفظ والتّرديد كما لو كنا في كُتّاب! وفي الحقل المجاور كم سطوتُ رفقةَ علي الغيلوفي وعبد الباسط الفقيه والناصر أولاد أحمد ونور الدين الغيلوفي والعلوي ومحمد بن عبد السلام وآخرين على بعض رؤوس بصل ربعي وحبات طماطم وقرون فلفل نفوّح بها مقرونة يوم الأحد الكذّابة أو محمصة الساعة الثالثة ليلا لما يستفرد بنا الجوع. كانت ذكريات منوبة منتقشة في القلب لا تمّحي ومازالت.. أزفت الساعة الثامنة فدلفت مع جمهور الطلاب يحثّون الخطو في سكون ومذلّة غير معهودة. يمرّ الطالب أمام الباب ويرتبك حين يصرخ في وجهه الفيجيل: "أين بطاقة الطالب؟! بسرعة"! صدمني المشهد وتمتمت "يا للعار قلعة منوبة أُحتلّتْ يا رجال! كانت عصية على النظام فإذا هي الآن مرتع له ولانتهاكاته وبطشه! لقد دُجّنت وسقطت سليبة كفلسطين! الحقّ أن شعور العداوة للقمع لم يتغير ومن حسن حظي كنت أحتفظ ببطاقة الطالب للسنة السابقة، استظهرت بها فلم يتفطن الشرطي إلى سنة إصدارها، دخلت مع الداخلين الصّامتين صمت الجنائز فكأنما ضُربت عليهم المسكنة.. كنت عقدت العزم على المغامرة، وليكن ما يكون! أنا في القانون طالب معتقل ومجنّد، فلستُ هنا وإن كنت هنا! وإن اعتقلوني من جديد فلا يضرّ ذلك في شيء، لن أحاكم مدنيا على الأقل، فأنا

في عهدة وزارة الدفاع، وفي أشنع الحالات سيعيدونني إلى المعتقل.. ويكون ذلك مجانا (على عبارة علي الغيلوفي) فأكسب ثمن السفر إلى الجنوب! أعترف أنني كنت في غاية الاستهتار واللامبالاة بالمصير.. واستبدّ بفكري منطق عبثيّ في جوّ عبثيّ في نظام عبثيّ. فهل أكون أنا وحدي الاستثناء!؟ أكيد عليَّ الانسجام ولو لمرّة مع السائد! كان الجوّ في الكلية النابضة بالفكر والجدل وحلقات النقاش والاجتماعات قد خمد، فهي ساكنة كالمقبرة والطلاب أشباح أموات في حركات هائمة بلا روح ولا معنى.. وحتى إطار التدريس كان يمارس أدواره الغامضة في كليته التي استُبيحت بتعلّة ضبط النظام! آلمني ذلك وانفتحت في القلب جراحات.. اتجهت إلى المشربة فلم أرَ سوى طالبات كاسيات عاريات ملطخات بالمساحيق والبذاءة والسجائر، وبعض الطلاب يدخّنون بنهم مكبوت ويهمسون خوف الواشي من رفاقهم أو البوليس المزروع في الطاولات! زاد ألمي، أخذت قهوة بلا طعم ولا يفوح منها عطر البن المعهود، أو هكذا تخيلتُ. خرجت إلى بهو الساحة حيث "صخرة سقراط" الوهمية، كانت بؤرة تحلُّق الطلاب في الاجتماعات يتزاحمون حول الخطيب من هذا التيار أو ذاك وتشرئب أعناقهم إلى التقاط جملة أو تحليل أو خبر وتلك كانت نشوة الجامعة... هاهي الصخرة خالية لا رائد يرتادها ولا منصت يصغي لخطيبها وحتى الطيور هجرتها، آلمتني. كانت خاوية على عروشها، طلل محل يستحق المراثي والبكاء! مات كل شيء وصُلِب المسيح على مرأى من بني إسرائيل وتحريضهم. ومازالوا يجوبون ردهات الفضاء وظلال الشجيرات الباسقة ويدنّسون البساط "القازوني" الأخضر الندي! بل هم يخصّرون من الفتيات من استهواها بطش السلطان وإغراء الأعوان! أي معنى للحياة أيّها الطالب الجندي المتمرد والواهم بالثورة والمُحْرِق أصابعَك على البلاد! انتبذتُ من الساحة مكانا قصيا وعببتُ من التبغ سجائر متتاليات وكدت أصرخُ: "أين أنتم يا قادة النضال الطلابي المزيّفين من الوضع اليوم!؟ كيف تؤججون مشاعر الصادقين من وقود المعركة ثم تنسحبون كالجرذان إلى جحور هيأتموها لهروبكم المشبوه.. أكاد أقول إنّكم عيون السلطة وأدواتها! لماذا لم تقعوا في الاعتقال واتخذتم ملاذاتكم لياليكم الحمراء الصّاخبة أو لتراتيل الدراويش المعتوهين! تبا لقيادة لا تقود! وتتحين فرص الخلاص الفردي في لحظات احتدام الوطيس بعضكم معارض للنظام ويتب مقالات في جرائد النظام! أليست تلك أوضح علامات الخيانة؟ ظللتم كالببغاوات الملقَّنة التّافهة تجترّون ما قال ماركس وأنجلس وتروتسكي وماو وتشي وأنور خوجة وتحفظون ما كتب ابن تيمية والمودودي والخميني وسيد قطب وكشك وتتقيؤون ترهات عصمت سيف الدولة وساطع الحصري وميشال عفلق وأنتم لستم سوى

سجناء صفحات الكتب الصفراء التي عشش فيها العنكبوت والأرَضة وفي أمخاخكم، وهي لا تقدم ولا تؤخر! ظللتم تتهارشون كصبية الرعاة على معاطن الماء وتتناقرون كالديكة حتى تدمى مذابحكم، ولا تفتأ مناقيركم تنكأ بعضكم وهي غارقة في فضلات المزابل، وترفعون عقائركم بالصياح الزائف والأكاذيب (فلسطين عربية.. سحقا سحقا للرجعية!)، ويرد الآخرون: (فلسطين إسلامية.. لا حلول استسلامية!)ويصرخ غيرهم: (طلاب الأمة العربية.. دوسوا، دوسوا ع الرجعية!)ونسيتم الأصل.. يا للعار! هل حررتم أنفسكم أولا من نرجسية القيادة والزعامات الكاذبة؟ بعضكم ممن يعتلي منبر سقراط الطاهر يثرثر ما يثرثر وحين ينزل يلتفت إلى صديقته أو عشيقته ويقول "هل أعجبتك في التدخل والخطاب؟" فكأن همّه مما قال إرضاء صاحبته والتباهي أمامها ثم ينسحب بها إلى خلوة بين الأشجار... تبّا لنضال مزيّف وتبا لكم يا خطباء مهزومين ومناضلين مهزومين وجمهورا مهزوما... هل حررتم فلسطينكم التي على أرضها تعيشون أولا!؟ هل استفدتم من تجارب الأصنام الفكرية التي لها تسجدون، وإلى سفارات دولها تحجون!؟ هل آن لكم الوعي بأن النظام يتَلهّى بصراعاتكم ويستمتع، ويغير التحالفات معكم من أجل ضربكم وأكلكم يوم أُكل الثور الأبيض!؟ كان يمارس معكم لعبة مُحكمة الإتقان وأنتم غافلون، وهيأ لكم مسرحا فيه تتقاتلون في نزال عبثي حتى الموت مثل "القلادياتور" في مسارح الرومان وهو في المدارج يدخن من أنفاسكم نرجيلة التفاح معطرة بأحلامكم، ويعبّ من دمائكم شراب النشوة زكيا! كانت فلسفته الخبيثة بسيطة بساطة أدمغة الأنتليجنسيا البائسة الثملة بالنظريات وخمارات الأزقة الملتوية أو مقاهي النخبة النكبة في الكوليزي! إنها فلسفة "فخار يكسّر بعضو"! هههه! يا لعار الفكر المؤدلج بالعداوات الراديكالية الإقصائية الغبية! لا أستثني أحدا! "يا حكاما مهزومين" ومتعلمين -لا مثقفين- مهزومين ويا شعبا مهزوما! أكاد أقول قول القائل: "ما أوسخنا.. ما أوسخنا... ونكابر ما أوسخنا! "... هذه منّوبة الغرّاء كان لها في كل موقف سطوة وفي كل محطة نضالية بلاء وأي بلاء! أسأل أخيرا هل فكر زعماء النضال وقادتهم في طلاب المنافي!؟ هل تحرك الطّلقاء من أجل السجناء!؟ لم نسمع بخبر في هذا ولا في ذاك... أعدمت عُلبة السجائر الكريستال في نهم وانتقام.. ثم لملمت شتات الفكر وأحلاما دفناها في صخرة سقراط.. وجمعت عظامي من المقعد الخشبي وأطلقت رجلي في حركة لولبية إلى باب الخروج وأنا أردّد في هذيان: ماتت كلية الآداب... ماتت منوبة... يا خسارة.. ويا حسرة على الرجال...

تركت الكلية وأنا جريح الخواطر أردّد: ماتت منوبة. (ضاعت القِبلة فلا شرق ولا غرب يحوينا تبخّرت أحلام الأجيال)، ثم اتجهت إلى فرع العمادة بمنوبة أستقصي خبر الترسيم.. دخلت المكتب وعرّفت بنفسي للموظفة: "أنا طالب مجند، أريد أن..." ففزعت المرأة كالملدوغ وهمّت بالوقوف!". لماذا ينفر منا بنو جنسنا وهم يعلمون ما سُلّط علينا من ظُلم وإجرام"! سألتها مستغربا: "هل قلت ما يدعو إلى الانزعاج؟ يا مدام؟! " فارتبكت وهمهمت بما لم أفهم، ثم أجابت: "بصراحة، أنتم وضعكم خاص ولست مؤهلة للإجابة عن طلبك!

- ولكني مازلت لم أطلب شيئا!

- أعرف، ولكن بمجرد قولك إنك مجند فأنا.....

- أنتِ ماذا؟ هل نُمثل خطرا على الكلية!؟ هل قيل لكم إننا نحمل فيروسا خطرا يهدد الوجود البشري والوعي البقري السائد؟! هل نحن وباء تخشون منه العدوى؟! هل...

- لم أقصد ذلك ولكن موضوعك معقّد وحلّه عند العميد...

تركتها وأنا أرثي لحالها.. وامتطيت الحافلة نحو مقر العمادة بكلية 9 أفريل. صعدت الدرج ثم طرقت الباب ودخلت.. كان الدكتور عبد المجيد الشرفي يتصدر مكتبه كالأسد ببدلته المميّزة وغليونه الأنيق يوقّع بعض الوثائق، رفع بصره بهدوء وسمح لي بالجلوس:

- تفضل واسمح لي أكمل بعض الوثائق..

- حاضر أستاذي

أنهى العميد ما بين يديه وسألني باهتمام:

- ما هي مشكلتك؟

- أستاذي، أنا طالب مجند ومازلت على ذمة الخدمة العسكرية، وأنا في رخصة وأريد معرفة مصير الترسيم لأني مهدد بالطرد إذا استوفيت حقي.. (الحق أنني جانبت الصواب، فرخصتي ليست قانونية)...

أظهر الرجل مزيدا من الاهتمام والجدية ولمحت في عينيه شفقة ممزوجة بالتذمر..

- لا عليك، سننظر في الأمر، ما اسمك؟ وشعبتك؟ (...) ثم اتجه إلى خزانة بجانبه وسحب ملفا وشرع في تقليب أوراقه، وتناول إحداها وقال:

- أنت يا فلان مجند منذ شهر أفريل الماضي ونحن في ديسمبر وقد مرت سنة جامعية ولم تُجر الامتحان، فأنت في حكم القانون راسب وضاعت عليك السنة، ويُحتسب ذلك من رصيد حقك في الترسيم!

- لكن يا أستاذ أنا وزملائي في وضع خاص!؟
- أعرف ذلك.. وقد اجتهدت بالتنسيق مع الوزارة لمعالجة هذا الوضع.. والمسجّل لديّ هنا أن أحد زملائك اتصل بي سلفا في شأنك وسجّلت اسمه هنا.. إنه... إنه... إنه علي الغيلوفي، هل تعرفه؟
- طبعا أستاذ، هو زميل وصديق ورفيقي في المعسكر..
- إذن، لا تخشَ شيئا، أعدكم جميعا أن نسحب لكم الترسيم وإن كان الموعد متأخرا حتى لا تخسروا دراستكم!
نزل علي الكلام بردا وسلاما! أخيرا يا رجال أرى في بلادي من يحترم إنسانية الإنسان! أخيرا أرى صورة من صور الأبطال! كيف لا وقد تفتّح البُرعم الذي في أحشائي ولم تذْوه مُحرقات سَمومهم! أوشكتُ أن أقَبِّل رأس العميد لولا حياء المقام..
استأذنت وخرجت كأنما تسلمت صكّ الغفران! لم تحملني في منعطفات المبنى قدماي.. كنت طائرا بلا جناح.. أنشر التحية يمينا وشمالا وكنت في حلم لذيذ. رأيت شارع 9 افريل أمامي مزدانا بمارة من الملائكة لا من البشر! وأصوات السيارات تناهت في مسمعي معزوفات رائعة.. لابد لك يا طائر الفينيق أن تعانق أمجاد الحلم الوردي، وتبشر الوالدة أنك لم تُهزمْ لا بدّ لها أن تعلم أن شبلها لا ينحني للعواصف ولا لعاتيات الأنواء. استعجلت العودة إلى الكرشون فاستقللت أول حافلة للعودة.. وصلت (الفيلاج) في الساعة الثانية ليلا.. نزلت عند تقاطع مقبرة الشهداء ودخلت الظلام نحو الكرشون مستأنسا رغم الوحشة ومرفوقا بأحلامي رغم الوحدة.. كان اللّيل غير اللّيل، والطريق غير الطريق. كل ما هو حولي يحتضنني بألفة لذيذة وعجيبة: همسات النسائم الديسمبرية الثلجية تُذيبها من جسمي أنفاس النشوة الدافئة المتدفقة من باطني! يا الله كم يستطيع الإنسان تغيير الموجودات وتحدّيها! هذا سر عظمة الكائن البشري! وصلت البيت بعد ساعة، لم أزعج النائمين وتسللت إلى مرقدي بغرفتنا الغربية.. وتكورت رغم لسعات البرد وضعف الغطاء حتى الصباح... أفقت على أصوات أفراد العائلة يجهّزون بعض إخوتي للمدرسة، وانهمك آخرون يسرّحون قطيع الغنم على صوت أبي المجلجل تنبيها وأمرا وعتابا وحتى سبابا.. لم يتغيّر ريفُ الكرشون والشتاء يمارس فيه طقوسه الأزلية من البرد والصخب والآمال المعلقة على أمطار قد تأتي وقد لا تأتي.. تكاسلت في الفراش ثم نهضت ولطمت وجهي بحفنات من الماء البارد كانت في مشرب حذاء "النّوالة". فُوجِئَ الجميع حين رأوني. وانهالت عليّ الاستفسارات بتعجب:

- "متى وصلت؟! ولماذا لم توقظنا! وماذا فعلت في تونس!؟ وهل قضيت شؤونك هناك!..
ابتسمت ولم أجبهم وطلبت الفطور. جاءت به أمي.. كان كسرة ساخنة فواحة وصحنا من زيت الزيتون العبق وبيضة مسلوقة وحبات من التمر... شرعت في الأكل وكان أغلبهم ينظر في استغراب. فقالت أمي موضّحة الأمر: "أعرف أنه رأس غرائب وصاحب مفاجآت"...

... ..دام مقامي بالكرشون العظيم عشرة أيام كاملة وأنا خارج قانون التجنيد ونظام الاستبداد.. توزعت هذه المدة بين الاختلاف على الفيلاج بين الفينة والأخرى وزيارة الأقارب ممن لا يُحرجهم ذلك، لأنّ صورة الطالب المجنّد فزّاعة وشبح يطاردان كل من يستضيفني، إلا بعض الأقارب الأوفياء فإنهم لم يروا في ذلك ضيرا، وكان ذلك إما حماسة وتضامنا أو مجاملة ومخاتلة. المهم شققت الكرشون طولا وعرضا بالنهار والليل، لا شيء يشغلني، أنا حر وخفيف: حرّ من كل قيد تعليمي أو عسكري، وخفيف من كل التزام عائلي. لا يشغلني شاغل إلا العبّ من نبع الحنين والتزوّد بما يكفي من الأشواق ليوم الرجوع إلى رجيم معتوق.. أثناء سمري مع العائلة أو "عشويّاتي" مع الأقارب كنتُ غامضا شديد التكتم في سرد وقائع الاعتقال وظروف الجندية وكل حيثياتها، وأكتفي من الكلام بما كان دبلوماسيا يحتمل كل تأويل ولا يورطني في أمر من الأمور. وجدت الكرشون تضجّ بأخباري كما استقيتها ممن لاقيت: أخبار طغى عليها لوم يطاردني أكثر من تعاطف يواسيني! ما كان المتحكمون في مصير ريفنا النائم على آذانه مهتمّين كثيرا بمصير طالب -وهو الوحيد فيها وفي الماجل عموما- من يُعاقَب بالتجنيد. فهذا في رأيهم قصاص عادل، بل ربما أن النظام متسامح في ردع المارقين والمتمردين! قرأتُ هذا في عيون البعض ونميمة آخرين و في التصريحات الوقحة لأعيان المنطقة! لهذا يتسبب جلوسي في المقهى إحراجا حتى لأصدقاء قدامى أو زملاء دراسة! كنت كالمنبوذ المُفرَد "إفراد البعير المعبد"! تحمّلت والتمست أعذارا حتى لمن لا يستحق. لقد باضت السلطة وفرّخت في أدمغة الناس يرَقات الرُّعْب والعقاب، واحتكرت شهادات الوطنية والاستقامة توسِّم بها أزلامها و"خُدْمانها"ومن سار في الطابور الخامس! لهذا وسواه كنت شديد التكتم والحذر! ومنذ عودتي غير القانونية كنت أتوقع أن تشرّفنا سيارة الحرس في كل لحظة. لا أحد يسألني عن همي الذاتي باستثناء أمي! كان كل كلامهم يصب في باب اللوم: ("والله تحيرنا عليك شهرين ما سمعناش أخبارك قبل ما نعرفوك في العسكر! تَعبنا في البحث عنك! ما عدناش لا نرقدو لا تتعدالنا ماكلة! باباك تعب ومشى لتونس نهارين يلوّج عليك حتى سمع بيك! لاش عملت هكا فينا!؟ دوختنا عليك!

ماشو عيب عليك هذا!؟)". كان هذا وغيره من الاسطوانة المشروخة التي أسمعها في كل مجلس!؟ مساكين والله! أبي جعل من قصة بحثه عني ملحمة بطولية! ومرافقاه لا يألوان جهدا في المنّ عليه بالمشاركة في البحث وإحراجه في كل مقام.. بل وتحريضه عليّ أحيانا! بلغني كل ذلك! وأنا المطحون داخل مفرمة النظام لا بأس عليَّ، يجب أن أتحمل.. فعلا تحملتَ "أيها المتمرد ولستَ نادما عما حدث! " (خلي يتربُّو الطلبة! حتى هوما شبعوا! آش ناقصهم بالله في الجامعة؟ قراية وماكلة ونوم! آش يحبوا أكثر؟!"). هكذا كان الأبالسة ممن يحيطون بأبي يوسوسون له في كل مجلس أو لقاء. وهو المغدور في بِكره يسمع ثم يصدّق! (ولولا بعض التحفظ لكشفنا الأسماء والأشنع في المواقف!). صحيح أنني تسببت في أذيَّة أهلي، ولكن ليس إلى درجة جلد الذات.. فأنا صاحب الشأن، وأنا الذي أعاني أصناف العذاب والضغط! كانت أمي ملاذي الوحيد في الحديث التلقائي الصادق والعميق.. لم أُخْفِ عنها أيةَ تفاصيل لأني أعرف درجة وعيها وهي التي لا تفكّ الحرف ولا تميّز الأرقام! زيّنْت معها سمرنا الثنائي بحديث اعتقالنا وتجنيدنا: "... شن النظام في أفريل حملة اعتقال مسعورة على الجامعة من قابس إلى بنزرت، من أجل تركيع الطلاب وإخماد تحركاتهم التي بلغت ذروتها لتقاطُع أحداث جسيمة: فقد أكمل النظام سيطرته على اتحاد الشغل منذ سنة 1985 وحشر القيادة الشرعية في السجون في محاكمات انتقامية هزلية.. وأصرّ وزير التعليم العالي وقتها (عبد العزيز بن ضياء) على تمرير مشروع مشبوه بدعوى إصلاح الجامعة تصدّى له الطلاب. وصادف في أفريل زيارة بوش نائب الرئيس الأمريكي وقتها إلى تونس، وقصفت الطائرات الأمريكية ليبيا في غارات وحشية. ثم وقع قتل الطالب المرحوم عثمان بن محمود في حي التحرير... فاشتعلت الشوارع بالمظاهرات لكل ذلك، فجُنّ النظام وأصبح يتصرف بشكل هستيري انتقامي فاعتقل حوالي ألفي طالب من جملة أربعين ألفا في الجامعة! وكان التحقيق في الثكنات الأمنية بالعوينة وبو شوشة والوردية لا منطق له ولا أُسس، لا معيار محددا للفرز والتصنيف سوى مزاج المحقق ولهجة الطالب وانتمائه الجهوي والمناطقي ولون الشعر والعينين ونوع اللباس وخشونته وغيرها. كانت مهزلة بل مسخرة مُبكية إلى حد الإضحاك! ولما أنهى التحقيق جُنّد أبناء الأرياف خاصة والمناطق الشعبية ومن لا سند له من المحققين أو سواهم! صحيح أننا تظاهرنا وصرخنا وتحدينا آلة البوليس القمعية، ولكن لا أحد يُزايد على الآخر.. وفي كل الحالات لم نرتكب جرائم!..". كانت أمي تستمع بتأثر ولكن بعزم وصمود فأرى في عينيها شفقة ممزوجة بالرجاء والتحدي. لم تكن تخذلني، ولا هي تلومني على أي خيار مهما كان. حدثتُها بهذا وغيره

وكنت أتوسد رُكبتها وهي تُمسّح على رأسي الأقرع، وتجس رقبتي وعظامي وكافة بدني كأنها تتفقّد ما ضاع من أعضائي ولا تفتأ تُردّد بعد كل فقرة من حديثي عباراتها الشهيرة: "حتى شي، كل شي يفوت.. المهم الصحة لاباس وما تفرطش في مصلحتك! ". كانت الوحيدة التي تشجعني ولا تثبط عزيمتي أو تلومني! إليها أُدين بكل فصل من فصول حياتي..

-3-

وفي آخر ليلة من ليالي سمرنا الثنائي الخالص، قبل السفر إلى المعسكر، أسندت رأسي كعادتي إلى رُكبة الوالدة وهي تترنم بلطيف الأذكار والأوردة، كانت نغماتها هديلا من الألحان يدغدغ كل جوارحي فأرتخي في طمأنينة واستسلام. وقد أغفو وأحلم، فتتحسس بدني إن كان البرد قد زاره. فتسحب فوقي الغطاء وتضغط عليه حتى لا يتسرب إليّ شيء من الصقيع. وأغرق في لذة الذكرى: (كانت في صباي تتسلّل من الفراش الجماعي وتنهض عند السحر، وتجهّز الرحى لرحْي القمح، فأفتقدها وأسمع أولى "تكتكات" القمح بين فكّي الرحى، فأغادر مرقدي زاحفا نحو ركبتها أتوسّدها وأُدفئ خدّي من دفئها إذ لا يلذ لي النوم إلا عليها. وأظل أهتزّ مع كل حركة من رُكبتها كأنني في دَوْح وهي من حين إلى آخر تتفقد الغطاء فوقي وتمسح على رأسي، وكان لدوران الرحى وضجيجها صوت رخيم أذوب على أنغامه نوما، حتى تنهي الرّحي.. فتسحب ركبتها برفق وتضع وسادة مكانها ولا تزعجني حتى الصباح وتقوم لإحضار الفطور....) لا شيء قد تغير. ها أنا الآن قد تجاوزت العشرين ومازال الطفل فيّ يناغي ويحبو ويتدلل.. وهذه دوحة الظل والدفء وعناقيد الحنان على حالها صامدة صمود الأُباة، راسخة رسوخ الحق في خضم الشك.. قلت لها: "إني أخشى من اقتحام البوليس المفاجئ والبحث عن كتب يحرّمها النظام ولي منها في مكتبتي الصغيرة بعض العناوين." فهبّت منذ الفجر تخزّنها في أكياس الصوف المُعَدّة للسّدْوِ، وجهزت الإفطار وأنا أستعد للمغادرة.. ودّعت أفراد العائلة وتفرقوا لشؤونهم في حين ظلت هي ترافقني في كل حركة وتتْبع خطوي وتجهز من المؤونة البسيطة ما كتب الله: أكياس صغيرة بها بعض الزيتون المملح وشريحة التين ولوز وعلبة من البسيسة وأربع حبات بيض مسلوقة للطريق كانت تحشرها كلها في حقيبتي الصغيرة بعناية فائقة. حملتُ الحقيبة وأردتُ المغادرة بوداع خفيف صامت حتى لا أستفزّ المشاعر لكنّني لم أصمد... أمسكتُ بيديها وأرسلت بصري

في أعماق عينيها الساهدتين، فتوقف نبض قلبي وسكرت جوارحي وتيبست كأنما قد شُلّت! وتلعثم لساني (وتعطلت لغة الكلام...) ولم أُفصح! حدَّقتْ في عينيّ بعناد المحارب..

- لماذا تكتمين الدمع وتزُمّين الأجفان!؟

- لأنّ في كل دمعة أنين وفي كل أنين شكاية!

- لذا تفضلين الابتسام على الجهر بما تتحملين من بركان الشكاوى!؟

أنا الولد المرتحل في الأعماق والهائم بالأشواق، أعفيني من ألم الوداع فإنَّ الوجد يُشقيني والدمع يناديني.. ما اغرورقت أعيننا إلا خوف احتراق الأجفان! فكلّ عَبرة مطفأة لنيران... الكلُّ يكذب ويجامل ويلبس القناع فوق القناع. إلاَّ أنت! أخشى عليك الانتحاب كي لا تهتزّ أركاني وينهار بنياني. إنْ نزفت عينيّ فلا أبالي فلي خزان احتياطي من الدمع تستنفره المآقي. والويل إن تسرب من الوصيد المحكم الإقفال"! استمسكت ب(عَبُّون) ملحفتها خوف الغرق في المجهول والأشجان. فتسامت بنا الأشواق نقيّة طاهرة بدائية، واختلسنا اللحظة الدافئة من جليد الأيّام.. من أين سأكرع ماء الحياة في بعادك؟ وفي محبّتك سيل من الجنون إلى حدّ الهذيان.. أخشى أن يعضَّني الشّوْق إليك فامْلئي سلَّة أضلعي عناقيدَ تَحنان.. أفيضي على رمشي سنا عينيك وبدّدي منها الأحزان... اشحني روحي ببارق الأمل فأنا في حاجة إلى غمامة تظلّلني من شمس البيداء، ومُزْنة سائحة حين أظمأُ تَرويني..

هات وشاحك عند الوجد أحضُنه.
فتنتشي من ضوع عطره أنفاسي..
ويلتامُ جرحي في شراييني
يجتاحني الحب ليلا حين ينفطر
قلبي وتختل موازيني
أضمّ طيفا منك زائرا عبقا
يضوّعني بالمسك فأحييه ويُحييني
كفاك بيْنا فإنّ النار واقدة
وراسيات الجبال ذائبة
من وهج همسي ومن تحانيني..
من لي بعيدا، إذا ما السُّهد خاتلني
غير الخواطر والأحلام تُسلّيني؟!

تأملتها فكان انحدار الدمع "يُعقب راحة" سرعان ما مدّت كفّها لكفكفتها، وابتسمت مشجّعة وتظاهرت بالتماسك وأنا أعلم عمق ما بها.... أنا المسافر في بحر الرمال بلا سفن ولا أشرعة، قد حُطِّمت ألواحُ مراكبي وتناثرت على موانئ التخوم! أحتاج دفعة من ريح بحرية تحملني من جديد إلى الـ"هناك".. حيث مغيبُ الشمس وأنّات البيد تشكو أوجاع السنين! من يقتلعني من الحضن الذي ما شبعت منه وما شبع مني! ولكن ما ينتظرني أنا المسؤول عنه... ضممتها إليّ ضمة شديدة وغادرت دون التفات حتى لا أعقّد الأمور أكثر... ثم تواريتُ خلف الهنشير في اتجاه القرية...

غادرت الدار متجها إلى قريتنا الشهيرة بالفيلاج. (وأدين بالتذكير بالتسمية إلى العزيز "سمير بوبكري). كنت أسرع الخطو فأتعثّر في تلابيب الطريق ونتوءات شرودي. ما حسبتُ حسابا لكل هذا. التفتُّ فقط حين اختفي جسمي ولم يبق سوى رأسي يُرى على بعد ميل، فنظرت نحو منزلنا، رأيت الوالدة (دادا) واقفة وهي تلوّح بيدها من بعيد. لم تغادر المكان حتى يُصاحبني بصرُها على الأقل هكذا فهمت. كانت تعرِف تمام المعرفة أنّني لا أحبذ التشييع في الطريق حتى وأنا صغير نحو المدرسة البعيدة. ولكنّ شعورا أقوى من طاقتي يسحبني ويدعوني إلى الالتفات واستفسار ما خلفي. صدق حدْسي فقد تسمّرَتْ دادا في المكان حتى لوّحتُ لها بيدي وأرسلتُ إليها مع الريح آهاتي و نشيجي.. هذه الطريق حفظتها كما حفظتْني.. كم أكلتْ من عابرين وكم ستأكل! وكم مضغت من نعال وحوافر دواب ولفظتها! وكم أنصتت إلى تنهيدات تلاميذ الابتدائي يقطعونها يوميا مرتين مشيا حينا وجريا أحيانا.. اليوم لا رفيق في الطريق، ولا سامع لك غير الحلفاء المحاذية هنا وهناك.. وأنت عائد إلى سجنك بمحض إرادتك! أية مفارقة عجيبة هذه يا فتى!؟ أليس الأجدر بمن غادر سجنه ألا يعود إلى أسواره!؟ أم أنك حر في اختيارك: فكما اخترت حرية كسر القضبان يوم غادرتَ المعسكر فإنك تعيد اليوم الأغلال إلى معصمي!؟ أجل تلك قمة الحرية: تختار ما تشاء وقتما تشاء حتى وإن اخترت النهاية الأبدية! كنتَ مع كل خطوة إلى الأمام يتقهقر قلبُك إلى الخلف ميلا، كأنما تسحبك قوة قهرية ضاغطة، فتعاند قدماك المشاعر وتكابد التمزق بين القُدّام والخلف. ورغم هذا كنتَ تسير وتسير وتمعن في المسير.. ويطنُّ رأسك بترجيع ألحان لا بتقطيع: أصوات لا كلام فيها ولا معنى حتى لا تُصغي إلى وسواسك الخنّاس! أنت في صراع بين قلبك وعقلك: هذا يسحبك إلى أمِّك وذاك يدفعك إلى همِّك! وانتصرتَ للعقل فهو يدفعك إلى الأمام بتحليلك المنطقي للأمور: "هل من المعقول أن تتخلى عن هدفك الأسمى في الدراسة بمجرد اتّباع المشاعر! إن لم تعد إلى الثكنة

ستبقى مطاردا باقي العمر ويضيع كل شيء! وإن عُدت فهذا أهون الشرّيْن وأحسن السّوء.. أليس ما تبقّى من السنة أقل ممّا التهمتموه بالصّمود والصّبر؟! وفي أصل الأشياء إنّ لكل قصة نهايةً! والعمر فصول تتوالى وأيام تتعاقب وأحوال تتناوب! وأنت يا شقيّ الكرشون والفيلاج، ألم تزدرد سنوات الدراسة كلّها ازدراد الضيف النهم للحياء! رغم قسوة الظروف نجحت وتميزتَ... الآن لا تخْشَ حبسا فأنت فيه وإن كنتَ خارج أركانه! أنت محبوس لأن الحبس هو الذي يسكنك ويهرّج داخل عقلك ويحسّسك بأنه منك وفيك وخانس في كيانك ولا تزعجه قضبانك.. أنت كالطائر في قفص وهميّ لامرئيّ يتعذب كلما رأى غيره من الطيور سابحة في الخلاء الواسع! فمتى ستخلع من دنس المستنقع حذاءك؟ ومتى ستُرسل جناحيك في امتداد فضائك!؟ كنت في الطريق نفس وفي الحال ذاتها. حين تغادر بعد العطلة إلى المبيت بفريانة وأنت في الثانوي، ينتابك نفس الشعور بالتمزق بين المغادرة والبقاء، ولكنك كنت في مهمّة دراسية وقتها واليوم في مهمة عبثية! ورغم هذا فأنت كمن يسير إلى حتفه راضيا مرضيا! أقوةٌ هذه أم جُبن أم عقلانية أم قمة استهتار!؟ أنت في حيرة ولا يُجديك الجواب.. لعلّه كل ذلك منصهِرٌ في المصير الفجائعي المنحوت! أفقتَ من تخاريف الأسئلة على وقع قدميك تلثم الطريق المعبّدة على مستوى جبّانة المجاهدين، فتسرع في قطعها خوف سيارة مسرعة ...

وصلتُ إلى المحطة فكانت تغصّ بالمسافرين نحو قفصة، إنها عشية سوق الأربَعاء.. يهبّ أهل "الفيلاج" للتسوق والتبضّع وتجارة الماشية خاصة. لم يطُل الانتظار حتى توقفت حافلة "القوافل" فتزاحم الجمع على الباب وتطايرت العمائم وانخرمت "اللّحف"وتمزقت "الدرابيل" وتدافعت المناكب وابتلعتنا الحافلة على مضض كأقراص دواء مُرّة. ثم نفخت على المحطة ماسورة من القطران وغرّبت بنا... كنا داخلها يفوق الواقفون منا الجالسين، ونحن نميل معها حيث تميل. (ميحي مع الأرياح وين تميحي). وكانت الأشجار والمساكن على حافتي الطريق تسيل إلى الخلف بقدر هدير الحافلة إلى الأمام، ومع كل شجرة أو مسكن أراني أخلّف جزءا من كياني.. وأحْسبُني أتفتت/ أتلاشى فُتاتا. ومع كل نسمة من النافذة أفقد شبّابةً نائحة على مصيري. كنت ساهمَ البصر أنظرُ في الفراغ وحولي يتعالى الحديث واللغط بين متسوّقين في حافلة! أكثرهم يعرفني لكنهم يحذرون الحديث معي! أعرف الأسباب ولا أُحرجهم!. لا بأس ("مايسالش، كلو يفوت" -كما كانت تردد "دادا" إذا أطبقت علي الدنيا وتطاولت في المراوغة والجحود).. دخلنا قفصة مع منتصف النهار، ونزل من الحافلة من نزل فتدبّرت كرسيّا، وصعد من صعد ثم شمّرت إلى قابس حيث كان مقصدي. مازالت الهواجس تراودني والأسئلة

تحاصرني: كيف سيستقبلني أهل علي الغيلوفي وأنا لا أعرفهم؟ وهل سأطمئنهم فعلا عنه إذا رأوني؟ وماذا سأقول لهم عنه؟ أأُخبرهم بوضعنا المزري الحقيقي أم أزيّف الرواية حتى لا ينزعجوا؟ وماذا عن رحلتي الصحراوية إلى رجيم معتوق فيما بعْدُ؟ وهل ستتكرر رحلة العذاب التي حملتنا إليه أول مرة؟ وهل سأجد العم بلقاسم بسيارته الباشي أم وسيلة نقل أخرى إلى حيث ينتظرني الحبس؟ أسئلة كثيرة على دوامتها وصلنا إلى قابس فنزلت أبحث عن لوّاج للحامة...

... كان انتظارا ثقيلا في جوّ مكفهر ومُزيّت بالرطوبة والكبريت والتردد. والناس يتماوجون في مساء شتوي بارد كقلية المستورة في"الطاجين".. لا أحد يشعر بغيره ولا ينظر إليه. قدمت سيارة الأجرة فامتطيتها وانطلقتْ تلامس الطريق بخفة وتلوّح للواحات المحاذية كالمودّع... وعلى أنغام المسجل يتغنى بروائع بلقاسم بوقنة كان السفر.. أشْجاناَ المسجل ب"عندي سبعة سنين تعدوا، خلوقي فدوا، مكاتيبي هزوا ما ردوا/ عندي سبعة سنين بروحي، هزوا ما ردوا مكاتيبي، م الغربة يا عيني نوحي ويادمعة علخدي سيبي". فكانت كل كلمة فيها تنفذ في الحشى نفاذ الخنجر وتستل منه آهات حزينة، وكل مقطع يضاعف الوجد... وما انتهت الأغنية حتى اغرورقت عيناي بعبرات حارقة.. ثم انطلق المسجل فيما فجّر الموقف لولا خجل البوح أمام الراكبين، فكنتَ تلتفت إلى نافذة السيارة عنوة وتَمسح ما تقاطر من دموع.. هذا حالك وأنت تغادر حضن العائلة إلى جفاء المعسكر وجفاف المشاعر. انسابت من المسجل أغنية "(يا والدة كانك علي دماعة، بالفاتحة ما تغفليني ساعة...(...)... يا والدة حالوا عْليّ دونك، فجوج موحشة تصعب على القطّاعة...)"، فلم تستطع كتمان آهة طويلة.. طوي... لة...! ااااه إنها قمة الأشجان والارتحال في خلاء الكثبان! كلما تقدمت السيارة تتراءى الفجاج الموحشة أكثر، وتُطبق الجبال المحيطة بالطريق على قفص صدرك فتشعرّ كما الاختناق، ويزداد الفضاء اصفرارا مروّعا كلون الموت يدبّ في السماء والأفق والأرض ويعجنها بالسراب اللمّاع. فلا ترى سوى قتامة تمتد كطبقات الردى الخانق. بدأت الشمس تميل إلى الغرب حزينة كالثكلى تُنتزع عن النهار ضناها انتزاعا. فكنتَ تتظاهر بالتماسك حياء من افتضاح الدّموع لكن رذاذها استحال زخّات زخّات! وغالبك الحزن على الحياء! أعلن السائق عن الوصول فنزلتُ ب"الحامة" أسأل عن النّقل الريفي نحو قرية ابن غيلوف. أرشدني البعض في تعاطف ظاهر واستفسار.. قلت: "إنني في زيارة إلى أسرة في القرية".. فرحب بي سائق السيارة وتخير للضيف المقعد الأمامي.. كانت حركة نبيلة من ابن الحامة الشهم.. ركب الجميع وسرنا نصف المسافة في طريق "قبلّي" ثم انعطفت بنا

الشاحنة إلى اليمين في المسلك المؤدي إلى ابن غيلوف فتباطأت السرعة للحالة السيئة للطريق مسافةَ سبعة أميال.. وكانت الدواليب تهتزّ حين تمرّ فوق الحفر المنتشرة التي حولت الميدان كبنطال "الدجينز" المرقّع. أو هي تنزلق على الحصى المتناثر كالشك في قلب الملحد! وتارة ترتفع أو تنخفض لمجرى ماء ناشف أو هضبة غير ممهدة. وترى السائق متشبثا بعجلة القيادة تشبث الغريق، فها هو يميل أو يدوس أو يتذمر أو يشتم ويلتفت إليّ يلتمس مني تعاطفا أو تعليقا. فأكتفي بابتسامة مجاملة صفراء وإشارة من رأسي بأنه على صواب.. سألني عن وجهتي فأجبت: "دار الحاج بوبكر بن عطاء الله الغيلوفي.. أتعرفها؟

فقال: "طبعا.. ومن لا يعرفها!؟ هي أمام مكتب البريد وسأوصلك إليها.. لا تخشَ شيئا.. ثم أنت من أين إذا لم تر مانعا من السؤال!؟ وما سبب الزيارة!؟ ". لم أر ضيرا في السؤال وعذرت الرجل فالسوّاق عادة مغرمون بالبحث والتطلع حتى يتزودوا بأنباء عن كل ما يصادفهم في يومهم!

قلت دون تحفظ:"أنا زميل ابنه عليّ المجند برجيم معتوق، وأنا في زيارة لطمأنة عائلته، إذ لم يُسمح له برخصة زيارة.. (ولكني أخفيت حالتي في الهروب)..

فقال: حسنا فعلت سأوصلك للمنزل..

رافقني الرجل مشكورا أمام الباب ثم انصرف. طرقت الباب طرق متردّد ومستكشف، صحيح أنني لا أعرف أفراد الأسرة ولكني خشيت عليهم المفاجأة. لم يكن هناك سابق إعلام ولا اتصال! كانت الزيارة تلقائية ومباشرة. فُتح الباب برفق. وتسمّر الرجل الوسيم وقال بثقة وهدوء: "أهلا بك.. من أنت!؟ هممت بالإجابة لكن تناهى إلى سمعي من الداخل صوت: "من هو يا محمد؟ كان صوت الحاج بوبكر الرصين المتزن، سأل ولم ينتظر جواب ابنه ثم اقترب من الطارق الغريب الزائر على أبواب الليل وقال: "هذا فلان صاحب علي ولدي معاه في العسكر"!؟ (كان الحاج بوبكر التقَاني في الكلية قبل سنتين، مازال يتذكرني يا له من رجل فذّ! زارنا وقتها ونحن في المبيت وأنا ملازمُ عليٍّ لزومَ ما يُلزِم وما لا يُلزم.. كنا توأما مثاليا. زودنا الحاج وقتها بكل خيرات الجنوب من دقلة شفافة عسلية اللون والطعم، وبسيسة غاية في العبق والشذا، ولبنا وزبدة وسمنا ومصروفا تقاسمناه... لا أنسى زيارته تلك ووصاياه وتشجيعه واتزانه. ثم زارنا منذ أربعة أشهر بالمعسكر). أردْت التسليم لكن امتصت الغصة مني حشرجات الكلام وجففت حبال التصويت، وارتميت بين أحضان العم بوبكر في ضمّة قوية دافقة بالود والحنين، حملت بصدري أشواق صديقي علي إلى أبيه وعائلته الكريمة فكيف لا أكون وفيا إلى درجة الوجد

والاشتياق التي يحسها عليٌّ نفسه.. وكنت أرى صاحبي يسكن جسدي ويتنفس برئتيّ ويفيض شعوره من كل جوارحي كما لو أنه حل بي حلولا... الصدقَ أقول إن الحاج رأى في زيارتي زيارة ابنه بالفعل لا بالنيابة.. حمّلني علي رسالة مقدسة فلأكنْ في مستواها. تأثر الحاج وهو يُرخي ذراعيه عن جسدي ولكنه صامد كالطود. رأيت في عينيه فرحا بارقا كالشهاب وودّا صادقا كاليقين. رافقني إلى الحوش وقدمني إلى العائلة فسلمت، وجاءت أمّ علي فلم أر فيها سوى أمي ولا تسل عن سيل العواطف والأسئلة المزدحمة عن أحوالنا وظروفنا وأكلنا وصحتنا... كانت نفس أسئلة عائلتي أجيب عنها بتحيّز ومراوغة حتى لا يتأثر الأهالي هنا وهناك.. وقد صادف ذلك اليوم حفل زفاف شقيق عليّ، فكانت الوليمة لا توصف وكنت أنا نجم السهرة كلما جالسني البعض من الأقارب ترك دوره للَّاحق وأنا أجيب عن استفسارات وأسئلة حارقة إجاباتها موجعة، لكني أُلطّفها حتى لا تتعقّد الحالة.. لقد كنتُ خطّطتُ مع عليّ لزيارات متبادلة لأهالينا الاثنين حتى نكسر عنق الزمن الغادر الذي طالت أيامه وتمططت لياليه. فقد سبق أن زار عليّ (الكرشون) أيضا لمّا هرب مثلي وأثمرت طمأنة ومخدّرا سكّن آلام العائلة إلى حين... والطريف أنني مع عليّ ما كنّا نفرّق بين دراهمنا أو أقلامنا بل تقاسمنا كل شيء شهدَه وحنظَلَه، فلماذا لا نتقاسم الأبوين والأمهات الأربعة والإخوة الكثيرين!؟ كنت في غاية التأثر وأنا أستند إلى الحاج بوبكر وهو يحادثني حديثه لابنه. قضيت الليلة في ابن غيلوف الشهباء تلك القرية الريفية الحالمة المتكئة على جبل وادي البطوم.. نمت نومة هادئة رفقة أخي الطيب الغيلوفي شقيق صديقي عليّ نتسامر ونحن تحت الأغطية المتنوعة اتقاء البرد.. الطريف أن الطيب ما كان يعلم أنه سيكون هو الضحية اللاحقة لعقوبة التجنيد بعد بضع سنوات!
فتكررت المأساة على الأسرة. فكم تحملت من عذابات القهر!؟ في الصباح زودني الجماعة بما يثقل حمله من طعام وتمر وفواكه ومال وأشواق... وانطلقت إلى الحامة من جديد للتوجه إلى قبلي...

.4

... حملت حقائبي من ابن غيلوف مكتنزة بالمؤونة والفواكه والثمار اللذيذة ومترعة بأشواق ودفء حُرمنا منه طويلا. فتزودت من أريج السباسب بعطر الشيح والحلفاء والأدعية، ومن

الجنوب بشذا الحناء والدقلة والرمان ووصايا الحاج بوبكر و تشجيعه ورسائل الأسرة إلى صديقي عليّ حمّلتْها نفحات الحب والانتظار.. شعرت بغبطة لا توصف، فقد سبحتْ مشاعري في أحضان العائلتين وأنا المحروم من مدة. وكان الطريق إلى الحامة يُطوى بسرعة عجيبة تحت عجلات الشاحنة طيّ السُّجف، كنت أمنّي النفس بالتريث حتى تثمل عيناي من النظر إلى ما تركت خلفي من أحاسيس ملتهبة. نزلت من الشاحنة فأثارتني مدينة الحامة، مدينة الثورات والاستعصاء على بُغاة التاريخ وقلعة الصمود الأسطوري. أردت توديعها بجولة قصيرة بين فضاءاتها الرمزية. فوجدتها موشّحة بتماثيل عمالقة الفكر والنضال والجهاد: فهذا محمد علي الحامي رجل الاقتصاد السياسي وبطل النضال الوطني والنقابي وذلك محمد الدغباجي أشهر مقاومي المستعمر حيثما كان في المشرق والمغرب والشهيد الرمز، والآخر تمثال الطاهر الحداد أجرأ مصلح اجتماعي وأعظم مفكري العصر... تزودت من تأمل ملامحهم بما أحتاجه من الإصرار وشحنتُ خزّاني بسير بطولاتهم.. لستُ أفضل منهم حتّى أتذمر وأشتكي! غمرني الفخار وعزّتْ عليَّ هذه المدينة الشامخة وأنا أتجول بين دكاكينها الفواحة بعطور شهرزاد الخُرافية وهارون الرشيد المنعشة حدّ السُّكر.. اتجهت بعدها إلى المحطة وركبت في اتجاه مدينة قبلي.. تراءت الطريق المستقيمة كخيط ليلكي من الاسفلت يفصل شطري نهار غبِشٍ.. وتُطلّ عن بعد جبال من الصّوّان تحرس حدود الصحراء وتحكي ملاحم بني هلال ومصارع الرجال.. انتشى السائق وهو يتفنن في تغيير السرعات ويتباهى بسيّارته ويترنم مع ألحان المسجل بأغاني الجنوب وأشعاره الرائعة الشجية، حتى أطلت أعالي واحات قبلي بِركاً من الزُّمرّد الأخضر نامت فيها ظلال العَشايا فخالطها لون رمادي لذيذ..وسيَّجها بحر من الصُّفرة الذَّهبية على امتداد البصر.. كانت لوحةً شهيةَ المرْأى لم ترسُمها ريشة فنان! حاكتْها الطبيعة في انسجام وروعة. وجدائل النّخيل تميسُ مع النسائم وتُلوّح للزائر كالمرْحبة.. ما ألذَّ ذلك وما ألطف أشعّة الشمس تسيل بين الأشجار حين كانتْ السّيارة تتلوى بين الواحات وتظهر ثم تختفي لتَظهر من جديد.. وصلنا المحطَّة فكان عَليَّ البحث عن وسيلة نقل إلى المعتقل... هه! يا للعجب! أبحث بمحض إرادتي عن سبيل للعودة حيث ينتظرني السجن في أفضل الحالات! عبث كلُّها الحياة: هذا هارب من الحبس وآخر يقود ذاته إليه! اتجهت صوْب محلّ تاجر الجملة الذي يشتري منه العم بلقاسم أغراضه، وكم كنتُ محظوظا فالشاحنة الشهيرة ال 404 باشي رابضة كالأسد أمام المخزن تفتح صندوقها لأكياس السكر والسميد وكراتين الشاي والمصبّرات، وتنتظر عابر سبيل مثلي تقتاده إلى حتفه! سلّمتُ على الشيخ وأعلمته بأمري،

فأكمل شحن سيارته وارتميت في الصندوق الخلفي بضَاعة من جملة البضائع! كان العم بلقاسم -مشكورا- يشتري لدكّانه مواد غذائية ويحمل معه جنودا عَدموا الحيلة في التّنقل إلى محتشد رجيم معتوق ممن غادروا الثكنة هربا بمقابل معقول. وهو يعلم أن عمله مخالف للقانون لكنه يتفنن في مراوغة المراقبة والتنسيق مع سادة المرور وحتى الثكنة! إنهم يعرفون ما يقوم به لكنّهم لا يتدخلون إلا نادرا! كان صندوق الشاحنة مظلَّلا بمظلة من أعلاه فقط وقايةً من الشمس، وتتكدس البضاعة به على غير نظام، فلم أظفر أنا ورفيقين من الجنود العاديين بمكان حيث نجلس بأريحية.. فتمدّدنا فوق شكاير السميد تلامس أبداننا سقف الشاحنة واتكأنا على جدار أعواد القضبان الحديدية وانطلقت الرحلة... كانت الساعة الثانية والشمس تعترض الركب. ولما تجاوزنا المعبّد القصير صافحت عجلات السيارة المسلك الترابي المعهود بمنعطفاته ومنخفضاته ونتوءاته.. فكنا داخل الصندوق مثل قِرَبٍ من الماء على ظهر ناقة شرود. ولا تتخيّل ما أصابنا من ارتجاج وغثيان زاده لفح الهجير وغبار الطريق والعجاج العاصف من كل اتجاه سوءا.. واستسلمنا لمصيرنا المحتوم حتى وصلنا القرية بعد ثلاث ساعات.. نزلنا واتجهنا إلى الثكنة على بعد كيلومترين في الرّمال الدّوّارة من الأعلى والمتحركة أسفل.. فكنّا نغرس أرجلنا بجهد ونقتلعها بجهد أكبر وأنا أحمل حقيبتين من الزاد تثقلان كاهلي. أمام باب الثكنة صادفَنا الملازم الأول الشهير يزمجر ويرعد ويزبد وأمامه فصيل من الجنود منهمكين في تزيين مدخل الثكنة بمساكب رملية وأحواض لغراسة زهور في الصحراء! كان ذلك عملا عبثيا، فالرمال لا تصمد أمام هبة ريح أو عصفة عاصفة ولكنّه كان استرضاء منه للرائد آمر الفوج! لما اقتربنا سُمح للجنديين بالدخول واستوقفني وأنا بلباس مدني، فتقدمت بثبات وتحدّ أريد الدخول، فقال كالساخر المستفز:

-" آآآ... جيت سي الشباب!؟ في بالك منعت!؟ فقت بيك من أوّل نهار!

- ويني المشكلة؟! عارفك فقت بيّ هذاكه علاش دخلت م الباب.. كنت انّجّم ندخل من جهة أخرى وما تفيق بيّ كان غدوة!

- وتتحدى فيّا زادا!؟ عارف آش يستنى فيك ماهو؟!

- طبعا نعرف.. وأنا مستعد.. ونتحمل كامل مسؤوليتي..

- بالله!؟ أنتم الطلبة ما تحبوش تتربو وتنضبطو! آتو نوريكم!

- ما عاد في العام ما تهدد! وأنتم حرمتونا من الرخص! كيفاش نعملو؟ أنت تقدر ما تشوفش أهلك ثمانية شهور!؟

أحرجه السؤال فلم يجب وأمرني بالدخول... فاتجهت إلى خيمتنا واستقبلني الزملاء بالتهليل والتكبير والترحيب كما لو عدت مظفرا من غزوة! كنت أتأبط حقيبتين حُبليين بالزاد و"الزواد" وقلبي طافح بالغبطة. وكان عليٌّ يراني بتأمل ويرى فيّ أهله وأهلي. وبسرعة سمع الزملاءُ التسعون بقدومي فتجمعوا في خيمتنا وأمامها يتزودون برائحة البلاد التي في ثيابي والأطعمة والسجائر الكريستال الفائحة التي وزعتها عليهم. ظللنا نتحادث ونبرمج للهارب القادم تلك الليلة وفجأة قدم اثنان من الشرطة العسكرية يبحثان عني فرافقتهما إلى الحبس في أول ليلة بالمعتقل من جديد وأنا لم أُشْبع رفاق السلاح والبالة والفأس من أخبار العالم الممتد خارج حدود الثكنة والصحراء، حيث السيارات والحافلة الصفراء والمشاعر الجياشة والآهات المكتومة في انتظار شباب...

-5-

السجن تجربة حياتية مرة.. وهو في الاحتجاز القهري بالثكنة له مرارة مضاعفة. هو شعور بطبقات من سلب الحرية يُغلّف بعضُها بعضًا كأمْواج بحرٍ ظلماتُها طبقات تنوء بها الروح قبل الجسد. إنك في الحبس المدني قد سلّمتَ أمرك لحكم القضاء وإن كان (...) أما في الثكنة فأنت مرتهَن بمزاج شخص سادي يرى في قهرك متعة ويلتذّ بعذابك! دفعني الملازم داخل الخيمة السجن وكانت ضيّقة لا تتسع لأربعة أفراد فإذا بها ثمانية قَبْلي، سُحبتْ منها الأسرّة الحديدية ووُضعت مكانها بطانيات عسكرية مقززة اللون كريهة الرائحة.. هي الفراش والغطاء في عز الشتاء! على باب الخيمة جنديّ مسلح يحرسها على امتداد الليل والنهار وتتغير الحراسة دوريا... لا خروج إلا للحاجة الضرورية مرتين في اليوم، ولا حركة لأن الخيمة خانقة بضيق مساحتها وروائح العرق والألم.. وأشياء أخرى.. لم أجد مكانا حتى للجلوس المريح. استقبلني زملاء الحبس بالتعاطف والتذمّر خوف التضييق عليهم بجسم إضافي سيحرم نومهم ويهدد فضاءهم! أطلّ الملازم إطلالة الشامت وقال: "أنت هربتَ مدة نصف شهر، وكل يوم تعوضه بيوم حبس! وهذه حقوقك وواجباتك: لا خروج، لا تدخين، لا شاي، لا سهر، لا نار توقد بالخيمة، لا حديث مسموع، لا غناء، لا تذمّر، لا شكوى، لا راديو، لا ورق، لا كتاب ولا كراس...

- وما حقوقي حضرة الملازم؟!
- لك الحق في وجبات الطعام والخروج مرتين إلى الصحراء، والتدخين بباب الخيمة.
أكمل الملازم سيل النواهي التي تقيأها ثم بصقها في وجوه الحاضرين وانصرف. كنت أدرك هذا وأتوقع ما هو أشنع وعزائي في ذلك أنني لست وحدي. ففي الخيمة مساجينُ من العسكريين العاديين تباينتْ تُهَمهم بين نوم أثناء الحراسة أو تقصير، وتطاول على أحد الضباط أو ضباط الصف، وتهاون في العمل والواجب. كنت جندي الحصة الخاصة الوحيد بينهم وقتها.
فسيكتوي كل الزملاء بنار الحبس، بل قل ببرد لياليه الشتوية المثلّجة ونحن في شهر جانفي!
ازدردنا وجبة العشاء باردة بلا طعم ولا نكهة. ثم بدأنا تخاريف السمر المهموس والمغموس بالحذر خوف الحارس ونحن نستند بشكل دائري بالأقْفية ووجوهنا إلى الخلاء، كوّنّا حلقة من الأبدان حتى نسترق من بعضنا بعضا قليلا من دفء أبَى أن يشرِّفنا. وكوّرنا رُكبنا وغطّيناها بما توفَّر من"الزّورْ" الرّمادية البالِية ومن حين إلى آخر يروي أحدهم طُرفة أو قصة أو يترنّم بلَحن حزين يُصوّر حالة الغُربة والظلم والبُعد. فكان النعاس يداعبنا بين الفينة والأخرى ثم يشرد وتتلمظُ الأجفان رغبة في السهاد كشهوة الشفاه للذيذ الطعام. ولكن تتقطع الغطسات في النوم مع كل تململ جسم ونحن كخيمة القش الإفريقية، لكنّها خيمة من حطب أبدان آدمية.
لم تذرْنا الحشراتُ في حالنا، فهي صاحبة المنزل ونحن ضيوف ثقال نغّصنا عليها هدوءها فنغّصت علينا السهادَ ووجدتْ في أبداننا مرتعا ترعى فيه على رسلها. وحتى الحكُّ لا يضيرها، فهي تتنقل بين الحقول اليانعة وتمتص ما شاءت من دماء.. ظللنا على حالنا بين تململ وشخير البعض و..... حتى الصباح: "حارتان وكعبة" من الأجسام في علبة من قماش لا تحمي من برد ولا تقي من صرد.. تبللت الخيمة فنزّت علينا من نداها ما انغرس في الأجسام كالإبر. انبلج الصبح وعلت أصوات الجند يتدافعون على الحنفيات القليلة للاغتسال فطار النوم الذي لم يهنأ بسكن الأجفان.. وانتظرنا... جاء جنديّ المطبخ بالفطور المعهود... ثم لحقه العريف ينبّهنا للاستعداد للملازم له ما يقول في شأننا... وبعد هنيهة ثَلَثْهُما وقال موجّها الخطاب إليّ:
- الجندي فلان.. هل أعجبك الحبس!
فلم أجبه لأن السؤال واضح والجواب معلوم.. فهز رأسه باستهزاء وغادر... ظللت يومين على تلك الحال، وابتكرنا معا التناوب في النوم بين الليل والنهار: كل فريق يروم الأرض لوقت معين.. وبانقضاء اليومين زارنا الملازم بخبر جديد:

- "أنتم جنود في السجن ولا تعملون! هذا غير مقبول! عليكم العمل تحت الحراسة نهارا والعودة ليلا إلى الحبس... رأينا في الأشغال الشاقة التي جهّزها لنا ملاذا للخروج من ضيق المكان على الأقل، فكُنا نمهّد كلّ الرمل حول الثكنة الطويلة العريضة يرافقنا جندي الحراسة بسلاحه وذخيرته، ووجدنا في شرب الماء بحرّية نعيما وفي دخول الصحراء أكبر تفضل علينا... انتهت "كينزة" الحبس و"حبل اللّيل على جرّارة النهار"، فكان الضوء يفزعنا بمشقة العمل إذا انبلج والظلام يهدِم راحتنا بالبرد والحشرات وكل رفاهة الحبس...!

الفصل الخامس

-1-

لكل بداية نهاية.. باستثناء همومنا نحن لا تنتهي! فهي مسلسل تعاقدت حلقاته بإحكام مع المأساة.. فكلّما توهمتَ نهاية المحنة تناسلت منها وليدتها الأشد.. فقد خرجتُ من السجن الضيق بعد انتهاء "المحكومية" لأجد نفسي في السجن الأرحب.. هنأني الزملاء وكذا نفعل مع كل زميل. ومن حسن حظنا أننا هربنا جميعا من المعتقل وعدنا فنلنا نفس العقوبة: "كينزة" حبس.

لذلك تعودنا مراسم الاحتفال بالمناسبة.. عدت إلى العمل مع رفاق الرّفش ولكن في المنبت هذه المرة حتى أكون تحت حراسة أشد! والحال أنني اكتفيت بهروبي الأول وعزمت على إنهاء السنة دون مغادرة.. علينا أن نتحمل، هكذا قررنا جميعا. لا مجال للاستسلام للمشاعر! نحن مظلومون هذا صحيح، واكتشفنا أنّ ظلمَنا مضاعف حين تفطن الزميل المكلف بمكتب الضبط إلى أن في احتساب الحصة خللا مقصودا: فبدلَ تسجيلنا ضمن الحصة السابقة كما جرت العادة أي 86/1 لأننا وقعنا في الأسر والتجنيد في أفريل، فقد سجلونا شامتين في حصة 86/2 وبذلك سنقضي في الثكنات 410 أيام بدلَ 365 يوما! والأغرب من هذا ما حدثنا به زميل معنا أنه مجنّد وقُبض على أخيه فجندوه أيضا! ولما اشتكى لم يسمعه أحد وقضى أكثر من ثلاثة أشهر وبعدها حُوكم! بل الأغرب من هذين الأمرين أن أحدهم جُنِّد للمرة الثانية وهو في الأصل قد قضى واجبه العسكري! أيُّ نظام هذا!؟ وأية مؤسسات وأي قانون!؟حيلٌ لا تنطلي إلا على المغفّلين ويروّجها الوصوليون والإعلاميون المتمعّشون من غباوة الشعب و مآسيه ومن فتات السلطة ترميه إليهم ككلاب الحراسة للدعاية والزيف والبهتان!؟ من فتح وقتها ملفّ تجنيد التلاميذ والطلاب بهذا الشكل!؟ لماذا يُعدّ النظام العمل الوطني المقدس سيفا بتارا وأداةً لمعاقبة المعارضين!؟ هل في هذا احترام للمؤسسة أم تدنيس لها!؟ ولمن لا يعلم فإن النظام العبقري ابتكر هذه الطريقة البشعة منذ 1966 وتتالت في المناطق النائية المعزولة بالبحار المائية والرملية في سوسة وجبل كسرى وقفصة وقليبية وقابس وقرعة بوفليجة وجنعورة وسيدي التوي والجبيل والسقي والعكازيات ورجيم معتوق والمطروحة. 1+2 وجزيرة زمبرة.. كنا نتذكر هذه الجرائم وقد سمعنا عنها نالت كل شريف في البلاد! في خضم سهرنا هذا كان الجميع مشتاقا إلى الخروج من هذا الوضع البائس الذي تردّينا فيه ويريد معرفة الأوضاع في البلاد.. أخبرتهم بما أعلم من بؤس الشّعب ومعاناته وإحساسه بالقهر والهوان. وكان علي الغيلوفي قد هرب سابقا فطلبت منه أن يروي لنا قصة هروبه التي سبقت في شهر نوفمبر والمغامرة التي لا تُنسى، فشرب كأسا مرة من الشاي وتنهد كمن ناءت عليه الجبال بكلكلها وقال: ("في العشيّة السابقة للفرار سكنني لحن أغنية رابح درياسة الشهيرة فكنت أردّدها دون انقطاع فأهمس بها حينا وحينا أجهر: طالت الغربة علي وتوحشت الدار...". فسألني الأصدقاء عن الهوس بهذا اللحن وسرّه... وأفصح بعضهم: أ تريد الفرار؟! قلت: نعم صحبة حكيم خي..".

لما غابت شمس ذلك النهار الخريفي المتقلب تخفّينا تحت ستائر العتمة القادمة وتسلّلنا من الثكنة لا زادَ معنا ولا غطاء.. فكّرنا في الاقتراب من مساكن الأهالي بالقرية نحتمي بجدرانها من

الصقيع القادم، لكننا استحيينا.. فانتحينا القرية وبين شجيرات الشّعّال كان مرقدنا، نفترش الرمال اللاسعة ونلتحف العتمة. وبتنا في العراء نستمد الدفء من النفخ في أيادينا والاقتراب من الشجيرات تقينا الصقيع.. حين أذّن الفجر تسلّلنا من ملاذنا واتجهنا نحو متجر العم بلقاسم منقذ كل هارب من المحتشد ومن الغربة المرة فهو يساعد من يلوذ به فيجود عليه بمرافقته إلى قبلي... وامتطينا شاحنته الشهيرة يوم الثلاثاء الذي يوافق السوق الأسبوعية. ركبت قرب السائق وشقيقه وركب حكيم في صندوق الشاحنة لا حجاب بينه والبرد وإبر النسائم الصحراوية. كنا نسمع تململه خلفنا واصطكاك أسنانه! ولكن لا حيلة لنا ولا حؤولة! تواصل عذابه حتى وصلنا بعد ثلاث ساعات... ولما نزلنا كاد حكيم يلقى حتفه من شدة البرد. فقد نزل منكمشا ووجهه مزرقّ وجسمه متيبّس، ولم تتخلص قدماه من "الانعكاف" إلا بعد مسافة من المشي! توجهنا نحو المحطة وامتطينا الحافلة الرابطة بين دوز وتونس. وفي مفترق ابن غيلوف نزلتُ في حين واصل حكيم إلى قرمبالية.. ومن الصُّدف الغريبة أنّ الملازم الأول الشهير آمر السرية امتطى معنا الحافلة نفسها قاصدا الوطن القبلي دون أن يتفطن إلى وجودنا... وقضينا أسبوعين زرت خلالهما الكرشون حيث استقبلتني عائلتك بحفاوة بالغة، ووجدتُني أحمل مشاعرك إلى أهلك ورأوك في شخصي. لم أشعر أنني مفرد بل جمعاً يمثّل كل المجنّدين. وفي يوم 6 نوفمبر غادرت منزل عمي الصادق في اتجاه العاصمة لتسوية الترسيم. فأنجزت المهمّة وبتّ عند زملاء الكلية: نورالدين علوي وعبد الباسط الفقيه ومنصف فرح وأخبرتهم بوضعنا البائس وحالنا المزري. وبعد انقضاء المدة التقيت بحكيم يوم الثلاثاء في قبلي. وبحثنا عن العم بلقاسم. وعند الوصول اتصلنا بجماعة الركشة في الصحراء. ونقلتُ إليهم رسائل من زُرت من أقارب عماد بن نصر في تونس وحمادي سلامة والمحامي نور الدين الجربي شقيق منصور الجربي... عاقبنا الملازم ب"كينزة" حبس كغيرنا، ولكني اتصلت بوكيل السّرية وطلبت منه أن يتدخل لديه فيعوّض العقوبة، وأن نتطوع بإنجاز "ياطاشين" من الحفر بدل السجن. وكان لنا ذلك. ولكنّنا تسربنا من الثكنة والتحقنا بالمجموعة في رجيم 2 حيث الركشة.. وكان العريف قد تعاطف معي لأنه كان قد اشترى جملا من ابن غيلوف وسخّره للسياحة وحقّق به ربحا وفيرا.. فأراد ردّ الجميل...") لم ينْهِ علي الغيلوفي قصته حتى أنهينا البرّاد الرابع في تلك الليلة ودخلنا الخيمة نتحسس بعض الدفء...

... تتالت الأيام ومرت أشهر ستة وانقطعت أخبارنا عن أهالينا فاتقدت في أحشائهم نيران الشوق واندس الحزن في المآقي دون حيلة في الوصال. فالرسائل التي نرسلها تُحتَجز لمدة طويلة تفوق الأشهر أحيانا ويقع افتضاضها بهمجية ووحشية، ولا يُطلق سراحها إلا بعد التدقيق والتحقيق كأنها تحمل ثورة تهدد كيانهم الهش! فإذا خلت من أي إشارة إلى ظروف الحياة ووضعنا قد يُسمح لها بالمرور، أما إذا ما تضمنت ما يثير انتباه السلطة فإنها تُعْدَم ولا تُسترْجَع! وما كنّا نتلقى رسائل إلا نادرا! ولمّا استطالت عائلاتنا غياب أخبارنا وتوقعت ما هو أسوأ من السوء خيرت المغامرة. ومن بين الحلول أن يتجشم أهلونا عناء الطريق ومخاطر الفلاة للظفر بمجرد التزوّد بخبر قد يطمْئن في ظل تعتيم السلطة وحصارنا. وهذا ما دفع أبي صحبة ابن عمه مصطفى بن يوسف وابن خالي أبوضياف بن علي للمقامرة الخطرة. وقد حدثني ثلاثتهم بالقصة: ("استعدْدنا للسفر منذ منتصف ليل الثلاثاء أواخرَ شهر سبتمبر ومازالت الصحراء تنفث حرّاقيات الخريف وبقايا لهيب الصيف، فتزودنا ببعض الماء وماعون الشاي وبطانية احتياطا للطوارئ.. ثم انطلقنا من ماجل بلعباس منتصف الليل احتيالا منا على مؤامرات الحر المتوقعة، وكنا على متن شاحنة 404 باشي وهي وسيلة نقلنا المتاحة الوحيدة لأبناء الريف في بلدي! قضينا الليل كلّه في الطريق بحكم السرعة المحدودة وقلوبنا تسافر قبلنا جيئة وذهابا.. حتى بلغنا مدينة الفوّار مع الساعة السابعة صباحا.. استقبلتنا المدينة بهدوء ووحشة. اشترينا بعض الطعام وحبّتين من "الدلاع" وغرّبنا نروم ريجيم معتوق حسب ما أرشدنا به بعض الأهالي. لم نكن نعلم أن المسافة تفوق السبعين كيلومترا فاستسهلنا المغامرة. ولما قطعنا عشرين كيلومترا في طريق عادي انتهى الطريق المعبّد لتحتضننا الصحراء بكثبانها ورمالها الحريرية يحولها الريح في كل اتجاه ويصفع السيارة فتتمايل ولا تقوى على التوازن. والعواصف تعدم معالم الطريق وتمسح آثار العابرين! فواصلنا السير يدفعنا الشوق إلى الوصول واللقاء في المعتقل مهما كلف ذلك ونحن نمني النفوس بنجاح الرحلة. توغّلنا في البيداء مسافة خمسة كيلومترات حتى غابت معالم الحياة من حولنا فلا نرى سوى السماء المكفهرة الموحشة تُطبق على الصّحراء المترامية فلا ترى من حولك سوى العدم يغلّفه اللامتناهي، ونشطت الرياح في نشيج حزين كأنما تستنطق ما بقلوبنا، وتمنع عنا الرؤية وتَبَيُّن المكان، حتى بلغنا مفترق طريقين صحراويين باهتين فلم ندْر أيهما نسلك وفي أي اتجاه نتجه

كمن ضاعت قبلته: إلى اليمين أم الشمال؟ ظللنا نخمّن ونتشاور، ثم قرّرنا الاتجاه يسارا حسب تقديرات الحاج.. فانطلقت السيارة ببطء تُصارع أكداس الرمال المرتخية والسائلة كالزفير المتحشرج، فكانت الدواليب تدور ولا تسير، وكلما ضغطتُ على الدواسة أحدثت في الرمل خندقا حتى غرقت في بحره وسكن هديرها المهتز واستسلمت. نزل الحاج الصادق وأبوضياف يدفعانها في حين كنت أنا (مصطفى) أحاول المناورة في السّياقة، ولكن الحركة عسيرة إلى أن انفلقت إحدى عجلات السيارة من أثر حرارة الدوران واحتكاك المطاط بألسنة اللهب المتأججة من الشمس في الأعلى ومن جمر الرمل من الأسفل.اضطررنا إلى تغييرها بعد جهد إذ كانت الرمال تمنعنا من رفع السيارة بالمرفع والحفر تحتها، حيث تنسكب الرمال من جديد بعد الحفر ! وبعد عناء ومشقة غيّرنا الدولاب وحاولنا التقدم وقد تجاوزنا العصر في صراع مع ما نحن فيه. ولكن دون نجاح في التحرّر من حبس الرمال والسيارة تبرك كالناقة الهرمة في البركة النارية وهي عديمة الحيلة. تركناها وقررنا المواصلة راجلين حين أبصرنا جبلا يكلّله السراب والغبار بلون رمادي موحش وهو يتوسد بعض السحائب المتناثرة. ظننّا أننا بمجرد تخطّيه مباشرة سنصل هدفنا... كنا نسير سيرا ثقيلا حفاة فالأحذية تضاعف الجهد وتعطل الحركة. وكلما ظننّا أننا نقترب فإذا الجبل يتباعد عنا كأنه يسير مُغرّبا أو نحن ندفعه بلهاثنا وتأوهاتنا فيزداد تنائيا! أصابنا إعياء المسير لمدة ساعتين جفّت فيها الحلوق وتحوّل الريق قطعا من الصوف المتكور، وسخن الماء الذي معنا حتى تبخر أكثره وأصبح لا يُطاق ولا يبلّ صدى بل يشعل نار الحلوق أكثر. وتهالكنا من الإعياء حتى عجز الحاج تماما عن المواصلة واشتدّ به الظمأ والغبّ وكان شديد الوله بالشاي والتبغ.. ارتمى بالرمل منهكا يائسا والْتوَتْ رجلاه في تخدّر، وقرر التوقف والانتظار، لا حيلة لديه ولا جهد دون تقدير مخاطر الزواحف وغيرها. ولولا امتصاصنا لما بقي من "الدلاع" لهلكنا عطشا. تركنا عمي حيث هو وأردت مع (ابوضياف) أن نستكشف ما خلف الجبل المقابل لعلنا نظفر بعلامة عن مقصدنا. واصلنا مقاومة الرمال المتحركة تحثونا برصاصها حتى بلغنا ذروة الجبل فإذا هو كثيب مرتفع يعاند غبش السماء، ولا أثر لحياة بعده، بل جبال مثله متتابعة إلى ما لانهاية وبدت لنا كأمواج بحر متلاحقة والسراب وأشعة شمس الأصيل المائلة إلى الغروب تلفّ فوقها عصائب من كآبة ووحشة ويأس. فتبادلت مع رفيقي النظر وأيقنا بعبثية المسعى ولا جدوى ما نحاوله: ففي هذا المَهْمه لا أثر لحياة سوى غربان ناعقة مقززة الأصوات تتصارع على جثث حيوانات نافقة فتزيدنا قَشْعرة ومرارة في الأفواه الجافة والحلوق، أو سرب من العقبان تترصد قطعان

الغزلان! قررنا الرجوع حيث تركنا الحاج في أسفل الكثيب وقد غاب عنا وكدنا نضيعه. عدنا بعد لأْي فوجدناه قد استردّ بعض طاقته فأعدّ الشاي لطرد غبّه. أعلمناه بأنّ ما خلف الجبل الظاهر جبالٌ تتلاحق دون انقطاع! ولا أثر لمدينة أو علامة تدلّ على الحياة! فقال بصوت متهدّج يائس: "أنا متأكد إذن أن المعسكر قد ردمته العواصف الرملية ومحتْه من الوجود وأن كل من فيه قد مات"! فزادنا هذا التوقع فزعا فأجهشنا تكتما و جهارا حزن، وظللنا نتوقع الكارثة. ثم زاد ألمنا حين قال: "على كلّ حال نحن حاولنا ولكننا فشلنا، وأخشى عليكما أنتما مازلتما شابين ولا أريدكما أن تموتا هنا بلا طائل، ولا أريدكما أن تُيَتّما أبناءكما، فارجعا راجلين إلى الفوّار وتدبّرا أمركما ولا حاجة لنا بالسيارة فقد يئسنا منها في الرمال، وأنا سأظل هنا أنتظر ما يقدره الله فلا قدرة لي على الحركة، مع علمي بالمصير.أنا قد شارفت على الستين وتلك مشيئة الله، ما كنت أتوقع نهايتي بهذا الشكل! ولكنه أمر الله! ثم رفع صوته بما يشبه الرثاء الحزين ينادي السماء ويتضرع. فكان لكلامه وقع الخناجر فينا يمزّقنا ويُدمي القلوب، كان صوته قد تدثّر بدثار من الحزن واليأس والاستسلام! تنهد كل منا تنهيدة عميقة، فزاد ذلك من إطباق الوحشة علينا وغمرتنا موجة سوداء من الإحباط! وتوجّهنا إلى السماء بالدعاء والضراعة والرجاء، واستحضرنا ما نعرف من الأولياء الصالحين، واسترضينا الآباء وكل ما أمكن من الأشياء لتحقيق المعجزات واسترثاء الغيب لحالنا. وخطَر لي إذّاك أن نعود إلى السيارة النائية ونحاول إخراجها من المطبّ الرملي ثانية وقد نضب زادنا من الماء. وبعد جهد وصلنا السيارة وقد أشرفت الشّمس على المغيب فشغلتها، ثم بدأت مناورة السياقة وكان أبوضياف يقتلع شجيرات الزيتة والشعال ويرمي بها تحت العجلات فتحركت قليلا ثم واصلنا الجهد بين حركة ورمي الأعشاب وتتبع ما ارتفع من الكثبان ذات الأرضية الصلبة حتى أحطنا بموقع الحاج عن بُعد ، وتراءى لنا طيفا ضئيل الحجم يطوف حول النار. فلما رآنا قد تحركنا، هرول يعترضنا وفي يده براد الشاي ونحن نسابق الزمن واللّيل كاد يغلفنا بظلامه الداهم.. وحين تجاوزنا الأحراش المساعدة على السير اعترضتنا من جديد بِطاح من الرمال الناعمة، فكان رفيقي يفرش البطانية أمام العجلات فتدوسها وتمر وكأن المعجزة قد تحققت! وهكذا كان دأبنا حتى لاقينا طريق العودة إلى الفوار إنقاذا لأنفسنا. وعدلنا عن الذهاب إلى رجيم معتوق وقد حاصرنا الظلام فكنا في بحار مضاعفة من العتمة الحالكة والبيداء الممتدة والمشاعر المحبطة والظمإ والجوع.

تراءى لنا سنا مدينة الفوار عن بعد باهتا كغلاف من شكّ. ولكنه حلّب في حلوقنا المتكلسة بعض الرّيق. فكنتَ تسمع عبارات الغِبطة والظّفر بالنجاة على الأقل مادامت الرحلة مؤجلة إلى حين. بالغت في الدّوس على السرعة حتى صدر عن الشاحنة العتيقة أنين ورجاء في صوت المحرك الأبحّ. ومن لطف الله أن ماءه لم يتبخر كليا. ضاعفت الدّوس أطارد ظلمة الليل ونفاد المازوط الذي بدأت إشارته ترفّ كعين رمداء.. كنت كلما رمشت العلامة أمامي أخفف الضغط وأطمئن نفسي قبل طمأنة مرافقَيَّ بأنّنا سنصل بإذن الله ولن يحصل إلا الخير! كان ذلك شعور من يرى الخطر مهدّدا ولكنه يكابر حياء أو عنادا! لانَ الريق ببقايا قشور "الدّلاع" احتفظنا بها عنوة وتمططت العشرون كيلومترا كما لو كانت مائة! وبعد ساعة سطع ضوء السيارة على لافتة حديدية عليها ("الفوار ترحب بكم") سطعت كجرّة كنز في الجب الليلي المحيط بنا. ارتخت السرعة تدريجيا، وامتص المحرك آخر قطرات المازوط وجفّ حلقه مثلنا. فاهتزّ هزات المتحشرج المحتضر. ونامت بداخله الاسطوانات وخمد في قلب الطريق. نزلنا نشكر الله على وصولنا مدخل المدينة، وهذا فضل منه كبير! أنقذنا الله من المبيت في الخلاء والمخاطر وهذا يكفي إلى حدّ الآن! دفعنا السيارة إلى يمين الطريق وتركناها مقفلة ثم هِمنا على وجوهنا نتحسس المحلات بشارع المدينة وكانت الساعة العاشرة ليلا. والقرية تستعدّ للنوم ويستفز رقادها وَمَدُ الصحراء الثقيل المتلبد وطنين الناموس ذي الرشاش الأوتوماتيكي والإبر اللّساعة. كل المحلات مقفلة، فقررنا الاتصال بمركز الحرس فهو المؤسسة الرسمية التي تحمينا وتهدينا وترشدنا وتساعدنا.. (أليست الشرطة في خدمة الشعب!؟ والحرس من الشرطة ونحن من الشعب.. لكن هل إن من نروم زيارته في "رجيم" من الشعب أيضا!؟ ماذا لو قال الحاكم إنه عدوّ للشعب مادام يتظاهر في بلاد الشعب وضدّ رئيس الشعب... وطز... حتى إن كان ذلك من أجل الشعب؟! كم يتحمل هذا الشعب المسكين!؟ فهذا يحكم من أجله ويبدل الدستور ويزوّر الانتخابات ويسجن المعارضين ويسحل المناوئين و... و... من أجل الشعب!؟ وذاك يتظاهر أو يعارض أو يسب أو حتى يخون أو... من أجل نفس الشعب!؟ والشعب وحده المسكين لا يدري حذاء من "سيرفسه"ويدوس كرامته الأول. وعنده لا سلطة أقوى من بورقيبة والحرس والشيخ القمقوم؟). توجهنا نحو مركز الحرس إذن، فلاح لنا فانوس بابه ذابلا ذبول المشمش آخر الموسم، تلطمه فراشات ليلية عنيدة وتلتفّ حوله مغبرّة الأجنحة. اقتربنا من الباب بحياء ورهبة وارتعاشة الوجل. سلّمنا فقام من السرير الحديدي بباب المبنى رجل أسمر يرتدي "مريول خلعة" أبيض يفرك عينيه من نعاس أوشك أن يزورهما لولا وصولنا المفاجئ. رد الرجل

السلام ثم قال بحزم بائن وحذر وهو يحرك يده حركة لولبية للتساؤل: " تفضلوا... آش تحبو... منين طلعتولي هالليلة؟ فاندفع عمي الصادق يسرد القصة من باب المبنى وهو يستعجل الاحتفاء به. فلما لاحظ العون جدّية ما نحن فيه وحالة الإرهاق والعطش البادي علينا، مدنا بقارورة ماء كانت بيده وأدخلنا إلى جانب السرير وجلس ثم ارتمينا أمامه على القاعة وانطلق عمي في السرد بتعريف أصلنا ولقبنا وبلدتنا وسبب وجودنا هنا. فبدت على الرجل علامات التعاطف والرثاء ولكنه فاجأنا بقوله: "تو سمعتكم.. لكن مانعاونكم كان كيف تقولولي آش يقربلكم بوضياف المنصوري؟" فأربكنا السؤال لأنّنا ما توقعناه ولا خطر ببالنا المسؤول عنه! فقال الحاج:

-"نعرف كثيرا ممن يسمى بوضياف وخاصة بيننا نحن أولاد منصور..."

فقلت:

- لو سمحت وأين تعرفه أنت!؟ فقال: "هو عامل بالواحات وهو من قريتكم" فتذكرت الرجل. إنه أبوضياف بن عمار السندي. فقلت بثقة وحسم: "نعم. هو قريبنا وابن عمنا وهو رجل طيب وثقة وصاحب مواقف". فقال: "أنتم لا تعرفون الرجل مثلما أعرفه؟! " ثم صمت فخشينا أن يكون ما قلنا قد أغضبه، فتبادلنا نظرات الريبة واللوم والخجل، لكنّ العون أنقذنا بقوله: "إنني ما عرفت رجلا أرجل منه ولا أحسن منه". وانهال يكيل له المديح وآيات الشكر ونحن نستلذ ذلك لأنه سيساعدنا في أمرنا وليس تقديرا لبوضياف في كل الأحوال، وليسامحنا الرجل! ثم قال: "مادمتم أقارب فلان فإنني سأعمل المستحيل لمساعدتكم. فما هي احتياجاتكم؟" قلت له: "نحتاج المازوط وإصلاح العجلة ونبيت في مكان آمن. ورحم الله والديك..". فقال: "بالنسبة إلى المازوط أنا أضمن لكم غدا صباحا ما تحتاجون فتركنا له ثمن ما نحتاج، وأما إصلاح العجلة فسأدلّكم على صاحب محلّ الإصلاح تذهبون إليه الآن وتبيتون عنده، فهو رجل طيب ومضياف". توجهنا نحو المحلّ ونحن نردد مفاجأتنا بمكانة بوضياف بن عمار لدى أهل نفزاوة والحال أننا لا نعير الرجل أي اهتمام بل يسخر منه البعض ويعبث ويتطاول عليه! أنقذنا بوضياف إذن... إن لله رجال! إن بوضياف هذا رجل من عزّ الرجال فقد ساعدتني سمعته وسيرته مع ساعي البريد الخاص بالثكنة حين علم بأنه من أقاربي فأصبح يحمل رسائلي دون تأخير... حقيقة كان رجلا شهما.

طرقنا باب العجّال طرقات مسترسلة ففتح لنا واستغرب وجودنا وطلبنا إصلاح العجلة والطعام والماء والمبيت وقد اقترب الليل من الانتصاف. كانت طلبات مجحفة وركيكة في

الحقيقة ولكنها طلبات ملدوغ من الجوع والظمإ والتعب. فقال بكل حفاوة وكرم نادر متأصل في أهل الجنوب: "أنتم ضيوفي الليلة، سأبحث عما أجد من طعام واقضوا الليلة عندي وغدا يفرج الله..". لم يغب الرجل طويلا وخرج لنا بصحن به مقرونة وكوز ماء. أكلنا مطمئنين ثم افترشنا البطانية بجانب المحل في العراء، والجوّ حار لا حاجة للغطاء وتوسّدنا سواعدنا وبعض الرمال، واستسلمنا لنومة حلوة كالشهد كانت فيها الأرض تمتص من أبداننا التعب امتصاصا فنحسّها تسحبنا إليها كما لو كنا نهوي في دهليز سحيق من النشوة والنّعَسان ولكن الخيالات كانت تدثِّرني ولم أستطع التغلب على زحامها في ذاكرتي. حاصرتني الأسئلة ولا ملاذ من حرقتها: هل صحيح أننا نجونا بعد أن شارفنا على النهاية؟ هل هذا جسمي الذي ينغمس في الرمل في هجعة الأموات أم استلفته من بعض السيارة؟ كيف سيكون غدنا؟ هل نعود إلى الكرشون فعلا دون زيارة المحتشد؟ ماذا سنحمل من أخبار إلى عائلة متلهفة إلى خبر وعشيرة تتشوف إلى نصف معلومة؟ ماذا نقول للمنتظرين؟ هل نحن رجال الملاطم نهرب من معركة مع الصحراء؟ الرجل هو من يردّ إبل القبيلة السليبة أو يموت دونها! نحن ما رددْنا إبلا بعدُ وما رأينا حتى آثارها! يا للعار لو عدنا من نصف الطريق! أكلتني الخيالات وما لفظتني. حملتني الذكرى إلى اليوم الذي بلغ الأسرة خبر الاعتقال. كان موجزا في برقية تبرّع بإرسالها أحد الزملاء المسرحين قبل ستة أشهر (كان أبوه مندوبا جهويّا لذلك أشفق عليه المحقّق وسرحه ككل أصحاب "الواسطات" وأبناء الأحياء الراقية ووجهاء الدولة!) لكن الرجل كان أصيلا وقدّر موقف السجين فكتب على لسانه بناء على طلبه ورجائه: "أنا في حبس الوردية والظاهر أنّنا إما سنُحاكم أو سنُجنّد. تصرفوا". اكفهرّ الجو في البيت وقتها وانتشر الحزن وأطبق الموت على الألسنة."ماجت" العائلة وعلا العويل والنشيج والبكاء الصريح والمكتوم وانتشر الخبر بين الأقارب فهبّ الجميع للمأتم وانخرطوا في صنوف التعابير عن الحزن أو اللوم أو التذمر أو حتى الشماتة! وتنوعت التعليقات بين متعاطف ومعزٍّ بالمصاب وداعٍ باللطف فيما قضى ومُخوِّف من المصير على الحياة والمستقبل الدراسي.. كانت أمّك كالطير قُصّ جناحاه تسعى بين مرتفع ومنخفض كالسعي بين الصفا والمروة.. ولا تني عن إخفاء حرقتها ومسح ما بلل خديها من دموع دون أن تنهار، ويا لبختها كم هي صامدة في ذروة الانكسار! حولها ينهدّ كيان الأخَوات والأقارب وهي كالطود الشامخ! مازال المشهد حيًّا كأنما وقع الليلة. كيف إذن نعود دون خبر!؟ هذا غير معقول. تغلب فيّ جانب العزم على الاستسلام وطغى النعاس على الخيالات فلم أنهض إلا على نسيم الفجر يخز وجهي المكشوف ورافقته أصوات المدينة "تنزع عنها رداء الليل" فتسمع ثغاء

هنا ورغاء هناك ونباحا من أسفل الكثيب وصياح ديك يؤذن للفجر. نهضت نشطا كمن زُوّد بطاقة عجائبية جديدة وتسللت نحو مركز الحرس فوجدت "بيدونين" من المازوط حملت أحدهما واتجهت صوب السيارة روّيت بها جوفها الظمآن فهدرت من جديد وعدتُ بها إلى المركز وسكبت الباقي في خزانها، واتجهت إلى محل إصلاح العجلات فأنهضْت رفيقيَّ وكان صاحب المحل قد أعد الفطور -مشكورا- وانهمك يصلح العجلة، وتزودنا بما نحتاج من ماء وشاي ولوازم السفر وقال عمي: "الآن نعود إلى الماجل ويكفينا مخاطرة"! لم أغامر بمعارضته لما خبرته لديه من عناد وحذر وإصرار على الموقف. ولكن تركته يعدد المخاطر لو واصلنا الرحلة حتى أنهى تحذيراته فقلت له كالمتودد: "ماذا لو بحثنا عن دليل للطريق نكتريه إن لزم الأمر ويرافقنا ويرشدنا؟ استحسن الفكرة وشجعه أبوضياف وحفّزه فوافق. عدنا إلى مركز الحرس وطرحنا الموضوع فتجاوب العون معنا وقال من جديد: "على قدر بوضياف ندبر لكم مرشد يعاونكم..". كان عمال النظافة قد انتشروا في الشارع فنادى العون المشرف عليهم وقال له: "كلف أحد الرجال يرافق هؤلاء الجماعة يدلهم على الطريق إلى ال"رجيم معتوق" وسيدفعون له أجرة يومه". وافق الرجل مشكورا وانطلقنا من جديد نحو رجيم معتوق مزوّدين بدليل خبير بالصحراء وطرقها وشعابها وبالماء والطعام والشاي. وغرّبنا كيومنا السابق حتى بلغنا المفترق اللعين وحينها سلكنا الطريق الأيمن وبدأنا نتحسس الأمان والسيارة تتلوى كأفعى الرمال بين المطبّات والكثبان لكن دون مخاطر تذكر، فكنا نمتع النظر بامتداد الصحراء وخشوع جبالها وكثبانها وبين الفينة والأخرى يمر قطيع من الغزلان ينطّ ويقفز شاردا أو نمرّ بقافلة من الإبل ترعى مطمئنّة أو بقايا جثة تحوم حولها الكواسر وتهر الوحوش. كنا في نشوة حتى بلغنا القرية حيث ركنّا السيارة جانبَ جدار وأرسلنا في طلبك...". كانت رحلة مركبة مكررة وبوصولنا كأننا بُعثنا من الأجداث! فالداخل في فم الصحراء "مفقود، والخارج منها مولود"! أكملنا الزيارة وعدنا إلى الكرشون مع منتصف الليلة الثالثة فوجدنا المنزل يعجّ بالأقارب ينتظرون. لمحوا على وجوهنا سحنة من الرضى والتعب الشديد. ولكن أسئلة تناثرت حولنا من الجميع: "هل وصلتم؟ هل وجدتموه؟ بالحق رأيتموه بلحمه وشحمه؟ وسلّمتم عليه؟ كيف كان حاله؟ هل كلّمكم بالفعل وكلّمتموه؟ كيف حاله ولون وجهه؟ ألم يمت مع الذين ماتوا عطشا؟ لماذا لا يبعث بالرسائل؟ هل يطعمونه ويهتمون به مع زملائه؟ متى يمكّنونه من رخصة؟ لماذا لا يسرّحونهم ولو لأيّام معدودات!؟ ألهذا الحد هو خطر على الدولة؟! ليته يعود بسرعة! كانت الأسئلة وأمنيات تطعنني كالحراب المسمومة ولا نجد الجواب. فنخمّن ونتكلّف إجابات ونلفّق

أخرى نَصْدُق في الواضح منها. ولم تهدأ عاصفة المناورات إلا مع الفجر ارتمينا بعدها في أركان البيت نبحث عن سهاد طال انتظاره...

3

لم تسعفنا الأشهر الأربعة الأخيرة بما نحتاج من صبر، فكلما مر يوم طال اللاحق في فتور وتراخٍ رهيبين، وتكثف البطش والاستفزازات لأن السيد الملازم المشهور لم يحقق إشباعا لنزواته السادية كما يشتهي، ولم يستطع كسرَ إرادتنا أو إجبارَنا على القبول بالأمر الواقع. ظللنا صامدين لا ننحني ولا نستسلم. وكلما تحركت غريزة الشر لديه كان يبتكر مشكلة من تحت الأرض لفرد منا. ذات يوم ونحن متجمّعون في ساحة العلَم بعد انتهاء حصة العمل الصباحية والجوّ لهب مضاعف ونحن مصطفون في استعداد قرر معاقبتنا جميعا بدعوى أنّ عمل السرية الثالثة لا يُعجب سيادته وأن الرائد لاحظ ذلك. فلا بدّ في تقدير الملازم أن يشرف على عقابنا شخصيا على التقصير، فكانت هذه القائلة الحارة مناسبة للانتقام منا. شرعنا في الهرولة لمدة ساعة ثم زحفنا وعوقبنا جميع العقوبات العسكرية وقد تعبنا إلى درجة لا توصف فوقف بعضُنا رافضا مواصلة التنفيذ فاغتاظ الملازم وتقيّأ أصناف الشّتائم والسّباب فتململنا وهمهمنا رافضين التعرض لنا بمثل تلك الإهانات. فازداد غضبه واقتطع الطلاب دون سواهم من السّرية لمواصلة العقوبة في حين سرح بقية الجنود! استأنا لهذا التمييز وصاح الزميل لطفي(...) مستنكرا ذلك، وساندناه في الأمر، فاستشاط الملازم غضبا وسحب زميلنا من الطابور وحاول تعنيفه فاعترض عليه لطفي وأمسك بيده فجُنّ جنونه وشرع في الضرب واللّطم والركل فبادله لطفي العنف بمثله ولم يستسلم ودار صراع هستيري بينها. فلما أحسّ الملازم بالحرج استعان بأربعة أفراد من الشّرطة العسكرية قبضوا على زميلنا وحملوه حمل الذّبيحة نحو مقر الملازم الذي أمرنا بالتفرق والعودة إلى الخيام، رفضنا الأمر وظللنا في ساحة العلَم نحتجّ ونستنكر، أما لطفي فقد غاب عنا مدّة ساعة رجع إثرها كالأسد المثخن بالجراح لا يقوى على الحركة، فكان يسحبه شرطيان سحبا ورميا به أمامنا! كان مشهدًا مروِّعا، حملنا صديقنا إلى الخيمة وكان فاقدا للوعي وهو ينزف من كلّ مكان: من الأنف والشّفتين والمحجرين

والظهر والرجلين وجسمه عبارة عن أخاديد من الجراح وآثار العصا كأنما لُفّ لفّا بحبال زرقاء، وعيناه غائرتان تحت جبل من الانتفاخ وشفتاه مكورتان وهو يتنفس بصعوبة. كانت صورة من صور الوحشية لا تنسى. تدبّرنا أمرنا في تطبيبه وتضميد الجراح حتى أفاق واستردّ وعيه. أضربنا عن كل نشاط أو عمل بما في ذلك الأكل فأرسل إلينا الملازم مهدِّدا، فتحديناه وظللنا على موقفنا ليومين نسّقنا في الثاني منهما لهروب لطفي من المحتشد ورفع قضية بالملازم. سافر لطفي وأنجز ما ذهب من أجله، وبعد أسبوعين عاد وأخبرنا عن جريمة الملازم لما أخذه إلى مقره فقال: ("حملني أفراد الشرطة كما رأيتم وصعدوا بي السُّلَّم، وأحكموا القبض على يدي وقيّدوا رجليّ بحبل وهيؤوني لسيّدهم فأقبل يشتم ويسبّ بكلام لولا حيائي واحترامي لكم (وللقراء) لذكرته.. لأني لا أريد تلويث أسماعكم بالمعجم الثري والشهير في مثل هذه المقامات... ثم خلع ساعته وشرع في الضرب بكل قواه وأنا أقاوم وأتلوّى ولم أستسلم ولم يَشْفِ غليله لأنّني لم أسقط أو استسلم فأخذ عصا "الماتراك" من مكتبه وبدأ حصة الـ"تهريس" مع أفراد الشرطة وأنا اصرخ وألقوا بي على الأرض وانهالوا من جديد لا يفرّقون بين أيّ عضو من جسمي فغرقت في الدماء .. وبعدها لم أدر ما وقع فقد وجدتُني بينكم في الخيمة...". كانت الأوضاع تزداد سوءا كلما اقترب موعد الإفراج بين عقوبات وأشغال شاقة مضاعفة وواجبات انتقامية واستفزازات حتى كان يوم 4 جوان 1987...

إنه يوم مشهود مازال منقوشا في الذاكرة، تسرّب خبر وصول برقية الإفراج من العريف في حياء وشفقة ظاهرة فلم نصدّق النبأ لشدة ما ثقل علينا الانتظار كراسيات الجبال. تهللت أساريرنا ولم يسعنا الفرح فكنا نتماوج بين الخيام نودع الجنود العاديين ونتبادل التهاني والأحضان والقُبل والدّموع ونحن كمنْ سيودّع الجحيم ليدلف إلى الفردوس الأعلى. حضرتني مشاهد جحيم المعري وجنّته... كنا نقفز مرحا وحبورا ولم نفكر حتى في وجبة العشاء! أرجعنا عهدة الملابس العسكرية والقمائل ولبسنا ما معنا من ملابس مدنية احتفظنا بها منذ يوم تجنيدنا.. كانت لائقة رغم بساطتها شعرنا ونحن نرتديها أننا نتخطى أول قضبان السجن ونكسر أول القيود... أتذكر جيدا ليلتها أننا تجمعنا حوالي تسعين طالبا أمام الخيمة الوسطى وأشعلناها نارا غير مسبوقة وأخرجنا ذخيرتنا جميعا من بسيسة وشريحة وبسكويت

وبسطناها أمامنا وتناولناها عوض عشاء الثكنة ودارت كؤوس الشاي وغنّينا ورقصنا ولم تسعنا الأرض بما رحبت حتى كاد الفجر يتبسم...
أفقنا بعد هجعة لذيذة تداخل فيها الحلم بالواقع.. لقد انتصر الصبر على القمع وهوت عصا الجلاد منكسرة لا تقوى على الصمود...

-4-

أفقنا وقد افترّ الفجر عن ثغر أشنب "كابتسامة الطفل الغرير". كان ذلك الفجر استثنائيا لأنّه لحظة فارقة ليس كمثلها حلاوة، لحظة ولادتنا من رحم المأساة! لحظة تهاوت فيها غطرسة الجبروت لتنتصر إرادة الحرية رغم التضحيات! أفقنا نشطين على غير العادة وبسرعة أفطرنا وتجمعنا أمام مكتب وكيل السرية لتسلّم وثائقنا التي تثبت هويتنا العسكرية: السّجل العسكري دُوِّن به تاريخ التّجْنيد وتاريخ السّراح وعدد الحصة ومعه بطاقة سراح بتاريخ سابق لذلك اليوم بأربعة أيّام؟ لم ندر سبب تأخير تطبيق القرار! لاحظنا في سجلّاتنا شطب عبارة "حصل على شهادة حسن السيرة"، يا الله! لم يكن منا مرضيًّا عنه وسيرته حسنة حتى منْ مدَّ أنابيب الماء وبنى المؤسسات والمخبزة ومن سيّج الهكتارات الطائلة، ومن غرس النخيل والاشجار والبذور في المنبت! كلُّ ذلك لم يشفع لنا في نول شهادة حسن السيرة! أمر عجيب! (من منكم يا معشر القراء الأفاضل يُفْتي في هذا!؟..) تداولنا حديث هذا الحرمان لكن دون كبير اهتمام، المهمّ أننا على أبواب الخروج من القضبان.. تسلَّمْنا الوثائق من العريف وتفقَّدْنا الملازمَ فقِيل: "لقد استرخص منذ يومين "هههههه... كان يعلم أنّنا لن نغفر له جرائمه ولو بإهمال الحديث معه أو توديعه! "خبّأ رأسه" درءا للإحراج... حملنا ما لدينا من حقائب بسيطة فنحن خفاف من الزاد و"الزواد". وقفزنا في الشاحنتين "الماجوريس" الصفراوين الشهيرتين، رأينا كل شاحنة مختلفة هذه المرّة! اشتقنا إليها وآلمنا تأخُّرها عَنّا! رأيناها كالبُراقِ اليوم لا "كميون"خردة "يترجرج" في المطبّات.. رائحة المازوط فيه مسك وعنبر ودخانه بخور"جاوي

ووشق وداد"! يا الله كم هو جميل أن ترى العالم بعينك الباطنيّة لا بالبصر، فيستحيل القبحُ أمامك جمالًا خلّابا والظلمةُ نورا وهّاجا والرداءة تمام الكمال! "إيه يا دنيا"! ها قد أزِفتْ لحظة الخلاص والانبعاث من الأجداث.. تحرك الركب من رجيم معتوق بعد العصر تتقدّمه سيارة الجيب العسكريّة تُصدِر صوتها المميّز كأنّنا ركب الزعيم (المجاهد الأكبر) يجوب شوارع المدينة، ونحن مجرّد معتقلين في طريق الإفراج. تركنا خلفنا جنودا يلوّح بعضهم لنا باحتشام وشوق للمرافقة ودموع في المآقي وأخرى بلّلت الخدود واللحى! "سيأتي دوركم يا أبناء الوطن اليتيم وستخرجون من القفص، ويتحرّر الطير وفي الفضاء الرحب يسبح ويغرّد! لم يكن الطريق كعادته فقد هيأته الأشغال منذ أشهر قليلة فرحّب بدواليب الشاحنة أحسن ترحاب وانطلقنا نَخيطُ شرايين الصحراء الممزَّقة مُشرّقين نحو "قبلّي".. استدار الزمان يا رجال وأكمل دورةً! فما مزّقْناه ذات أفريل 1986 نرتُقُه اليوم في جوان 1987 وكأنّ خريطتَنا ثوبٌ خلِق يحتاج إلى رتق! ونحن الخيط ونحن السُّدَى ونحن اللحمة ونحن الدواء! تقاسمنا الطريق بين غناء ومرح ونكات وضحك ملء الأشداق فصوْتُ مراد الميلي الرخيم يشدو ونحن نردد: (يا حجل طليت م العلالي يا حجل طلّيت م الجبل.. خبّر الرفاق على حالي، خبّر الإخْوانْ يا حجل.../ كنت بحلم ببلدنا حرة، تاج الحرية مرصع درّة.. والطّلاب إلّي تسجنوا مرة.. عادوا للنضال والعمل (....). وكلّما مررنا بمدينة دوّت هتافاتنا برفع الشعارات المنددة بالقمع وبإرهاب النظام.. ونحن ننشد للثورة و كل أحرار العالم! ولم نشعر لا بغبار ولا غثيان ولا إذلال عريف أو سخرية سردينة! تراءت لنا الصحراء سجادا من عسجد وليس رمالا كالحة كالعادة. هذه قوافل النوق تتهادى عن بعد يهزّها السراب فتتمايل كراقصات البالي الروسية. ومن الأعالي بدت الجبال الرمادية متكئة كشيوخ العشائر حول خوان مذهّب... كلُّ الصُّور تغيّرت واتّشحت بما في النفس من ألوان الغبطة والفرح."الكميون" الأصفر سيَطأُ إسفلت الطريق السيارة المَمَهَّدة السوية، وسيدخل العاصمة غازيا! سيخترق مجال الكميون الأخضر ويهدِّده في موطنه ومجال تخصصه وحرمته الترابية! ألا يحق للخريطة أن تتزيّن بالأخضر من أدناها إلى أقصاها؟ سنلونها من رمادة إلى "كاب سيراط" بلون واحد هو لون الحرية.. بالتأكيد سيكون ذلك بعزم الرجال ولكن لات باب خلاص! لم نحسَّ المسافة وانقضت الليلة بيضاء في الطريق حتى صبّحنا

بالقيروان دون شعور بالجوع رغم طول المسافة والوقت! نزلنا في عاصمة الأغالبة وأفطرنا ثم دخنّا بشراهة ولذة ونشوة لا توصف. وانطلقنا في اتجاه العاصمة "رحلة حنين جنوب إلى الشمال" في هجرة فريدة تنبض قلوبنا بسحر الحرية وشوق النزول من الشاحنة.. وفي مرناق استراح الجمع لبعض الوقت. وقبل الوصول إلى العاصمة سألنا الملازمَ المرافق "أين سننزل يا حضرة الملازم"؟ فقال: "أنتم عهدة من وزارة الداخلية عند وزارة الدفاع لمدة سنة، سنُرجعكم من حيث استلمناكم!" يا الله نحن عهدة مثل كل بضاعة تُسلَّم وتُستَلم!؟ أين حرمة الإنسان يا أبناء الإنسان ويا حماة الإنسان ويا حكام الإنسان!؟ عهدة... !؟ ما أبلغه من تعبير قاله الرجل بعفوية كوميدية سوداء!

(...) دخلتْ الشاحنة ثكنة رأس الطابية عند منتصف النهار وأودعتنا هناك إلى حدود المغرب بلا طعام، فنشَر الجوع بطوننا وجزَّ التدخين حناجرنا، ثمّ حلّ الفرج بقدوم ممثلي الداخلية. كانت في المكان روائح الرهبة والجدية والخشوع. نزلنا واصطففنا غير مصدّقين لما نحن فيه! تصوّروا لو يتراجعون في القرار وتُعيدنا الشاحنة من حيث أتينا!؟ لا شك في أنّنا كنّا سَنُفضِّل الانتحار! جاء ضابطان أحدهما من الدفاع والآخر من الداخلية، تسلم ضابط الدفاع من ملازم الجيش ملفّات بأسمائنا وأعطاها لضابط الداخلية والتفت إلينا وقال: "الآن أرجعناكم من حيث استلمناكم وهذه وثائقكم، انتهت مهمّتنا، فلتصحبكم السلامة "وانسحب إلى مكتبه. أحاط بنا مجموعة من أفراد الشرطة وأركبونا شاحنات الداخلية في اتجاه ثكنة بوشوشة حيث نزلنا كالخرفان. وسلكوا بنا ممرا فاصلا بين ثكنة الجيش وثكنة الشرطة في بوشوشة. كان العِشاء يؤذِّن والعتمة تُغلِّفنا بين الممرات المظلمة حتى انفتح أمامنا في آخر الممر باب حديدي سميك وضيّق له صوت مفزع وصرير، وعلى صُراخ الأعْوان وشتائمهم المُقذِعة وسُخريتهم حُشرنا في غرفة عجيبة غريبة: ينفتح بَابُها على بلاط من قاعدة إسمنتية تفوق مستوى صدر الإنسان، فإذا دُفِع فيها الدّاخل لا يبلُغ قاعتها إلّا زحفاً على بطنه لارتفاعها مقارنة بمستوى عتبة الباب! لا ندري ما السرّ في ذلك، وكان سقفُها بالكاد يصل نصف المتر، فحين حُشِرْنا فيها قَرْفصْنا ورؤوسُنا تمسُّ السطحَ: إنّها علبة من علب السردينة (تذكّر صديقي القارئ سردينتك العجيبة يوم التجنيد..). كُنّا هنالك أكثر من تسعين وهي لا تتسع في أقصى الحالات لعشرين!؟

فكان كلّنا ملحوما في الآخر لِحاما: هذا يفترش ركبة ذاك أو كتفه أو ذقنة ولا نافذة بها حتى كدنا نختنق.. أمر عجيب فعلا.. ما الحكمة من غرفة بهذا الضيق وهذا الشّكل؟ سرها عند الله وأهل العلم والمهندس الذي خطّط لها والجلاّد الذي ابتكر الفكرة! المهمّ لا مجال للتنفس بأريحية فما بالك بالتدخين أو الماء. لم يُسمح لنا حتى بالشرب إلا بعد ساعتين من ثغائنا ورُغائنا وتذمرنا وتودُّدنا لنخرج بالتناوب إلى حنفية على الباب مباشرة نشرب بعض الجرعات بكف اليد! يا الله عُدْنا إلى العذاب الجماعي هذه المرة. كناأكوامًا من اللحم الهزيل في فرن من الاسمنت والآجرّ لا نقدر حتى على التحرك لتغيير أوضاع الجلوس ولا شأن للتفكير في النوم! وكنا نلتمس لبعضنا عذرا، فمن متألِّم لتخدّر في بعض أعضائه ومن شاكٍ من ألم أو من روائح الأحذية. لسنا في تقديرهم بشرًا ولا طلابًا ولا كائنات حية لها كرامة! هذا ما حزّ في أنفسنا فِعلا لأنّنا نسمع أصواتا من خارج الغرفة تقهقه بلذّة وانتشاء، وإذا طلب أحدُنا الخروج للشرب بطرق الباب من الداخل انهالت عليه الشتائم بما لا تتصور.. لمّا طالت علينا ساعات الليل وكدنا نغرق في عرق شهر جوان في هذه "البرمة" الوهاجة وجدنا في طلب الخروج للشرب متنفسا إذ يتسرب من الباب بعض هواء. أما بيت الرّاحة فممنوع حسب التوصية الصارمة التي تلقيناها منذ وصول الغرفة... (أيها القارئ لن تستطيع تصور ما حدث ولنترك الأمر تحت الستر؟). انبلج الصبح ونحن حيارى لا ندري ما المصير!؟ لعلهم تراجعوا في الإفراج عنا!؟ لعلهم سيحاكموننا بعد سنة تجنيد؟ أم تراهم يسجنوننا كلٌّ في ولايته؟ "كنا نتوقَّع ونهمس حتى فُتح الباب فتدافعنا للخروج كزخّات البَرَدِ المتناثر، فهذا يقع فيسقط فوقه الآخر والآخرون لعلوّ العتبة وقد نسيناها بفعل الظلام الذي مازال ممتدا في الأفق... اصطففنا ومن جديد في شاحنات الداخلية واتجهتْ بنا نحو سجن القرجاني... ونزلنا في البهو وأعينُنَا متورّمة وشفاهُنا جافّة وأقدامنا متنمّلة وكلّ عضو في أبداننا يشكو للآخر... وقف ضابط الشرطة بكِبْر وغطرسَة واستعلاء وقال:"شفتو ماو.. جربتو عام تجنيد.. جاتكم خفيفة.. غيركم لتوْ في الحبس.. أنتم محظوظون.. تتربو تو.. والا ننجمو نعاودو نربّوكم..". كان يصرخ ورشاش الشتائم يهطل مقزّزا ونحن لا ننتظر سوى كلمة "انطلقوا".. اصطففنا فجدّدوا معنا البحثَ وأخْذ البصمات والصور كالمجرمين.. سلمونا أوراق السّراح وفُتح الباب فأحسسنا للمرة الأولى

منذ أكثر من سنة نشوة الحرية ونفحتها المنعشة كالأكسير تداعب أنوفنا وتحمل مذاقا وبرودة دافقة إلى الرئتين... آآآآه ما أحلى الحرية...

خرجت مع علي بخطو ثابت نمشي كالشّامتين في العيون التي تلاحقنا من البوابة العريضة وقد تجاوزناها، وبنفس العناد قلتُ لعلي: "نجلس في هذا المقهي المقابل للسجن ونشرب قهوة! قال: "أنت مجنون! أنا لا أطيق البقاء هنا لحظة واحدة فالمكان مُرعب وذكراه رهيبة.. قلت: بالعكس.. لا عليك... إنها لحظة تاريخية حاسمة، وإذا شربنا قهوة هنا فهي تعوّضُ الآلاف في غير هذا المكان وغير هذا الزمان، ها إنني أمتلك ثمن قهوة نشربها مشتركة! قبِل عليّ بالفكرة وجلسنا على الطاولة جلوس الباشاوات نفتل شواربنا بزهو ونرمق باب الحبس أمامنا ونحن أحرار.. يا للمفارقة (أنت لا تشعُر بها أيها لقارئ الكريم كما عشناها..). إنها المعادلة المخرومة ولكنها واقع الحال المرّ... اشتركنا في قهوة فيلتر يتيمة بثلاثمائة مليم تفنّنّا في ارتشافها بما تبقى من تبغ الجيش وارتمينا متسللين في الحافلة في اتجاه مطعم الرابطة وقت الغداء الطلابي.. لا تسل عن شعورنا نسترجع مواقعنا في الجسم الطالبي كعضوٍ بُتر منه ثم استردّه معافى، فقفزتْ صورة قطعة "البوزل" في ذهني، ونحن تلك القطع المتناثرة تكون مجتمعة الصورة النهائية المكتملة.. بحثنا عن بعض معارفنا في المطعم الجامعي فلم نعثر على أحد، مررنا إلى مبيت مونفلوري الجامعي حيث وجدنا الزميل منصور قايدي الحامي وهو من معارف علي، تفضل علينا بسُلفة بعشرين دينارا كاملة (لا أدري هل أرجعها علي أم لا..؟. لأنه يحب الهبات المجانية وأفضل كلمة عنده في اللغة هي كلمة "مجانا"... هههه).. شكرْنا صديقَنا وتخيّرنا مطعما شعبيا في شارع المحطة بالعاصمة تغدّيْنا فيه غداءً مشتركا أيضا خوف ضياع المال! ثم افترقنا مُمَزّقَيْن بين الفرح بالحرية أخيرا والحُزن على انفصالنا بعد العشرة الأخوية... وكان عليَّ أن أتدبر ثمن التذكرة من العاصمة إلى "الفيلاج" فأنا مُفلس إلى النّخاع! تسللتُ في الحافلة الصفراء خلسة دون تذكرة بالطبع إلى "دوار هيشر" حيث يسكن الحبيب بن العيفة المنصوري -ابن عمي- فاستقبلني بحفاوة لا توصف وزوّدني بحاجتي من المال مشكورا، وامتطيت حافلة التاسعة ليلا من باب سعدون... كنت كالعائد من كوكب سحيق: كائنا فضائيا غريبا عن الديار تائها في المدار! أتفرّس في الوجوه وأزهو بأوراقي في جيبي وحريتي أراها تُتوّجني

وأتحسَّسُها بكل جوارحي وأستغرب: لماذا لا يُهنّئني المارة والعابرون والجالسون في المقهى وفي الممرات وقاعات الانتظار!؟ كنت أراني مركزَ الكون فلماذا لا أحد يحسّ معي نفس الشعور!؟ ولا أحد يستلذ الشهد الذي في حلقي ويذوب في شفتيّ؟ ولماذا لا يشاركني إياه أحد؟ ألم يرَ الهائمون في المحطة معاني الحرية تتشكّل في الفضاء وترقص مرحّبة وقد كسرت قيد الألفاظ وسجون العبارات؟ أليست لديهم عيون ليبصروا ما أراه؟ أيجدرُ بي أن أُعيرهم بصري أم بصيرتي حتى يُدركوا..؟ أزِفَ موعد الحافلة بدقّتها المعهودة فركبتُ وغرقت في النوم كأني استرجع دَيْن اللّيالي الماضية في الحبس والرحلة ودَين سنة من الكوابيس.. ولم أنهض إلّا حين أفاقني السائق في مفترق جبّانة المجاهدين بالفيلاج على الساعة الثانية فجرا... ويا للمصادفة العجيبة لقد كان حارس القرية المشهور(...) يتجوّل هناك ليلا ويترصّد كل شاردة وواردة، وهو مكلّف بمهامّه المختلفة ويزيد عليها باجتهاده المميز، فلما نزلتُ من الحافلة استوقفني وانهال عليَّ بوابل من الأسئلة كالمحقّق ثم انصرف وانطلقتُ في الطريق الترابية نحو الكرشون، وما كدت أقطع الكيلومترين حتى لحق بي ضوء سيارة ففرحتُ لعلّه يحملني إلى وجهتي ولكنها مفاجأة السيد الحارس حيث أبلغ عنّي مركز الحرس وهو يعرف قصتي -لأنّه ابن بلدتي المتقن لعمله والمتفاني في رسالته- فنزل عونان وتحقّقا من أوراقي وأركباني من جديد إلى المركز لتسجيل هذا الحدث العظيم في سجلّ تقريرهم اليومي(...) فسلّمت أمري إلى الله وانتظرت استيفاء البحث والتدقيق والأسئلة بأنواعها. فكانت مرارتي توشك أن تنفجر... وبعد ساعة أخلوا سبيلي فاستأنفتُ سيري في طريق الكرشون العظيم متثاقلا وقد امتصّ الزمن مني كل جهد ورحيق، وتناءت المسافة حتى وصلت البيت فلم أجد به إلاَّ إحدى جدّاتي فارتميتُ بين أحضانها أتشمّم طيبها وسألتها عن جدتي الأخرى فلم تجب فعرفت أنها توفيت ولم يخبروني، وكانت لها عندي منزلة لا توصف. ارتفع صوتي ملتاعا ببكاء لا مثيل له والتحقتُ ببقية العائلة وكانت في حقل الشعير، فلما رآني البعض تسابقوا لاعتراضي ولا أحد ينتظر الآخر وغصّت عيناي وحنجرتي بدموع وشهيق الحزن ممتزج بالفرح ولا أدري أيّهما أبكاني أكثر وفجّر أعماقي..").

هذه هي قصتي يا سيدي، وأنا هنا اللّيلة استردُّ من الماضي بعض ارتواء لشجرة العمر الآخذة في الاصفرار ولا ملاذ لي من الـ"هنا إلا الـ"هناك...".

وما كدتُ أُنهي كلامي والتفتُّ إلى متَّكَإِ الشَّيخ ِأتحسّسُه ببصري وقد خبَا ضوء الموقد من ساعة، فلم أرهُ، وما كنتُ سمعتُ منه تعليقا.. فاقتربتُ من موضعه وإذا به جُبَّةٌ بيضاءُ ناصعةٌ معلقة على "جبّارة" من النَّخْل في هيئه إنسان، وقد خُطَّت على صدرها دوائرُ وخطوطٌ مختلفةُ الأشكال مطرزةٌ بلون الذّهبِ كتلك التي خطّها الشيخ على الرمل، ولا أثر له كأنما ابتلعه اصفرارُ الصحراء أو ذاب في اخضرار البستان.. وظلّ صدَى صوتِه الذي استقبلني به يتردّد في الأرجاء كالنشيج "أنا وجهك القادم من مستقبل الأيام وأحلامك... أنت هو أنا بعد ملاذي للآتي في مرآة ذاتك...". وكانت ليلة اختزلتْ كل الزّمان في الذاكرة.. وكلّما عُدْت إلى الموقع تردَّد النشيد كأنما قد ظلَّ معَلَّقا في الفضاء يستقبلُ كلّ عابر وكّل مقيم وهو يروي حكاية من أيام المحتشد....

تونس في: 23مارس 2019

مرادفات كلمات وردت باللّهجة العامّية:

عراجين:عناقيد التمر/الدقلة:من أجود أنواع التمور بتونس/ السيفيل : اللباس المدني / الميليتار: العسكري/ البرودكان: الحذاء العسكري/الصاك ماران :الحقيبة العسكرية / الجرمانة : البطة / كميون : شاحنة / ماجيروس : نوع من الشاحنات العسكرية الكبيرة / الشتاير : نوع بندقية/ الهريسة :نوع من الشطة التونسية / سامور : لهيب النار /تويزة : مجموعة تساعد في العمل/يقردش : يحلج الصوف / نافول و مزود : وعاء من الجلد يحفظ فيه الدقيق / كسكروت : لمجة (سندويتش)/ السردينة : سمك السردين / بانو: حوض / ماتراك : عصا البوليس / معكوش : منكمش / قميلة : إناء أكل عسكري / بوجادي: مستجدّ/ الراقو : مرق خفيف/ كياس : طريق معبدة / خرجة : مساحة حصاد صغيرة/ شهيلي : رياح السموم الحارة / بيست : طريق ترابية/ البلفيدير : حديقة مشهورة بتونس / مزيانة: جميلة /

بوكشاش : نوع من السحالي الصحراوية/ الدوش : الدش / بقبق : غرق / البالة : الرفش لحثو التراب / براد : إبريق صغير / الصباط : الحذاء / لُقّاط : السنابل المتناثرة / حلاقيم : قنوات/ قريشة : ساحة مسيجة بالقصب أو الجريد / جداد: خيوط النسيج/ القازوز :المشروب الغازي / الروتي: المَصليّ / يتقزقز: يحدث صوتا تحت الأضراس / الشعال و الزّيتة والقتاد :نباتات صحراوية/المارشة :المشية العسكرية /قاطو : مرطبات / حجامة :حلاقة / بسيسة : أكلة شعبية تونسية لزاد المسافر/ فلاقة: قطّاع الطرق / دراجي: حلويات الخطوبة / أونيموق : نوع شاحنة عسكرية/ خيشة : قماش خشن / كركار : كسول /كرناف : جريد النخل الخشن / كمبة : لباس العسكري/ الزرب: السياج من الجريد/ركشة: تخييم خلسة / شكشوكة: مرق شعبي / فيلاج : القرية الصغيرة/ برنوس: و قشابية ألبسة من الصوف شتوية /القازون : العُشب / عبُّون : طرف الملحفة/ الملحفة : لباس البدويات / هنشير : موقع أثري / درابيل : برانيس رثة / حراقيات : أيام الحر /دلاع : فاكهة البطيخ الأخضر /برمة : قِدر/حارة : أربع حبات منكل شيء/ كعبة:حبة/ كينزة :نصف شهر /بيدون :وعاء بلاستسكي لحمل السوائل /نوالة: مطبخ ريفي /ياطاش : نصيب من العمل/ لواج : سيارة أجرة / 404باشي : نوع شاحنة/براكس :خرفان /

كاتب النصّ:

محمّد السّاسي المنصُوري: مولود بريف "الكرشُّون" من ولاية القصرين سنة 1964، مبرّز في اللّغة والآداب والحضارة العربية سنة 2001، خرّيج كلّية الآداب في جامعة منّوبة. يدرّس في المَعاهد التّونسية.

كلمةعلى ظهر الغلاف

إنّ قارئ "من أيّام المحتشد"ليترقّب الأحداث ومآلاتها بشغف وقلّة صبر، فهذا الأثر يضمّ بين طيّاته الكثير من التوثيق لواقع تونسالسياسي والاجتماعي. يستدعيه السارد من خلال تجربة اعتقاله في محتشدات النظام منتصف العقد الثامن من القرن العشرين،كما يحمل روح التجديد و قدرة لافتة على التلاعب بتراتبية الحكاية المستدعاة من مكنز الذاكرة.يتمّ ربط كلّ ذلك من خلال الزمن ببعديه الطبيعيًالحياتي،و الهلامي المتخيّلً، يخلقه محمد الساسي المنصوري خلقا وينشئه إنشاء. أمّا المكان ففضاء صحراوي شاسعيختزل العالم بين كثبان رماله، فيصبح هو الجوهر و البداية والمنتهى كما اراد له السارد.

ومن ثمّة، يستحقّ هذا الأثر الثناء لتميّزه وتنوّعه في فضاء السرد. يتردّد بينالسير ذاتي الواقعي، والمتعيّن المادي الذي يلامس في غرائبيته التخييلي واللاّمعقول. وفي هذه المراوحة ما فيها من الابتعاد عن البنية الخطيّة التقليدية في صياغة الحكي، ونحت صورة تجديدية للخطاب السردي،ما مكّن من إثراء اللّوحات المشهديّة ومنحها قيمة فنية راقية.هذه "اللّوحات التيحيكت بأنامل ماهرة جعلت منها نسيجا متناسقا.

"من أيّام المحتشد"، حكاية الأنظمة المستبدّة. حكاية الظلم والقهر. وقبل كلّ ذلك، حكاية الذات تنشد الخلاص من كلّ قيد في رحلتها الطويلة باتّجاه الجوهر والأصل: الإنسان.

*عبد القادر عليمي

(أستاذ الأدب الحديث بالجامعة التونسية)